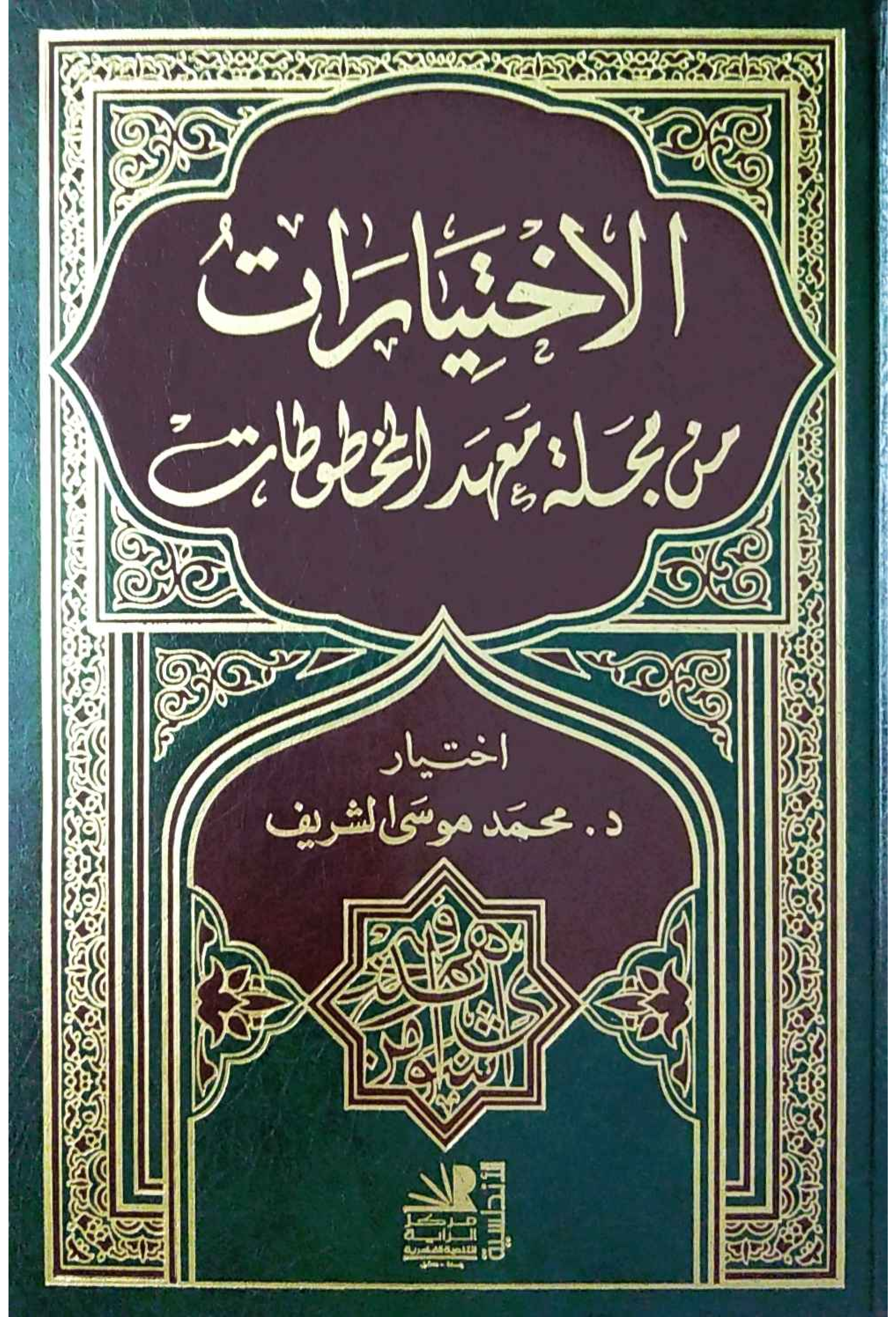

الاختيارات
من مجلة معهد المخطوطات
اختيار
د. محمد موسى الشريف

الاختيارات

من مجلة معهد المخطوطات

اختيار

د. محمد موسى الشريف



بسم الله الرحمن الرحيم

الطَّبْعَةُ الأولى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م



المملكة العربية السعودية-جدة- حي الصفا- شارع الشاكرين
جوال ٠٠٩٦٦٥٠٢٦٨٢٢٤٧ -ص ب ٤١٥٤٧-الرمز البريدي: جدة ٢١٥٣١

الجمهورية العربية السورية - دمشق
ص ب ٩١٨٤ - هاتف ٦١١٩٣٦١



الحمد لله الذي خصَّ النوع الإنسانيّ بالفهم، ومنَّ عليه بالعلم، ورزقه نعمة العقل، وحماه من شرور الجهل، وآتاه من كل النعم، ووقاه كثيراً من الشرور والنِّقَم.

أحمده سبحانه وتعالى على آلائه، وأشكره على نعمائه.

وأصلي وأسلّم على خيرته من خلقه، وصفوته من عباده، سيد الأولين والآخرين، محمد بن عبدالله القرشي الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإن أسلافنا الكرام أقبلوا على العلم ـ تعلُّماً وتعليماً ـ إقبالاً منقطع النظير، معدوم المثيل، فتركوا من التراث النافع المهم شيئاً لا يُحصر ولا يُحاط به علماً ولا يُستطاع، لكنهم تركوا ذلك الميراث الفاخر لقوم غلبتهم همومهم ومشاكلهم، وضعفت هممهم وقُدَرهم، فلم يعودوا يستطيعون ـ على الوجه المؤمل المظنون ـ مداومة القراءة والاطّلاع، ولا التنقير عن الفوائد والعِبَر والعظات، هذا والمكتبة الإسلامية كالكنز المكنون والدر المصون، والمفترض فيهم البحث عن تلك الكنوز في شغل شاغل وهم متواصل فما الظن بسائر الناس.

هذا وإنه قد وقر في نفسي، وتأكد عندي ـ فيما يشبه اليقين ـ أن

كثيراً من الدعاة والمفكرين والمثقفين، بل إن كثيراً من طلبة العلم والمشايخ قد حيل بينهم وبين الاستفادة من مطوَّلات العلوم ومبسوطات الفنون، وذلك لتزاحم الأعمال وتراكم الهموم، وسرعة مضيّ الزمان، ومَن وُفِّق بحيث يجد وقتاً كافياً للمراجعة والقراءة صُدّ بسبب طول تلك المبسوطات، وشُغل بطول الاستطرادات وتشعُّب المسائل تشعُّباً يكاد يذهب بصبر الحليم.

فأصبحت الأمة ـ والحال ما وصفت ـ في حاجة ماسة إلى التقريب والتهذيب والاختصار، والاختيار من كل نافع جليل، حتى تتم الاستفادة من هذا التراث العظيم.

هذا ومن أهم المصادر ـ في رأيي ـ التي حوت جوانب من التراث والفكر والثقافة ويستحسن أن تقرب إلى الأمة المجلات الإسلامية العلمية التي نشأت منذ مدة طويلة مثل «المنار» للأستاذ محمد رشيد رضا ـ رحمه الله تعالى ـ في خمسة وثلاثين مجلداً، و«الأزهر» في مائة جزء تحوي قرابة سبعين مجلداً، وما زالت تصدر، حرسها الله تعالى ووفّق القائمين عليها، و«الفتح»، و«الزهراء» للأستاذ محب الدين الخطيب ـ رحمه الله تعالى ـ، و«المسلمون»، و«حضارة الإسلام» للأستاذ مصطفى السباعي ـ رحمه الله تعالى ـ وغيرها من المجلات النافعة المفيدة.

وإنما كانت الحاجة ماسة إلى تقريب هذه المجلات واختصارها للآتي:

أ ـ كِبَر حجمها:

وهذا قد يصدُّ أكثر الناس عن القراءة، كما أسلفت.

ب ـ عِظَم مضمونها وأهميته، وذلك للآتي:

١ ـ تُعدُّ تلك المجلات جزءاً من تاريخ الأمة في القرن الماضي، وتبرز جوانب تاريخية وثقافية وشرعية لا غنى عنها.

٢ ـ في المجلات كنوز منسية دفينة بين صفحاتها لا يكاد يُعثر عليها ولا يُستطاع، وذلك لافتقار أكثرها إلى فهرسة موضوعية تبرز الفوائد، وتحصر الشوارد.

٣ ـ كون تلك المجلات مرجعاً لكثير من المسائل والقضايا التي شغلت الأمة ردحاً من الزمان، وأكثر تلك القضايا والمسائل ما زلنا نعيشها ونرى آثارها.

٤ ـ في تلك المجلات مادة علمية تثري ثقافة الناشئة، وتُمتِّن لغتهم: ألفاظاً وأسلوباً ومحاورةً.

جـ ـ قلة تداولها بين أيدي الناس:

وذلك لأن أكثرها قد توقف صدوره منذ أمد بعيد، وما صدر منها يندر أن يوجد في المكتبات الخاصة أو العامة، فالموجود منها بين يدي خاصة الناس قليل نادر فضلاً عن عامة طلبة العلم والمثقفين.

وليُعلم أن ما هو موجود منها يرتفع ثمنه عن قدرة أكثر الناس.

د ـ أكثر أبحاث تلك المجلات قد نُسي:

وذلك لموت أكثر أصحابها، ولعدم نشر أكثرها نشراً مستقلاً يبرزها ويقربها إلى الناس.

لكل ما سبق فإني قد صحّ العزم مني ـ والتوفيق بيد الله تبارك وتعالى ـ على تهذيب عدد من المجلات وإخراج أهم ما فيها للناس، وابتدأت بـ«مجلة معهد المخطوطات العربية» التي تقع في أكثر من أربعين مجلداً، وذلك لأسباب تضاف إلى الأسباب الأربعة العامة السابقة، فمن ذلك:

١ ـ القائمون الكرام على المجلة إنما كان يعنيهم شأن المخطوطات، فسردوا أماكن وجودها، وسمَّوا ما في المكتبات الخاصة والعامة منها، وعرَّفوا بعضها، وحقَّقوا بعضها، وذكروا أخبار المهتمين بشأنها وراصديها في أرجاء العالم، وحدّدوا معارضها، وأكثر ذلك كان مفصَّلاً وموسَّعاً.

ولما كان أكثر ما ذكرت مهمّاً لعدد محدود من الناس، وكان في ثنايا المجلة كنوز بُثَّت على نحو يصعب على مريدها استخراجها والاستفادة منها، رأيت ـ والله تعالى أعلم ـ أن جمع الفوائد منها نافع مفيد.

ولا يتعجب المرء لقلة ما أخرجت من مجلة يبلغ حجمها زيادة عن أربعين مجلداً، فما أُخرج هو ـ في رأيي ـ زبدة ما في المجلة، وأهم ما فيها، وذلك إذا رُوعِيَ الجمهور الأعظم من الناس، كما أسلفت.

٢ ـ تنوع مادة المجلة تنوعاً يكاد يصرف كثيراً من الناس عنها، ففي ثناياها طبٌّ وفلك، وعلوم أرضية وبحرية، ولغوية وأدبية، وتاريخية وجغرافية، مع ما فيها من آداب النفس، وعدد من العلوم الشرعية المتنوعة، فصار إخراج الفوائد، وحذف ما يمكن حذفه مما هو ذو أهمية مرجوحة ـ إذا تعلق الأمر بأكثر القراء ـ أمراً نافعاً مفيداً، إن شاء الله تعالى.

عملي في الاختيار:

١ ـ قمت باختيار النافع المشوق، وهذان شرطان أرى أنه لا غنى عنهما، حتى تُقرأ الكتب في هذا العصر، والمكتبة الإسلامية أكثرها نافع لكن بعضه مشوق، فاختيار النافع المشوق من المطولات أمر يجب أن يُراعى في التقريب والاختيار والتهذيب.

٢ ـ قمت باختيار الموضوع ـ سواء أكان مخطوطاً محققاً أم بحثاً ـ ثم اخترت اختياراً ثانياً من ذلك المختار الأول حتى تكتمل الفائدة للمطالع فيقرأ قراءة متتابعة ليس فيها تشويش ولا استطرادٌ ممكنُ الحذف.

وللاختيار من المختار فائدة مهمة أخرى ـ في نظري ـ وهي حذف ما غلب على ظني عدم صلاحية إيراده لما فيه من خطأ علميّ أو شرعي، أو بغي وتجاوز بُني على هوى، أو غير ذلك من القوادح والصوارف.

٣ ـ أثبتُّ تعريف المحققين الكرام بالمخطوط وصاحبه بأخصر وجه يمكّن القارىء من فهم موضوع المخطوط وأهميته، ومعرفة مصنفه، إذ توسع أكثر المحققين في الكلام على المخطوط توسعاً مطلوباً لكن ليس في مقام الاختيار والتلخيص.

٤ ـ ترجمت الأعلام الواردة ـ عدا المشهورة منها ـ وشرحت بعض الكلمات والمصطلحات التي قد تغمض على بعض القراء، وخرَّجت ما لم يخرَّج من الأحاديث، وذكرت الحكم على ما يحتاجه الحكم منها، وضبطت ما يحتاجه النص من ضبط، وعلقت على بعض المواضع التي أرى تبيينها أو توهينها، وقد قدمت كل ذلك بكلمة «قلت» ليتميز كلام المحققين عن كلامي.

وهذا عمل قد استغرق وقتاً، وذلك لأن أكثر المحققين ـ الذين أثبتُّ تحقيقهم ـ إنما جروا على منهج ضبط المخطوط بدون التعليق والتخريج، ولو كان مهمّاً، وهذا منهج نافع لكن للمتميزين من المشايخ وطلبة العلم، أما متوسطوهم فإنما هم في حاجة إلى التخريج والضبط والشرح المستفيض، والله أعلم.

٥ ـ رتبت الاختيار على أعداد المجلة الأول فالأول حتى أتيت على جميع المجلدات.

٦ ـ اخترت ـ في أكثر ما اخترته ـ ما لم يُنشر مستقلاً، أو ما لم يتناهَ إلى علمي أنه نُشر مستقلاً.

٧ ـ كان الاختيار من المجلة محدوداً قليل الحجم ـ كما أسلفت ـ وذلك بسبب اشتراطي على نفسي شرطي النفع والتشويق، لكنه مما أرجو أن يكون مفيداً بإذن الله تبارك وتعالى.

هذا ولا يستغني طالب العلم المزاول المخطوطات عن اقتناء المجلة الأصل ـ على صعوبة ذلك الاقتناء ـ لكن هذا الاختيار إنما هو لعموم المثقفين، والله أسأل أن ينفع بهذا الاختيار كما نفع بأصله، وهو الموفق المعين، والحمد لله ربِّ العالمين.

هذا وسيتوالى ـ بعون الله وقوته ـ إصدار عدد من المجلات المختارة بعناية، ومَن يرغب من القراء الكرام في المشاركة في الاختيار من المجلات العلمية، أو الدعوية، أو الثقافية، فليفصح برغبته وليتقدم إليّ بالمراسلة شرط أن يأنس من نفسه القدرة والهمة على العمل المتواصل الطويل، والله الموفق والمعين.

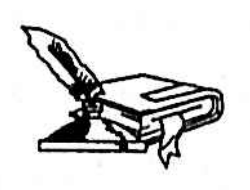
المؤلف

محمد موسى الشريف

ص.ب. ٤٢٣٤ جدة ٢١٥٤١

E-mail: mmalshareef@yahoo.com

Web-Site: www.ALTAREEKH.com



المواضيع المختارة

١ ـ شروط المؤرخ في كتابة التاريخ والتراجم: خمس فتاوى: تحقيق الأستاذ/ فؤاد سيد.

٢ ـ «رسالتان بين سلطان مالوه والأشرف قايتباي» بشأن الأوضاع في الحجاز في القرن التاسع: تحقيق الدكتور/ أحمد دراج.

٣ ـ «من رسائل نظام الملك ـ الوزير السلجوقي»: تحقيق الدكتور/ عبدالهادي رضا محبوبة.

٤ ـ «هل للمكتبة أثر في تكوين المثقف»: الأستاذ/ عبدالله كنون.

٥ ـ «لحن العامة والخاصة في المعتقدات» لأبي بكر السُّكوني: تحقيق الأستاذ/ عبدالقادر زمامة.

٦ ـ «رسالة مكر النفس» للحكيم الترمذي: تحقيق الدكتور/ عبدالفتاح عبدالله بركة.

٧ ـ «الأقوال القديمة في حكم النقل من الكتب القديمة» للإمام البرهان البقاعيّ: تحقيق الدكتور/ محمد مرسي الخولي.

٨ ـ «مشاكلة الناس لزمانهم وما يغلب عليهم في كل عصر» لليعقوبي: تحقيق الأستاذ/ محمد كمال الدين عز الدين.

٩ - «بيان السبب الموجب لاختلاف القراءات وكثرة الطرق» للإمام أبي العباس المهدوي: تحقيق الدكتور/ حاتم الضامن.

١٠ - «بيان العيوب التي يجب أن يجتنبها القراء وإيضاح الأدوات التي بني عليها الإقراء» لأبي علي ابن البناء: تحقيق الدكتور/ غانم قدوري حمد.

١١ - «نوادر فلسفية ترجمها إسحاق بن حنين»: تحقيق الأستاذ/ صلاح الدين عبدالله.



١ ـ شروط المؤرخ في كتابة التاريخ والتراجم[١]

خمس فتاوى لم تنشر لخمسة من أعلام القرن التاسع الهجري

للأستاذ فؤاد سيد[٢]

أجمع العلماء على أن علم التاريخ من أجل العلوم، وأكثرها فضلاً ونفعاً وفائدة، وأن تراجم السلف وسيرهم وما وُصفوا به من خير وشر، مدعاة للناس للاقتداء بما كانوا عليه من خير، وتجنُّب ما اتصفوا به من شر، وقد عدَّ الحافظ السخاوي علم التاريخ فنّاً من فنون الحديث النبوي، يجب أن يُسلك فيه المنهج القويم المستقيم[٣].

وإذ كان يقع في الأخبار الصدق والكذب، والحق والباطل، والخطأ والصواب، فقد وضعوا قديماً شروطاً فيمن يتعرض للرواية والسند والأخبار، والتزموا سَوْق تلك الأخبار بالأسانيد، وتتبُّع أحوال الرواة التي

---

(١) قلت: انظر «مجلة معهد المخطوطات»: المجلد الثاني، الجزء الأول: ١٦٢ ـ ١٧٧.

(٢) قلت: هو فؤاد بن سيد عمارة: بارع في قراءة المخطوطات. ولد بالقاهرة سنة ١٣٣٤. ظهرت مزيته في سرعة قراءته الخطوط القديمة ارتجالاً فعين في دار الكتب المصرية. أرسل في بعثتين إلى اليمن للتعريف بنوادر المخطوطات في صنعاء وتصويرها. وكلف تحقيق بعض المخطوطات وتصحيح طبعها. ووضع فهارس لدار الكتب المصرية ولمعهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية، وتولى رئاسة قسم الإرشاد للباحثين عن المخطوطات بدار الكتب قبل وفاته. توفي سنة ١٣٨٧ رحمه الله تعالى. انظر «الأعلام»: ٥/١٦٠ ـ ١٦١.

(٣) (الإعلان بالتوبيخ): ص٤٤.

تساعد على نقد أخبارهم، وما يجب أن يكونوا عليه من عدالة وضبط، فكان من ذلك «الجرح والتعديل» وهو علم «يبحث عن جرح الرواة وتعديلهم بألفاظ مخصوصة، وعن مراتب تلك الألفاظ. . والكلام في الرجال جرحاً وتعديلاً، ثابت عن رسول الله ﷺ، ثم عن كثير من الصحابة والتابعين فمَن بعدهم، وجوّز ذلك تورعاً وصوناً للشريعة لا طعناً في الناس، وكما جاز الجرح في الشهود، جاز في الرواة، والتثبُت في أمر الدين أولى من التثبُت في الحقوق والأموال»[1].

وعلم التاريخ إذ يتعرّض لسير الناس وأحوالهم، وما كانوا عليه في حياتهم من صفات وأفعال، فقد اشترط في المؤرخ: «أن يكون عالماً عادلاً صادقاً، وإذا نقل يعتمد اللفظ دون المعنى، وأن لا يكون ذلك الذي نقله أخذه في المذكرة وكتبه بعد ذلك وأن يسمي المنقول عنه. . . ويشترط فيه أيضاً، لما يترجمه من عند نفسه، ولما عساه يطول في التراجم ويقصر، أن يكون عارفاً بحال صاحب الترجمة علماً وديناً وغيرهما من الصفات، وهذا عزيز جداً، وأن يكون حسن العبارة، عارفاً بمدلولات الألفاظ، وأن يكون حسن التصوُّر، حتى يتصوّر حال ترجمته جميع حال ذلك الشخص، ويعبر عنه بعبارة لا تزيد عليه ولا تنقص عنه، وأن لا يغلبه الهوى فيخيل إليه هواه الإطناب في مدح مَن يحبه، والتقصير في غيره. .».

ومما ذكره تاج الدين السبكي[2] في «معيد النعم» عن المؤرخين: «ومنهم المؤرخون، وهم على شفا جرفٍ هار، لأنهم يتسلطون على أعراض الناس، وربما نقلوا مجرد ما يبلغهم من صادق أو كاذب،

---

(١) (كشف الظنون): ٣٩٠/١.

(٢) قلت: هو الشيخ عبدالوهاب بن الإمام تقي الدين علي بن عبدالكافي السبكي، توفي سنة ٧٧٤هـ، رحمه الله تعالى. انظر ترجمته في «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة» للحافظ ابن حجر: ٣٩/٣ ـ ٤١.

فلا بد أن يكون المؤرخ عادلاً عدلاً، عارفاً بحال مَن يترجمه، ليس بينه وبينه من الصداقة ما قد يحمله على التعصُّب له، ولا من العداوة ما قد يحمله على الغض منه، وربما كان الباعث له على الضِّعة من أقوام مخالفة العقيدة، واعتقاد أنهم على ضلال، فيقع فيهم، أو يقصر في الثناء عليهم لذلك».

ومن هذه الأقوال والنصوص، نرى اهتمام الناس في مختلف العصور بالشروط التي يجب أن يكون عليها المؤرخ، والحدود التي عليه التزامها في تأريخه للحوادث والتراجم، ونرى هذا الاهتمام في القرن التاسع يظهر في سؤال سائل وجّهه إلى كبار علماء عصره ليفتوا في أمر هو:

هل للمؤرخ أن يذكر تراجم الناس على ما يعلم منها من خير وشر؟! وقد أجيب على هذا السؤال بخمس فتاوى، صدرت من خمسة من أعلام القرن التاسع الهجري وكلهم شغل منصب «قاضي القضاة» كما يبدو ذلك من الحرص على ذكر هذا اللقب بجوار أسمائهم في رؤوس هذه الفتاوى. رغم أن أكثرهم اشتهر بلقب شيخ الإسلام أو غيره من الألقاب، وهؤلاء العلماء هم:

١ ـ قاضي القضاة شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الشافعي، المتوفى سنة ٨٥٢. «الضوء اللامع ٢:٣٦».

٢ ـ قاضي القضاة شمس الدين محمد بن علي بن محمد القاياتي الشافعي، المتوفى سنة ٨٥٠. «الضوء ٩:٢١٢».

٣ ـ قاضي القضاة سعد الدين سعد بن محمد بن عبدالله الديري الحنفي، المتوفى سنة ٨٦٧. «الضوء ٣:٢٤٩».

٤ ـ قاضي القضاة بدر الدين محمود بن أحمد بن موسى العيني الحنفي، المتوفى سنة ٨٥٥. «الضوء ١٠:١٣١».

٥ ـ قاضي القضاة عز الدين أحمد بن إبراهيم بن نصر الله الكناني الحنبلي، المتوفى سنة ٨٧٦. «الضوء ١ : ٢٠٥».

وهذه الفتاوى موجودة في «الكتبخانة الآصفية» بحيدر آباد بالهند وكتبت بخط أحد العلماء، وربما كتبت في أواخر القرن التاسع، وهذه هي الفتاوى:



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وصلاته وسلامه على محمد وآله وصحبه والتابعين

ما يقول السادة العلماء الأعلام مشايخ الإسلام، أمتع الله بوجودهم الأيام، في مؤرخ يذكر تراجم الناس على ما يعلم منها من خير وشر، تابعاً في ذلك لمَن تقدّمه من سلف العلماء، والأئمة الماضين، وهم القوم بهم يُقتدى، وعليهم يُعوَّل، قاصداً بذكر الشر التنفير ممن يكون ذلك صفته، مما عساه ينقل عنه في ذلك من أمر ديني، وبما زلّ فيه تبعاً لهواه ناظراً إلى قول النبي ﷺ: «**بئس أخو العشيرة**»[1]. متثبتاً فيه بقول إمام الجرح والتعديل يحيى بن معين[2]، وقد لامه بعضهم في مثل ذلك فقال: لأن يكون هؤلاء أخصامي أحب إليَّ من أن يكون خصمي رسول الله ﷺ، مستنصراً بكلام بعض أكابر السلف: هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم[3]، مقتدياً بنجوم هذه الأمة، خصوصاً الأئمة الأعلام، فقد قال الإمام أبو حنيفة: ما لقيت

(١) «صحيح البخاري»: كتاب الأدب ٧: ٧٦.

(٢) قلت: هو إمام الجرح والتعديل، أبو زكريا البغدادي، ثقة حافظ مشهور، مات بالمدينة سنة ٢٣٣ وله بضع وسبعون سنة. انظر «التقريب»: ٥٩٧.

(٣) قلت: هو من محمد بن سيرين رحمه الله تعالى. انظر «نزهة الفضلاء»: ١/٤٥٧.

أصدق من عطاء[1]، ولا أكذب من جابر الجعفي[2].

وقال الإمام مالك في حق ابن إسحاق مع إمامته: كان يكذب[3].

وقال الإمام الشافعي في حق حرام بن عثمان[4]: الرواية عن حرام حرام، ومَن روى عن مقاتل[5] قاتله الله، وأبو جابر[6] بيّض الله عينيه.

وعن الإمام أحمد بن حنبل في كتابه «العلل» من ذلك ما لا ينحصر، وغيرهم مِمَّن خلف بعدهم إلى هذا الزمان، ولا سيما إذا كان هذا المؤرخ ناقلاً عن أحد ممن تقدّمه وذلك مع استحضاره وخوفه مما ورد في اتباع الهوى وعدم ميله إليه، فاعترض عليه معترض، فقال له: هذا غيبة لا تحل، ويجب على فاعله التعزير، وكثّر عليه التشنيع. فهل هو مصيب في أن ذلك غيبة لا تحل أو هو غيبة مباحة؟ وهل المؤرخ مأجور مثاب على ذلك، إذا قصد به ما ذكرناه؟ وهلا يلام مَن نفر من هذا العلم، ويكون عائباً لمَن لا يحصون كثرة ممن تقدّم من كبار العلماء وأئمة الدين الذين لا مطعن فيهم سوى ذلك؟ والله أعلم.

---

(١) قلت: هو عطاء بن أبي رباح القرشي بالولاء، المكيّ ثقة، فقيه فاضل، مات سنة ١١٤، روى عنه أصحاب الكتب الستة. انظر «التقريب»: ٣٩١.

(٢) قلت: هو جابر بن يزيد بن الحارث الجعفي، أبو عبدالله الكوفي، ضعيف، رافضي، مات سنة ١٢٧. انظر المصدر السابق: ١٣٧.

(٣) قلت: أما الكذب فلا يصح رمي ابن إسحاق به سواء أكان من الإمام مالك أم من غيره، وقد كانت بينهما منافرة معروفة. انظر تفصيل ذلك في «سير أعلام النبلاء»: ٣٨/٧ ـ ٤٢.

(٤) قلت: هو الأنصاري المدني، كان غالياً في التشيُّع، وقال الإمام أحمد: ترك الناس حديثه. انظر «لسان الميزان»: ٢/٢٣٠ ـ ٢٣١.

(٥) قلت: هو مقاتل بن سليمان الأزدي الخراساني، أبو الحسن البلخي، نزيل مرو، كذّبوه وهجروه، ورمي بالتجسيم، مات سنة ١٥٠ .انظر «التقريب»: ٥٤٥.

(٦) قلت: هو أبو جابر البياضي محمد بن عبدالرحمٰن، مدينيّ ليس بثقة. انظر «لسان الميزان»: ٢٦/٧.

فأجاب قاضي القضاة شهاب الدين ابن حجر الشافعي[1]:

الحمد لله: اللهم اهدني لما اختُلف فيه من الحق بإذنك.

الذي يتصدّى لكتابة التاريخ قسمان: قسم يقصد ضبط الوقائع، فهو غير متقيد بصنف منه[2]، ولكن يلزمه التحري في النقل، فلا يجزم إلا بما يتحققه، ولا يكتفي بالنقل الشائع، ولا سيما إن ترتبت على ذلك مفسدة من الطعن في حق أحد من أهل العلم والصلاح، وإن كان في الواقعة أمر قادح في حق المستور، فينبغي أن لا يبالغ في إفشائه، ويكتفي بالإشارة، لئلا يكون المذكور وقعت منه فلتة، فإذا ضُبطت عليه لزمه عارها أبداً.

فيحتاج المؤرخ أن يكون عارفاً بمقادير الناس وبأحوالهم وبمنازلهم، فلا يرفع الوضيع ولا يضع الرفيع.

والقسم الثاني: مَن يقتصر على تراجم الناس، فمنهم مَن يعمّم ومنهم مَن يتقيَّد، وعلى كل منهما أن يسلك المسلك المذكور في حق مَن يترجمهم، فالمشهور بالخير والدين والعلم لا تتبع مساوئه فإنه غير معصوم، والمستور قد تقدّم حكمه، والمجاهر بالفسق والفجور، إذا خشي من ستر حاله ترتب مفسدة، كالاغترار بجاهه أو بماله أو بنسبه فهذا يجوز له بهذا القصد، أن يبين حاله بالنسبة لرفيقه أو أخيه أو قريبه، كأخوين مثلاً اشتهرا بالعلم، وأحدهما كان مشهوراً بالفقه

---

(١) قلت: هو أحمد بن علي محمد، الأستاذ، إمام الأئمة، أبو الفضل الكنانيّ العسقلاني المصري ثم القاهريّ، الشافعيّ ويعرف بـ(ابن حجر) وهو لقب لبعض آبائه. ولد سنة ٧٧٣ بمصر العتيقة ونشأ بها يتيماً، وحفظ بعض المنظومات، وأخذ على كثير من المشايخ، وجدّ في الفتوى حتى بلغ الغاية، وأقبل على الحديث بكليته، وارتحل في طلبه. ولي عدة وظائف في الحسبة والإمامة والقضاء. وله المصنفات النافعة المشهورة. توفي في القاهرة سنة ٨٥٢ رحمه الله تعالى. انظر «الضوء اللامع»: ٢/ ٣٦ ـ ٤٠.

(٢) قلت: من أصناف علم التاريخ التراجم، والوقائع بحسب السنين، وتاريخ المدن والولايات إلخ . . .

والديانة، والآخر بعكسه، وربما وجب عليه بيان هذا المجاهر إذا كان هناك مَن يغتر به.

وقد بسط شيخ الإسلام النواوي[1] القول في ذلك آخر كتاب «الأذكار» وبيَّن حال مَن يباح ذكره بما فيه... فمَن أراد الوقوف عليه فقد أرشدته إليه.

ومن جملته بيان حال المحدث:

ثم الذي يتقيّد بصنف من الناس تارة يكون محدثاً، وتارة يكون غير محدث. فالمحدث أصل وضع فنه بيان الجرح والتعديل فمَن عابه بذكره لعيب المجاهر بالفسق أو لمتصف بشيء مما ذكر، أو ملبس أو مشارك للمجاهر في صفته، فيخشى أن يسري إليه الوصف[2].

ثم هذا المحدث، يكون تارة بلغ درجة الاجتهاد في الجرح والتعديل، وتارة يكون ناقلاً عن غيره.

فالأول: هو الذي تقدّم تفصيل حاله.

والثاني: يلزمه تحري الصدق في النقل، ولا يعتمد على مجرد التشنيع في كل أحد، فإن للناس أغراضاً متفاوتة، بل ينظر في الناقل له، فإن كان ثقة ليس بمتهم في المنقول عنه فليعتمده، وإن سماه فهو أبرأ لساحته، وإن شك فيه فليقتصر على الإشارة، ولا يجزم بما يتردد فيه، بل يأتي فيه بصيغة التمريض، وإن كان الناقل له ممن ينسب إلى المجازفة أو كان بينه وبين المنقول عنه حظ نفس، فليجتنب النقل عنه، فإن اضطر إلى ذلك فليكشف أمره ويتبرأ من عهدته.

---

(١) قلت: هو يحيى بن شرف، توفي بنوى - من بلاد الشام - سنة ٦٧٦هـ، رحمه الله تعالى. انظر ترجمته في «طبقات الشافعية الكبرى»: ٨/٣٩٥ وما بعدها، ويقال: النووي والنواوي، وكلاهما مسموع.

(٢) قلت: أي ينتقل الوصف بالفسق والعيب إلى ذلك العائب.

وأما كلام أئمة النقل في الجرح والتعديل، فأشهر من أن نذكر له أمثلة. وقد خاض في ذلك مَن لم يشك في ورعه، كالإمام أحمد، والبخاري[1]، وهو القائل: ما اغتبت أحداً منذ علمت أن الغيبة حرام.

ومن المتأخرين الحافظ تقيّ الدين[2] صاحب «الكمال في معرفة الرجال» الذي هذّبه المزي[3]، ولقد كان في الورع بمكان مشهور.

وأما اعتراض مَن اعترض في ذلك، زاعماً أن ذلك غيبة، فإن كان جاهلاً فليعلَّم، فإن أصر فليؤدب بما يليق، ليرتدع عن الخوض فيما ليس له به علم، وإن كان منسوباً للعلم، فاللوم عليه أشد، لأنه يصير معانداً فليقابل بما يليق به من الزجر، حتى يرجع عن الطعن في البريء، والذبِّ عن المفتري، ويثاب ولي الأمر ـ أيّده الله تعالى ـ على ذلك، وبالله التوفيق.

وأجاب قاضي القضاة شمس الدين القاياتي الشافعي:

الحمد لله ربِّ العالمين، وبه التوفيق.

إذا كان على الوجوه المذكورة، فهو من النصيحة التي يثاب مرتكبها ويكون آتياً بفرض كفاية، وقد قام بواجب أسقط به الجرح عن غيره، ومن هنا قيل إن القيام بفرض الكفاية يفضل القيام بفرض العين، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

---

(١) قلت: هو الإمام محمد بن إسماعيل، حافظ الدنيا، توفي سنة ٢٥٦، رحمه الله تعالى. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٣٩١/١٢ وما بعدها.

(٢) قلت: هو الحافظ الكبير عبدالغني بن عبدالواحد بن علي المقدسي، توفي سنة ٦٠٠. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٤٤٣/٢١.

(٣) قلت: هو الحافظ يوسف بن عبدالرحمٰن المزي، توفي سنة ٧٤٢. انظر ترجمته في «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة» لابن حجر: ٢٣٣/٥ ـ ٢٣٧.

وأجاب قاضي القضاة سعد الدين ابن الديري الحنفي:

الحمد لله الهادي للحق.

لا ينكر على مَن سلك في ذلك مسلك أهل الضبط والإتقان، وتجنب المجازفة واحتاط لنفسه في ذلك؛ فإن أصل ذلك من الواجبات التي لا يسع الإخلال بها، والقواعد التي يتعين حفظها ورعايتها، فإن خطر الدين أعظم من خطر الدنيا.

وقد شُرط في الحقوق المالية رعاية العدالة وثبوت الأهلية، فأحرى أن يتعين ذلك في الأحكام الشرعية، صوناً لها عن التغيير والتحريف، خصوصاً ممن غلب عليه هواه فأضلَّه عن هداه كالمبتدعة، والدعاة إلى الضلال، فيجب الاحتياط بكشف أحوال نقلة الأخبار، والتفرقة بين مَن يوثق بقوله ويركن إلى روايته وبين مَن يجب الإعلام بحاله.

فلا ينكر على مَن اعتمد في قوله على أقوال المعروفين بذلك، المجانبين للأهواء، بل يكون فاعل ذلك محموداً مثاباً إذا صدقت نيته واستقامت طريقته، والله أعلم.

وأجاب قاضي القضاة بدر الدين العيني الحنفي:

الله الهادي إلى الصواب.

هذا الرجل الذي يذكر تراجم الناس، إن كان على الصفة التي ذكرها المستفتي بقوله: «ولا سيما إذا كان هذا المؤرخ ناقلاً عن أحد ممن تقدمه إلى آخره» فلا حرج عليه، والرد عليه لا يجوز، لأن بذلك يحصل التميُّز بين القول الحق والقول الباطل. ولا يعرف هذا إلا بمعرفة حال القائل به، وذلك أن ناساً من أهل البدع والضلال، أدخلوا في معاني القرآن ما ليس منه، وتعرّضوا لسنّة النبيّ ﷺ بالزيادة والنقصان، وأنشأ الله في كل عصر من النقاد مَن ميزوا البهارج من

الجياد، وتكلموا في الرواة بالجرح والتعديل، خوفاً من نقلهم بالتغيير والتبديل.

وكان في العصر المتقدم مثل الأئمة الأربعة - رضي الله عنهم -، كما ذكرهم المستفتي، ثم من بعدهم مثل يحيى بن معين، وأبي زرعة الرازي[١]، ووكيع[٢]، وسفيان الثوري[٣]، وأمثال هؤلاء، ثم من بعدهم جماعة كثيرون قد ذُكروا في الكتب المتعلقة بهذا الشأن.

وأما قول المعترض: إن هذه غيبة، فليس كذلك، وقد قال الإمام ابن الجوزي[٤]: وقد استشعر بعض جهلة الزهاد ومَن قلَّ علمه من العباد، أن ذلك القدح غيبة.

وقال محمد بن بشار[٥]: قلت لأحمد بن حنبل رضي الله عنه: إنه ليشتد علي أن أقول: فلان ضعيف، فلان كذاب. فقال: «إذا سكتَّ أنت وسكتُّ أنا فمتى يعرف الجاهل الصحيح من السقيم؟».

وقال ابن أبي حاتم[٦]، باب وصف الرواة بالضعف: وإن ذلك

---

(١) قلت: هو الشيخ الإمام عبيدالله بن عبدالكريم، توفي سنة ٢٦٤. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٦٥/١٣ - ٨٥.

(٢) قلت: هو وكيع بن الجراح بن مليح، الإمام الحافظ، توفي سنة ١٩٧. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ١٤٠/٩ - ١٦٨.

(٣) قلت: هو سفيان بن سعيد بن مسروق، أمير المؤمنين في الحديث، توفي سنة ١٦١. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٢٢٩/٧ - ٢٧٩.

(٤) قلت: هو الشيخ الإمام عبدالرحمٰن بن علي بن محمد، الواعظ المشهور، توفي سنة ٥٩٧. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٣٦٥/٢١ وما بعدها.

(٥) قلت: هو المشهور بـ(بندار)، إمام حافظ، راوية الإسلام، توفي سنة ٢٥٢. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ١٤٤/١٢ - ١٤٩.

(٦) قلت: هو الإمام الحافظ محمد بن إدريس بن المنذر، شيخ المحدثين، كان من بحور العلم، طوف البلاد، وبرع في المتن والإسناد، وجمع وصنّف، وجرح وعدل، وسكن الريّ، توفي سنة ٢٧٧. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٢٤٧/١٣ - ٢٦٣.

ليس بغيبة، ثم روى بإسناده عن عفان[1] قال: كنت عند إسماعيل بن عُلَيّة[2] فحدّث رجل عن رجل بحديث، فقلت: لا تحدّث عن هذا، فإنه ليس بثبت. فقال: اغتبته! فقال إسماعيل بن عُلَيّة: ما اغتابه، ولكن حكم عليه أنه ليس بثبت.

ثم إن الرجل استدل على ما ذكره من تراجم الناس بقوله ﷺ: «**بئس أخو العشيرة**» فإنه ليس بغيبة؛ لأنه ذكر ما هو فيه من الأمور الغير المرضية حتى يحترس عنه الناس، وذكر: هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم.

وعرفت من هذا أن قول المعترض المذكور: أن هذا غيبة لا يحل، وعلى فاعله التعزير غير صحيح؛ لأنه طعن لأكابر العلماء من المحدثين وغيرهم من أهل الجرح والتعديل، والتعزير يجب عليه في هذه المقالة.

وأما الكلام في المؤرخين المتأخرين، الذين كتبوا التاريخ، مثل ابن الجوزي، والخطيب[3]، وابن عساكر[4]، وأمثالهم، فإنهم لم يريدوا بهذا إلا وقوف الناس من أهل العلم على ذلك، ليميزوا المعدّل من المجروح.

---

(١) قلت: هو عفان بن مسلم بن عبدالله الباهلي، أبو عثمان الصفار، ثقة ثبت، توفي في حدود سنة ٢٢٠. انظر «التقريب»: ٣٩٣.

(٢) قلت: هو إسماعيل بن إبراهيم بن مِقْسم المشهور بـ(ابن علية)، إمام علامة حافظ، توفي سنة ١٩٣. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ١٠٧/٩ ـ ١٢٠.

(٣) قلت: هو الشيخ الإمام أحمد بن علي بن ثابت، توفي سنة ٤٦٣. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٢٧٠/١٨ ـ ٢٩٧.

(٤) قلت: هو الإمام العلامة الحافظ، محدث الشام، ثقة الدين، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الدمشقيّ الشافعيّ. ولد سنة ٤٩٩. غلب عليه الحديث فاشتهر به وبالغ في طلبه، ورحل ولقي المشايخ. كان ديناً. صنف التصانيف المفيدة أجلُّها «تاريخ دمشق». توفي سنة ٥٧١ بدمشق رحمه الله تعالى. انظر «وفيات الأعيان»: ٣٠٩/٣ ـ ٣١١.

وأما الذي يكتب التاريخ في زماننا هذا، فإن كان نقله عن مشاهدة وعيان، أو بأخبار ثقات، فلا بأس بذلك؛ لأنَّ فيه فوائد كثيرة لا تخفى على المتأمل. والكلام فيه كثير يحتاج إلى مجلدات. والله أعلم بالصواب.

وأجاب قاضي القضاة عز الدين الكناني الحنبلي:

الجواب وبالله الصواب:

لا شك في جلالة علم التاريخ وعظم موقعه من الدين، وشدة الحاجة الشرعية إليه؛ لأن الأحكام الاعتقادية والمسائل الفقهية مأخوذة من كلام الهادي من الضلالة والمبصر من العمى. والنقلة لذلك هم الواسطة بيننا وبينه، فوجب البحث عنهم والفحص عن أحوالهم، وهذا أمر مجمع عليه، والعلم المتكفل بذلك هو علم التاريخ مع ما فيه من فوائد جليلة وأمور نفيسة من الأحاديث النبوية والمسائل العلمية والمباحث النظرية والأشعار التي هي جل مواد العلوم الأدبية، كاللغة والمعاني وغيرهما، والمواعظ النافعة، واللطائف المفيدة لترويح النفس، وحفظ الأنساب المرتّب عليه صلة الرحم، وأن ينسب إلى غير أبيه، أو يتولى غير مواليه، وفي ضبط التاريخ بالسنين فوائد جمة وأمور مهمة لحظها الصحابة والفاروق - رضي الله عنهم - عند وضع التاريخ، ذكرها المؤرخون والمحدثون وغيرهم، منها معرفة الكذابين المدّعين لحوق ما لم يلحقوه، ومنها بيان آجال الحقوق واختلاف النقود ووقف الأوقاف المرتّب عليها الاستحقاقات، ومنها معرفة القرون الفاضلة التي قال فيها النبيُّ ﷺ: «**خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم**»[1] ليتميز المُقتدى به من غيره، ومنها بيان البدع والحوادث، إلى غير ذلك مما يضيق الوقت عن استيعابه.

---

(١) البخاري: فضائل الصحابة: الباب الأول.

ولم تزل الأمة على ذلك قديماً وحديثاً من غير نكير.

وقد صنفت في التاريخ نجوم الهدى ومصابيح الظلم ممن لا مطعن فيهم ولا قدح.

إذا علم هذا، فقول المعترض: إن هذا غيبة لا يحل، ويجب على فاعله التعزير، غير مسلّم؛ لأنه على تقدير تسليم أنها غيبة، فما كل غيبة حرام. فقد أجازوها في مواضع.

قال ابن مفلح[1]: منها النصيحة للمسلمين، وهي جائزة بلا خلاف بل واجبة، وسواء كانت النصيحة خاصة أم عامة.

وقال الإمام أحمد: هو أفضل من الصوم والصلاة.

وقال ابن عبدالسلام[2] في «القواعد»: القدح في الرواة واجب لما فيه من إثبات الشرع، ولما على الناس في ترك ذلك من الضرر في التحريم والتحليل وغيرهما من الأحكام، وكذلك كل خبر يجوّز الشرع الاعتماد عليه والرجوع إليه، وجرح الشهود واجب عند الحكام عند المصلحة من حفظ الحقوق من الدماء والأموال والأعراض والأبضاع والأنساب، وسائر الحقوق أعم وأعظم. والدلالة على النصيحة قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾[3].

وعن فاطمة بنت قيس رضي الله عنها[4]: أتيت النبي ﷺ فقلت:

---

(١) قلت: هو الشيخ الإمام محمد بن مفلح بن محمد الحنبلي، توفي سنة ٧٦٣. انظر ترجمته في «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة»: ٥/٣٠ ـ ٣١.

(٢) قلت: هو الشيخ الإمام عز الدين عبدالعزيز بن عبدالسلام السلمي الدمشقي الشافعي، الملقب بـ(سلطان العلماء)، توفي سنة ٦٦٠. انظر ترجمته في «الوافي بالوفيات»: ١٨/٥٢٠ ـ ٥٢٢.

(٣) الكهف: ٢٩.

(٤) قلت: هي فاطمة بنت قيس بن خالد الفهرية، أخت الضحاك. صحابية مشهورة، وكانت من المهاجرات الأُوَل. عاشت إلى خلافة معاوية رضي الله عنهما. انظر «التقريب»: ٧٥١.

إن أبا جهم[1] ومعاوية خطباني. فقال: «**أما معاوية فصعلوك لا مال له، وأما أبو جهم فلا يضع العصاة عن عاتقه**» متفق عليه. وفي رواية لمسلم: «**فضرّاب للنساء**»[2].

قال بعض العلماء: فهذا حجة لقول الحسن البصري[3]: أترغبون عن ذكر الفاجر؟ اذكروه بما فيه ليحذره الناس، فإن النصح في الدين أعظم من النصح في الدنيا. فإذا كان النبيُّ ﷺ نصح المرأة في دنياها فالنصيحة في الدين أعظم، ثم ذكر أشياء كثيرة يجوز الغيبة عندها على خلاف في بعضها، فذكر المتظلم والمخاصم وفيه حديث الحضرمي والكندي لما قال النبي ﷺ للحضرمي: «**ألك بينة؟**» قال: لا. قال: «**فلك يمينه**» قال: «إنه رجل فاجر لا يبالي على ما حلف عليه، وليس يتورع عن شيء» رواه مسلم[4].

واستدل على جوازها لمعنى حسن شرعي بأشياء، وذكر في ذلك شيئاً منها عن عائشة رضي الله عنها: أن رجلاً استأذن على النبيِّ ﷺ فقال: «**ائذنوا له، بئس أخو العشيرة**» متفق عليه. وعنها قال رسول الله ﷺ: «**ما أظن فلاناً وفلاناً يعرفان من ديننا شيئاً**» رواه البخاري[5].

---

(١) قلت: هو أبو جهم بن حذيفة بن غانم القرشيّ العَدَويّ، قيل اسمه عامر وقيل عُبيد. كان من مشيخة قريش، وهو أحد الأربعة الذين كانت تأخذ عنهم قريش النسب، وهو من مسلمة الفتح. اختلف في موته رضي الله عنه، فقيل آخر خلافة معاوية وقيل بقي إلى زمان ابن الزبير رضي الله عنهم. انظر «الإصابة»: ٣٥/٤ ـ ٣٦.

(٢) انظر هذا الحديث في صحيح مسلم: ٤٣٢/١.

(٣) قلت: هو الحسن بن أبي الحسن البصريّ، واسم أبيه يسار، الأنصاري بالولاء. ثقة فقيه، فاضل مشهور، من كبار التابعين. توفي ـ رحمه الله تعالى ـ سنة ١١٠ وقد قارب التسعين. انظر «التقريب»: ١٦٠.

(٤) مسلم: ٢٢٠، ٢٢٣، ٢٢٤.

(٥) البخاري: ٧:٨٤: كتاب الأدب، الباب ٥٩.

وقال النووي رضي الله عنه في «الرياض»[1]: تباح الغيبة في أحوال للمصلحة، والمجوزة لها غرض صحيح شرعي لا يمكن الوصول إليه إلا بها. وهي ستة أسباب: التظلُّم، والاستعانة على إزالة المنكر، والاستفتاء، والتحذير، وذلك من وجوه منها: جرح المجروحين من الرواة والشهود، وذلك جائز بإجماع المسلمين بل واجب للحاجة، ومنها: المشاورة في مصاهرة أو مشاركة أو غيره، ومنها: أن يكون له ولاية لا يقوم بها على وجهها فيجب ذكر ذلك، ومنها: إذا رأيت مَن يشتري عبداً معروفاً بالسرقة أو غيرها فعليك أن تبين ذلك، والخامس: أن يكون مجاهراً، كالمجاهر بمصادرة الناس وأخذ المَكْس[2] فيجوز ذكره، والسادس: أن يكون معروفاً باللقب كالأعمش والأعرج فيجوز تعريفهم بذلك.

قال: فهذه ستة أسباب ذكرها العلماء وأكثرها مجمع عليها. هذا كلامه في الرياض مختصراً.

فيحمل حال هذا المؤرخ على محمل من المحامل الحسنة، لأنه لم يتعيّن غيره، فيجب، وحسن الظن به متعين وهو أخبر بنيته، إذ لا سبيل لنا إلى الاطلاع عليها إلا من قِبَله وحينئذٍ فلا اعتراض عليه إذ أدنى حالاته أن يكون مباحاً إن لم يكن مستحبّاً ولا واجباً، ولا تعزير في مباح بل هو مثاب مأجور إذا كان قصده النصيحة كما ذكره، وإنما الأعمال بالنيات، ويلام المنفِّر عن هذا العلم والعائب له، وكيف يليق عيب علم شرعي اتفق الناس عليه في كل زمان ومكان؟ أم كيف تعاب أئمة الهدى المتفق على عدالتهم والاقتداء بهم والحالة هذه، والله سبحانه وتعالى أعلم.

انتهت الأجوبة الموجودة، والحمد لله ربِّ العالمين.

---

(١) قلت: أي «رياض الصالحين».

(٢) قلت: هو نوع من الضرائب.

٢ ــ رسالتان بين سلطان مالوه والأشرف قايتباي وذلك بشأن الأوضاع في الحجاز في القرن التاسع

للدكتور: أحمد درّاج[(١)]

الرسالة الأولى صادرة عن المقام الجمالي محمود شاه صاحب «مندوا» أو «مناداوه» من الهند في غرة رجب ٨٧١هـ، إلى الظاهر خُشْقَدم[(٢)] الذي لم يُقَدَّر له أن يتسلّمها، وتسلّمها من بعده الأشرف قايتباي في شهر ربيع الأول ٨٧٣هـ.

أما العاهل الهندي فهو ـ كما جاء في المراجع الهندية ـ محمود شاه «الأول» خلجي الكبير (محرم ٨٤٠هـ ـ ذو القعدة ٨٧٣هـ)، صاحب مملكة مالوه، إحدى الممالك الإسلامية التي تفرّعت عن مملكة دهلي بعد غزو تيمورلنك لها. ولقد أصبحت مدينة ماندو Mandu عاصمة لها عام ٨٠٨هـ في عهد سلفه السلطان ألب خان بن دلاور الملقّب بهوشغك شاه. وبلغت هذه المملكة في عهد محمود شاه

(١) قلت: انظر «مجلة معهد المخطوطات العربية»: المجلد الرابع، الجزء الأول: ٩٧ ـ ١٢٣.

(٢) قلت: هو سلطان المماليك الحاكم على مصر والشام والحجاز، توفي سنة ٨٧٢ رحمه الله تعالى. انظر ترجمته في «الضوء اللامع»: ٣/١٧٥ ـ ١٧٦.

شأواً كبيراً من العظمة واتساع الرقعة على حساب الممالك الإسلامية الأخرى المجاورة لها.

وعرف عنه، أيضاً، حبه وتشجيعه للعلماء والأدباء، وحرصه على إشاعة العدل بين أفراد رعيته، ولذلك يعتبر عهده من ألمع العهود التي عرفتها هذه المملكة.

ورسالة محمود شاه هذه إلى السلطان خُشقَدَم ليست أولى رسائله إلى سلاطين المماليك وإن كانت هي الوحيدة التي بأيدينا اليوم. فلقد سبق أن طلب من الخليفة العباسي القائم بمصر، حسب العادة المتَّبعة من سلاطين المسلمين بالهند منحه تقليداً بالسلطنة لتثبيت أركان حكمه وصبغه بالصبغة الشرعية، لا سيما إذا عرفنا أن محمود شاه لم يرتقِ عرش مالوه عن طريق الوراثة، بل غصباً وعن طريق الغدر بالسلطان الطفل مسعود خان الذي كان وزيراً له ووصيّاً عليه.

ولننتقل إلى بحث الحقائق التاريخية التي احتوتها رسالته. فإن محمود شاه قد أرسل رسلاً إلى مكة، تمكنوا من شراء دارين بها، هما دار أم هانىء ودار الملاعبة، ثم هدما وبني مكانهما منشآت وأبنية تحمل اسمه، فأما دار الملاعبة فقد استولى عليها جاني بك نائب جدة قسراً وهدمها وبناها من جديد. ثم يعرض لظلم جاني بك.

وترددت رسله إلى مكة مرة ثانية، في طريقها إلى مصر حاملة الهدايا إلى السلطان والخليفة وشريف مكة، والصدقات إلى الأئمة والقضاة والسادة بالحرمين الشريفين، إلا أنهم أهينوا ولم يمكنوا من توزيع هذه الأموال حسبما رسم بذلك سيدهم، وكان على رأس القائمين بذلك قاضي مكة برهان الدين إبراهيم بن ظهيرة، ونائب آخر لجدة يدعى الشيخ علي. هذه المعاملة السيئة لرسله، وما ترامى إلى سمعه من أن السلطان خُشقَدَم أحيط علماً بما حدث لهم، دفعته بأن

يبعث إليه بشكواه هذه على يد رسولين متخفيين لضمان سلامة وصولهما.

فسيف الدين جاني بك بن عبدالله الظاهري هو الوحيد من بين أقرانه الذين تسمُّوا بهذا الاسم، الذي عُرف بنائب جدة. تولى نيابة جدة عام ٨٤٦هـ أو ٨٤٩هـ على قول آخر، وظلّ يباشر مهام هذه الوظيفة حتى وفاته عام ٨٦٧هـ، وبالرغم من ارتقائه سلم الوظائف المملوكية حتى وصل إلى أعلاها، وأصبح حسب لغة العصر، عظيم الدولة ومدبّر المملكة وصاحب الحل والعقد بها، فإنه لم يتخلَّ عن هذه الوظيفة وإنما تخلّف عنها اضطراراً في بضع سنوات.

وكان نفوذه بالحجاز يزداد اضطراداً بازدياد نفوذه بمصر، فغدا حاكم الحجاز الفعلي.

إلا أن مُؤَرِّخَيْ سيرته اختلفا في الحكم عليه أثناء نيابته لجدة فأبو المحاسن[1] يبالغ في إسداء المديح إليه.

أما السخاويّ[2] فعلى النقيض منه، ويجمل رأيه فيه في هذه الجملة القصيرة البليغة: «إنه نهض ـ في النيابة بجدة ـ بخبرته في الظلم لِما لم يصل إليه من قبله... ومحاسنه كثيرة وضدها أكثر وأفحش...»[3]. ويسوق على سبيل المثال ما حدث سنة ٨٥١هـ لجماعة من التجار تخلّفوا عن النزول إلى جدة والتجأوا إلى المسجد الحرام يشكون أمرهم إلى

---

(١) قلت: هو أبو المحاسن يوسف بن تَغْري بَرْدي الأتابكي، مؤرخ مصري مشهور، توفي سنة ٨٧٤، انظر في ترجمته: «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع»: ١٥/٣٥ ـ ٣٨.

(٢) قلت: هومحمد بن عبدالرحمن بن محمد السخاويّ، توفي سنة ٩٠٢، ودفن بالمدينة، رحمه الله تعالى. انظر في ترجمته: «الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة» لنجم الدين الغزي: ١/٥٣، ٥٤.

(٣) «الضوء اللامع»: ٣/٥٨، ٥٩.

القضاة والأئمة. بل ذهب بهم الأمر إلى أن رفعوا المصاحف على رؤوسهم وطافوا بالكعبة أسبوعاً، وعندما انعقد المجلس بالمسجد لسماع شكواهم قالوا للقضاة: إنَّ حال الأمير وفعله بجدة لا يخفى عنكم، وقد ظَلمنا وأخذ جانباً عظيماً من أموالنا، وتركنا البيع والشراء والنزول إلى جدة لذلك. وبالرغم من ذلك فقد انتهى أمرهم بالقبض عليهم وإرسالهم مكبَّلين بالحديد إلى جاني بك بجدة، إذ أن أمير مكة ومعظم المجتمعين لم يجرؤوا على معارضته، ومَن تجرأ على ذلك كان جزاؤه العزل، وفي عام ٨٥٣هـ، بادر السلطان بالترسيم عليه عقب عودته من جدة حتى التزم بأن يحمل له ما يزيد على ثلاثين ألف دينار ـ ويعقب المؤرخ في حدة وعنف ـ أنها لا من كَدّه ولا من كد أمه.

وسجلت رسالة محمود شاه مر الشكوى من سوء معاملة الحجاج والقاصدين والتجار الوافدين إلى مكة وجدة، وأن جاني بك قد «أزاد ظلماً على الظلم الفاحش في أخذ العشر... وأن المباشرين بجدة يأخذون فوق العشر، حتى أخذوا النصف وما فوقه وما دونه»، ثم يقرن ذلك بتقرير القاعدة الشرعية في موضوع جباية العشر التي يحرص هو على تطبيقها في بلاده.

ولا ينكر قايتباي في جوابه جباية العشر بجدة صنفاً لا مالاً، حسبما أفتى به العلماء أيام الأشرف برسباي[(١)]، ولكنه يعترف بما يقع في جدة من الظلم، ولذلك فقد سارع بمجرد اعتلائه عرش السلطنة بأن أصدر مراسيمه الشريفة بإبطال ما كان يتضرر منه التجار، وفضلاً عن ذلك فإنه رسم بفصل مَن كان بها من المباشرين وعيَّن بدلاً منهم مَن يثق في عدالتهم وأمانتهم.

---

(١) قلت: هو سلطان المماليك، وكان شجاعاً مهيباً، توفي سنة ٨٤١. انظر ترجمته في «الضوء اللامع»: ٨/٣ وما بعدها.

ولم يكن احتجاج محمود شاه على جباية العشر بجدة هو الأول من نوعه، فقد سبقه إلى ذلك سلطان التيموريين، شاه رخ، عندما ساءت العلاقات بينه وبين السلطان برسباي بعد أن رفض تحقيق نذر له كان قد نذره بتعليق كسوة للكعبة. واعتبرت السلطنة المملوكية، أن تعليق كسوة الكعبة شعار من شعائر السيادة المصرية على المدينتين المقدستين إن لم يكن أهمها، وهاجم أيضاً العاهل التيموري قضاة مصر وفقهائها، ووصفهم بأنهم «مطايا السلطان». وتوترت العلاقات بين الدولتين حتى أوشك القتال أن ينشب بينهما لولا ظروف سياسية حالت دون ذلك.

ومن قبل كانت جباية العشر بموانىء السلطنة المملوكية عامة سبباً لاحتجاج السلطان العثماني بايزيد الأول لدى السلطان برقوق.

وأيضاً، عرَّضت المراجع المملوكية بما يُجْبَى في مصر من مكوس[1]، عندما ذكرت ترجمة حياة سلطان المغرب، أبي فارس الحفصي، وأزجت له الثناء لأنه لا يجبي من المسلمين في بلاده سوى الزكاة.

أما فيما يختص بتقرير جباية العشر بجدة، في عهد السلطان برسباي، فلم تذكر المصادر المعاصرة شيئاً عن هذه الفتوى التي أشارت إليها رسالة قايتباي. وكل ما نعرفه، بناء على دراستنا لعصر برسباي، أنه أمر بجباية العشر مالاً ابتداء من سنة ٨٢٨هـ، ثم صنفاً ابتداء من سنة **٨٣٢**هـ فضلاً عن مزاولته المتجر عندما بدأ تنفيذ سياسته الاحتكارية للتجارة بين الشرق والغرب، وربما لم يلجأ برسباي إلى استصدار مثل هذه الفتوى؛ لأنه لم يوفَّق عام ٨٢٧هـ في الحصول على

---

(١) قلت: هي نوع من الضرائب.

موافقة القضاة والفقهاء بجباية الزكاة من التجار المحليين.

وكان موقف ابن حجر، ولم يكن إذ ذاك قاضي قضاة الشافعية، سبباً في تذكيره بأن التجار يؤدون إلى السلطنة من المكوس أضعاف مقدار الزكاة، وفضلاً عن ذلك، فهم مأمونون على ما تحت أيديهم من الزكاة.

والفتوى التي نعرفها هي التي استصدرها السلطان جُقْمُق في ذي القعدة ٨٤٣هـ محاولةً منه تبرير جباية العشر بجدة أمام شاه رخ بعد أن تحسنت العلاقات بين الدولتين، وهي لا تعدو أن تكون تأكيداً لما هو حادث منذ عهد برسباي.

هذه الفتوى، على أي سند شرعي تستند؟ إنها تستند على حكم العادة التي اكتسبت قوة الشرع بمرور الزمن حسبما قال به بعض شرّاح المذاهب[1]. فقبل أن تصبح جدة الميناء الرئيسي لتجارة البحر الأحمر سنة ٨٢٧هـ كان العشر يجبى بها عندما كانت تخضع لسلطة شريف مكة، وكان يجبى في الموانىء المصرية مثل القصير وعيذاب وطور، وكذلك في عدن، وفي هرمز التي كانت تخضع وقتذاك لنفوذ التيموريين.

وعلي بن رمضان هو الشخصية الثانية التي أشارت إليها رسالة محمود شاه مقرونة بنيابة جدة وباستغلال نفوذه في اغتصاب مبلغ من الأموال المرسلة للخليفة وللسلطان، وقد خدم الشيخ علي صيرفياً للأمير جاني بك عندما عُين نائباً لجدة سنة ٨٤٩هـ، وظلّ يرافقه حتى وفاته سنة ٨٦٧هـ، وبعد ذلك استقل بنيابة جدة في رجب ٨٦٩هـ وظلّ بها حتى وفاته في ٢٧ جمادى الأول ٨٧١هـ، وبالرغم من أن

(١) قلت: تحرر هذه المسألة، فقد ألقى الكلام على عواهنه هنا، والله أعلم.

أبا المحاسن يكيل المديح لجاني بك فإنه يكيل السخط على مخدومه ولا سيما بعد انفراده بالنيابة، إذ قال: (. . . فعند ذلك بسط يده في المظالم فما عفَّ ولا كفَّ، وظلم وعسف، وانتشر ظلمه على الأقطار الحجازية بل الممالك اليمنية والهندية والسندية، وقاسى أهل الحجاز والتجار منه شدائداً وأهوالاً، وأثرى من هذا المال الخبيث جهة المكس والمظالم، وجمع من الأموال ما لم يجمعه غيره، واقتنى الجواري والعبيد. . .)، ويتفق السخاوي معه في هذا الرأي، بل يكاد يكرر تقريباً نفس العبارات السابقة[١].



---

(١) «الضوء اللامع»: ٥/٢٢٠ ـ ٢٢١.

١ ـــ رسالة السلطان محمود شاه الخلجي إلى السلطان خُشْقَدَم

وفي شهر ربيع الأول سنة ثلاث وسبعين وثمان مائة ورد من المقام الجمالي محمود شاه صاحب مندوا من الهند كتاب على الأبواب الشريفة على يد قاصده.

أوله: هو الغني إلى المجلس السامي، والمنهل النامي السلطاني، العادل المبارك، المجاهدي الأوحدي المؤيدي الأكملي الملكي الظاهري، عِزِّ الإسلام والمسلمين، ناصر أحكام الشرع المبين، قسيم أمير المؤمنين، أعزّ الله تعالى به الدين، وأمتع ببقائه الإسلام والمسلمين، ناصر أحكام الشرع فنصرته، نصره الله على الأعداء والحاسدين.

أما بعد:

حمد الله الذي له الملك والملكوت، فيفيض على مَن يشاء من مواهب العزة والجبروت، ليقوم بأمره حيث أقامه، ويروم من فضله مرامه، فله الفضل على تفضيل العباد وتأليف أرواحهم في النشأة الأولى لامتداد الوداد، فلولا تعارف الأرواح قبل الأشباح لما ترنّم على فنن[1] المحبة بلابل الإصباح.

---

(١) قلت: غُصن.

بلغنا أن المجلس السامي الملكي الظاهري قد قام لله مقام العصبية لما بلغت مسامعه الشريفة ما جرى على الذين أرسلناهم إلى حرم الله الشريف بالصدقات، وإلى الأبواب السلطانية بالتحف والهدايا، فأرسل المجلس العالي مراسيمه الشريفة وعنّف ولام مَن ارتكب تلك الآثام، فحق علينا أن نُنهِيَ[1] الأحوال ونبث ما لاقوا منهم في البكور والآصال لنحيط العلوم الشريفة بذلك.

فأوله: إنا لما منَّ الله علينا بالنعم العميمة والمواهب الجسيمة من فواضل فضله، وأقامنا في الخليقة لإقامة عدله، فقمنا بحمد الله تعالى وتوفيقه ونصره وتأييده، بإفاضة الخيرات وإيصال المبرّات للوافدين والقاصدين، خصوصاً مَن ورد علينا من الحجاج والزوّار، ووفد إلينا من المجاورين الأخيار، فأردنا أن تدوم هذه الفضيلة، وتصل إليهم كل سنة نعمه الجزيلة، فعزمنا على بنيان أبنية بالحرمين الشريفين، تُوقف عليها الأملاك وقفاً أبديّاً، وتجري الصدقات عليهم ما كرَّ الجديدان[2]. فأرسلنا أولاً خاصّاً من خواصنا، ويسمى ملك سنبل السلطاني، فوقف لشراء دارين بمكة المشرفة، أحدهما منسوب ببيت أم هانىء والأخرى بدار الملاعبة، فاشتراهما بالبيع الصحيح الشرعي وكالةً عنّا، وكتب بذلك سجلات في الصكوك من القضاة الأربعة بمشهد الأئمة الحرمية[3]، وعلم عليها شريف مكة وسائر أركان دولته.

وأمْر شراء الدارين بمكة المشرفة قد اشتهر في الآفاق، بحيث يستغني بتلك الشهرة عن السجلات والأوراق، فبعد تملكه لتلك

---

(١) قلت: أي نوصل.

(٢) قلت: أي ما تعاقب الليل والنهار.

(٣) المقصود أئمة الحرم الشريف.

الدور، وتعمير بعضها وإسكان الفقراء فيها، توجّه إلى أبوابنا الشريفة وأنهى إلينا الحال لنرسل لتعميرها بالرجال والأموال، إذ تسلّط عليها ظالم كان بمكة، حاكماً لجدة، يسمى جاني بك، فأخرج الفقراء منها واستولى على دار الملاعبة وأخذها قهراً وهدمها وبناها ما يشتهي، ولم يمنعه أحد من المسلمين، بل أعانه طائفة على ذلك، أوقعوه ووقعوا في المهالك، أعاذنا الله وإياكم من شرور العَمَلة وتولية الفجَرة الظلمة، فقصدنا إخبار المجلس السامي السلطاني بما قد جرى من العدوان في خير البلدان، فجهزنا لذلك وجوهاً من أعيان بلدتنا، رجلاً من أهل العلم والفضل يسمى الشيخ محمد، مفتي الديوان، وآخر من نسل الأولياء يسمى الشيخ سراج الدين، ومعين ديوان الوزارة والملك برهان الدين، وأرسلنا صحبتهم ما يوازي خمسين ألف أشرفي[١] في هدايا وتحف إلى أمير المؤمنين، وإلى الحضرة السلطانية وإلى شريف مكة[٢]، وصدقات للأئمة القضاة والسادة بالحرمين الشريفين.

ولما كانت الأحوال كثرت عن أن يسعها مركب واحد فقد اتخذوا مراكب ثلاثة فخالفت بهم الرياح ولم يصلوا مجتمعين. فلما اجتمعوا بحرم الله استولى عليهم سادة الحرم الشريف وقضاتها ونقيبهم الأظلم القاضي الشافعي المسمى إبراهيم[٣]، آزر الخصال، ونمرود

---

(١) دينار أمر بضربه الأشرف برسباي في شهر صفر ٨٢٩، وكان من نقاء الضرب وكثرة العدد أن سيطر على الأسواق المالية في مصر، وبلاد الحجاز، واليمن، والهند حتى سقوط الدولة المملوكية.

(٢) هو الشريف محمد بن بركات، تولى إمرة مكة بعد وفاة والده سنة ٨٥٩، وظلّ بها حتى وفاته في سنة ٩٠٣.

(٣) قاضي قضاة الشافعية بمكة، برهان الدين إبراهيم بن ظهيرة، قلت: وسيأتي ما يبرئ القاضي إن شاء الله تعالى.

الفعال، فأخذوهم أخذ اللصوص في السلاسل والأغلال مقيَّدين، وضربوهم الضرب الفاحش، حتى بقيت آثاره بحيث شاهدناها في أجسادهم، وأخذوا منهم فوق ما عيَّنَّاه لكل واحد. فهذا ما جرى في حرم الله تعالى، أيام دولة الملك العادل، والله تعالى يقول: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾[1]، فهذا تبديل الأمنية فيها بالتخويف لما يأملون، أو هل يتركون فيما يفعلون ولا يسألون عما يرتكبون، أعاذنا الله وإيَّاكم من سوء أفعالهم، ونفعنا وإيَّاكم بصالح أعمالهم.

ولم تنحصر مقاصدنا في إنهاء هذه الأحوال، بل فيما رُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه**»[2]، ولقد سمعنا ما يجري من الظلم في مكة المشرفة وفي جدة المباركة، على الحجاج والقاصدين والتجار الوافدين ما يجوّز أحد بجريانه في دار الحرب فكيف بدار الأمن. وقد تحققنا أنه لو بلغت المسامع الشريفة، نصرها الله وأسمعها البشائر، لأمر بدفعها وزجر مرتكبيها، لكن هذا دأب مباشري السوء والعمَلة الفجرة، يأكلون الرشوة ويرضون لمواليهم الشائعة الرديئة، فإنه لا يقول أحد وقعت تلك المظالم في أيام مباشرة فلان وفلان، لكنهم ينسبون الظلم إلى الوالي والسلطان.

فحيث تحققنا ما تسامعنا من التجار فيما يقع على الناس بجدة المباركة، فتحققنا أن المسامع الشريفة خلت عن بلوغ تلك الأحوال، فما سكنت عروق المحبة عن استماع نسبة الظلم إلى الحضرة الأخوية، وأوجب علينا الإيمان بنكرة ما نكره لنفوسنا فأنهيناه إلى المسامع

---

(١) آل عمران: ٩٧.

(٢) قلت: أخرجه الإمام البخاري في صحيحه عن أنس رضي الله عنه، كتاب الإيمان: باب أن من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه: ١/١٠.

الشريفة، ليحيط بذلك ويتوجه لإنكار ما يقع في خير البلاد ظلماً وعدواناً، فإنا أيها الولاة مسؤولون عما قلّدنا الله تعالى، كما قال عليه الصلاة والسلام: «**كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته**»[1]، فلا بد لنا من الفحص عن أحوال مَن نوليه على أمور الخلق، وتغيير الظلم، وإصلاح الفساد، ونصر المظلوم من الظالم من العباد، كما قال عليه الصلاة والسلام: «**انصر أخاك ظالماً ومظلوماً**» فقالوا: يا رسول الله هذا ننصره مظلوماً فكيف ننصره ظالماً؟ فقال ﷺ: «**تأخذ على يديه وتمنعه من الظلم**»[2]. وهذا ليس إلا شأن السلاطين، فإنهم قادرون على أخذ يد الظالم ومنعه عن الظلم من بين العالمين، وفّقنا الله وإيَّاكم لإزالة المنكرات ورد المظالم والمحدثات.

فلقد تواترت الأخبار أن من عهد الظالم جاني بك قد ازداد ظلماً على الظلم الفاحش في أخذ العشر، فأول أخذ العشر ظلم صريح؛ لأن الله تعالى إنما أوجب في الزكاة ربع العشر، فكيف يجوز أخذ العشر من المسلمين؟ ثم إذا وقعت الرسوم بأخذ العشر، فقد تحققنا أن المباشرين بجدة يأخذون فوق العشر، حتى بلغنا أنهم أخذوا هذه السنة النصف وما فوقه وما دونه، على حسب ظلمهم على البعض أكثر من البعض، فأوجب علينا خلوص المحبة والوداد إنهاء ذلك، وفقنا الله وإياكم لإزالة المنكرات ورد الظَلَمة من الوقوع في المهالك.

ثم مما نطالع به العلوم الشريفة، كما تقدمت التمهيدات أن قصدنا إرسال الرسل والإتحاف بالهدايا وجريان الصدقات والخيرات في

---

(١) قلت: أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة: باب الجمعة في القرى والمدن: ٦/٢.

(٢) قلت: أخرجه الإمام البخاري في صحيحه بألفاظ مقاربة، كتاب المظالم: باب أَعِن أخاك ظالماً أو مظلوماً: ١٦٨/٣.

حرم الله الشريف ولجيران قبره الشريف محمد المصطفى، فإن حصل ذلك بمساعدة المقام العالي والمجلس السامي، كما شرحنا وبيَّنّا، برد دار الملاعبة، والأمر على ولاة مكة وجدة، ونهيهم عن إيذاء صبياننا وأن يرضوا بما قسم الله لكل واحد فيما يقسم لهم وتعين من الصدقات، فإنا لا نرسل درهماً إلا لأشخاص معينين، فحيثما يلقي الله في قلوبنا نعين أسماء كل مَن عرفناه، فإن تركنا واحداً وقصرنا في سهمه عما يدَّعي أنه يستحق أكثر مما عيَّنّاه له، فلا يلوم الرسول فإن ما على الرسول إلا البلاغ، ويكتب إلينا فنأمر له في الحال بزيادة ما قسم الله له، فللّه الحمد على أن منَّ علينا بمزيد فضله، وتزداد في كل زمان نعمه علينا، ونحن لا ندخر مثل أبناء الزمان، بل بتوفيقه وتأييده نقسمه فينشرح الصدر، نصرف ذلك على أهل الحرمين الشريفين، لكن بطيبة الخاطر والرضا بما قسم الله لهم إن شاء الله تعالى.

فإن شرح الله صدر المجلس السامي لذلك، وقام لله تعالى في نهيهم وزجرهم، ونصر المظلوم، وكتب إليهم بما يتيقنوا أن المجلس السامي قام في عصبيتنا، فينهوا عما سلف، ومَن عاد فينتقم الله منه، فنقرر بعد ذلك الإدارات والوظائف لتعمير الأبنية ووظائف الأئمة وغير ذلك مما قسم الله ويسَّره، ويكون المجلس العالي شريكاً في الأجر الأوفى، وحائزاً لفضيلة قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾[1] إن شاء الله تعالى.

ثم مما يجب إبلاغ المسامع الشريفة، إنا قد أرسلنا مع رسلنا المذكورين للمجلس العالي ولأمير المؤمنين المستنجدي العباسي[2]،

(١) المائدة: ٢.

(٢) قلت: هو المستنجد بالله يوسف بن المتوكل على الله، تولى الخلافة في أوائل رجب ٨٥٩ حتى مات في ٢٤ محرم ٨٨٤.

فبلغنا منهم أن ما كان يختص بالمجلس السامي قد أخذ من جملته نائب جدة رجل يسمى الشيخ علي[1] قهراً، وذلك ألفي دينار[2]. ثم لما ورد أمير الحاج إلى مكة المشرفة استغاثوا منه فأخذهم أيضاً أمير الحاج بالضرب المبرح. وما أرسلنا للقضاة والأئمة وسدنة بيت الله والقادمين والعاكفين وفقراء الحرم الشريف أعطوهم بغير ما عيَّنوا لهم مما اشتهت أنفسهم. ولم يصل شيء مما أرسلنا إلى جناب روضة رسول الله ﷺ، وحبسوهم مع جميع مَن كان معهم حتى لم يستطيعوا أن يبلغوا إلى المجلس السامي. وكان فيما بعثنا إلى المجلس السامي وإلى أمير المؤمنين من الثياب الناعمة والأشياء النادرة، مما يجلب من هذه الديار إلى هاهنا، فقد أخذه الظلَمة من رسلنا ظلماً وما تركوا شيئاً يصل إليكم. فهذا ما جرى عليهم من أهل مصر. وأما أهل مكة، فكنا عيَّنَّا لهم ألفين وسبع مائة وستين أشرفياً، فأخذوا قهراً أربعة عشر ألف وثلاث مائة أشرفي.

ثم لما أردنا في هذه السنة، أن نبعث إلى الأبواب الشريفة رسلاً بشيء من الهدايا، لم يجترىء أحد على الإقدام وقد قاسوا من أهلها ما قاسوا، فجهزنا ما يسَّر الله تعالى وبعثناه إلى البنادر، وسعينا في تطلُّب مَن يختار الإقدام، فوجدنا كلاً منهم معذورين مما سمعوا وشاهدوا. وقد وقع الإنكار في قلوبهم وصاروا مستنكفين. وإن أجبرناهم خشينا أن يقع عليهم ما وقع على أولئك الأولين، فأرسلنا حامل الكتاب وهو الشيخ أبو طالب وإخوته مختفين، بحيث لا يعلم بهم أحد أنهم رسل إلى الأبواب الشريفة وما استطاعوا حمل شيء من الهدايا خوفاً من الرقباء، فكرهنا خلو أيديهم، فأرسلنا ما استطاعوا حمله وذلك: قطعة

---

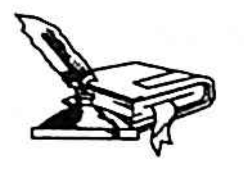
(١) هو علي بن رمضان نائب جدة.

(٢) قلت: كذا.

بازهر[1] حيواني وخاتمين بفصين، لهما خواص كثيرة ومنافع جمة وهما ترياق لجميع السمومات وشفاء لسائر الأمراض، والعقد المكلّل بالماس والزبرجد والياقوت الأحمر والدر المركّب تسع قطع.

ولما كان في طلب التحف وإتحاف الهدايا إظهاراً لصفو المحبة وخلوص الألفة، نسألكم رفع التكليف بطلب ما ترون أنه سيوجد في ممالكنا. كما نطلب شيئاً من الترياق[2] الفاروق الخاص ودهن البلسان[3] والسقنقور[4]. والقصد في ذلك رفع حجاب المكلفات وفتح طريق المراسلات وظهور الخلوص، وصفو المحبات، جعلنا الله وإياكم من المتحابّين في الله. هذا ونحن نترصّد الرسل مع حصول المقاصد، إن شاء الله تعالى، وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم، وصلّى الله على محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله ربِّ العالمين.

وكتب في غرة رجب الفرد سنة إحدى وسبعين وثمان مائة من الهجرة النبوية.



---

(١) قلت: البازهر أو الباد زهر، حجر ينسب إليه قوى غريبة في مقاومة السموم، وهي كلمة فارسية مركبة، من باد ومعناه روح أو ضد، وزهر ومعناه سم.

(٢) قلت: هو دواء السموم وانظر «لسان العرب»: ت ر ق.

(٣) بلسان: هو شجر أبيض الزهر يستعمل في الأدوية والعامة تسميه بالسيسبان.

(٤) السقنقور أو الإسقنقور هو: التمساح البري وينشأ بشاطىء بحر النيل.

٢ ــ رسالة الأشرف قايتباي إلى محمود شاه
نسخة الجواب الشريف
إلى صاحب منادواه عن مكاتبته المشروحة

فرسمها: أعزّ الله تعالى أنصار المقام العالي الكبيري السلطان العالمي العادلي الملكي المجاهدي الجمالي، أيّد الله تعالى ملكه، وأجرى في بحار السعادة فلكه، وزاد في رتب علائه وقسم كافور الثناء ومسكه من صبح يومه ومسائه. ولا زالت آفاق مملكته مشرفة ببقائه، وقلوب رعيته مبرورة بمعدلته وآلائه، مبتهلة بالدعاء إلى الله تعالى بارتفاع مجده وارتقائه، ولا برحت عظماء الملوك مصغية إلى مواقع إشاراته ولوامع أمرائه، مترقبة أنباء المسرّات ونوامي مبرات المودات من تلقائه.

ونبدي لعلمه الشريف أنه لما كانت الأرواح جنوداً مجنَّدة، وكان الإعلام بالمحبة من الأمور التي هي بنصوص الأحاديث الشريفة مؤكدة، وجب علينا الإعلام بذلك، وتعيَّن بطريق المحبة أن يُشافَه سمعه الشريف بما أنعم الله تعالى علينا، وبكيفية انتقال الملك الشريف وصيرورته إلينا؛ وذلك أنه لما انتقل الملك الشهيد السعيد الظاهر خُشْقَدم، طاب ثراه من دار الفناء إلى دار البقاء، حصل خلف بين مَن فُوِّضت السلطنة الشريفة إليه وبين العساكر المنصورة، فاجتمع أهل الحل والعقد، وذوو الآراء والمشورة، والخاص والعام، والجليل

والحقير، والمأمور والأمير، على قلب واحد، واتفقت آراؤهم على تِفْواض السلطنة المعظمة إلينا، ومسكونا في ذلك المرة بعد الأخرى، وتراموا علينا، فامتنعنا عن ذلك غاية الامتناع، كما شاع به الخبر وذاع. فتراموا على مراحم الإمارة الأعظم، الخليفة المكرم، مولانا أمير المؤمنين، ابن عم سيد المرسلين، أعزّ الله تعالى به الدين وأمتع ببقائه الإسلام والمسلمين. وسألوا صدقاته في مفاوضتنا في هذا الأمر، ففاوضنا فيه، وألزمنا بقبوله، فلم يسعنا غير امتثال أوامره المطاعة وإجابتها بالسمع والطاعة، ففوّض إلينا أمير المؤمنين السلطنة المعظمة في جميع أرض الله تعالى مشرقاً ومغرباً، برّاً وبحراً، بُعداً وقرباً، وما استقلت عليه خلافته واحتوت عليه إمامته[1]، بحضرة قضاة القضاة ومشايخ الإسلام، والعلماء الأعلام، والعساكر المنصورة من الخاص والعام، فتوكلنا على الله حق توكله وسألناه الهداية إلى طريق الحق وسبله، وقبلنا ما فوض إلينا من ذلك وكفالته عملاً بقوله ﷺ لعبدالرحمٰن: **«يا عبدالرحمٰن لا تسأل الإمارة فإنك إن أُعطيتها عن مسألة وُكلت إليها وإن أُعطيتها عن غير مسألة أُعنتَ عليها»**[2].

وحال جلوسنا على تخت الملك الشريف بدأنا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإزالة المظالم والأخذ للمظلوم من الظالم، وأول مراسيم سُطِّرت في صحائفنا الشريفة، النظر في أمر جدة المعمورة،

---

(١) في هذه العبارة إشارة واضحة إلى زعامة سلاطين المماليك للعالم الإسلامي، ولقد حرصوا دواماً على التنويه بها عند ذكر ألقابهم في رسائلهم ومراسيمهم، وفي الكتابات التاريخية المنقوشة فوق منشئاتهم. ولعل أهم هذه الألقاب لقب «سلطان الإسلام والمسلمين».

(٢) قلت: أخرجه الإمام البخاري ـ بألفاظ مقاربة ـ في صحيحه: كتاب الإيمان والنذور: باب قول الله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾: ١٥٩/٨ .والمقصود بعبدالرحمٰن هو عبدالرحمٰن بن سمرة رضي الله عنه.

فإن أمورها وأخبارها كانت عندنا مشهورة. وكتبنا مراسيم شريفة بإبطال ما كان يتضرر منه التجار وأن لا يؤخذ منهم سوى العشر صنفاً، ولا يأخذ أحد من المباشرين منهم هدية ولا رسماً، إطابة لخواطر التجار وأمرنا بإجهار النداء بذلك في سائر البنادر والأمصار، ليكون ذلك مسطَّراً في صحائفنا الشريفة على الدوام وعلى مدى الشهور والدهور والأيام. ورسمنا بإفصال المباشرين الذين كانوا معتمدين الفساد، وأرحنا منهم البلاد والعباد، وأقمنا نائبنا بجدة المعمورة متصفاً بأوصاف مشكورة وعفة مشهورة، وبالغنا بتوصيته بالتجار، وأن لا يتجاوز ما رسمنا به من ذلك، وأن يستجلب خواطرهم، ويسلك معهم أحسن المسالك[1]. وتوجه في العام الماضي وعمل بما رسمنا له به، وعادت أجوبة التجار بالشكر منه والرضا به، وسألونا في استقراره على عادته، فأجبناهم إلى ذلك ورسمنا باستمراره على حاله وقاعدته.

ثم أعقب ذلك وصول رسول مقامكم العالي إلى الأبواب الشريفة، وتمثَّل بحضرتنا المنيفة بما على يده من كتابكم الكريم إلى الشهيد الظاهر المشار إليه، فبالغنا في إكرامه وتعظيمه واحترامه، فخاطب مقامنا الشريف أحسن خطاب، وتأدَّب في تأدية الجواب، وأوصلنا المثال الكريم المشار إليه، ثم فضضنا ختمه، ووقّعنا عليه وفهمناه جملة وتفصيلاً ووجدناه إلى طريق الخير هادياً ودليلاً.

وقد كتبنا مرسوماً شريفاً إلى أمير مكة المشرفة وقضاتها وأكابرها وحكامها بالإجمال في تلقي مَن يفد من قِبَلكم من الرسل، وأن يبالغوا

---

(١) في أوائل سلطنته عين قايتباي أبا الفتح المنوفي نائباً لجدة.

في إكرامهم واحترامهم وتقاضي أشغالهم ورعاية حمايتهم، والاشتمال على جميع مقاصدهم ومآربهم، ورسمنا لهم بعدم تمكين أحد من التعرُّض إليهم فيما يُصار إلى أيديهم من الصدقات، وأن لا يؤخذ زيادة على ما نصت به الرسالة بما سمحت به خواطركم من المبرّات، سطّر الله ذلك في صحائفكم الشريفة الجميلة، وأمتع بطول بقاء ذاتكم الجليلة.

وأما ما أشرتم إليه من أمر القاضي برهان الدين بن ظهيرة وما نقل عنه إلى مسامعكم من الظلم وسوء السيرة، فنحاشيكم من الإصغاء إلى ما نقل عنه من التحريف والاختلاق، فقد أجمع العلماء على خيره ودينه، وأنه عالم الأقطار الحجازية على الإطلاق. وقد كتبنا إليه مثالاً شريفاً بأنه يتعاطى جميع خدمكم على أحسن الوجوه المرضية، وأن يبالغ في إكرام مَن يفد من حضرتكم ويوصي بهم غاية الوصية.

وأما ما أشرتم إليه من العشور والنظر في ذلك بما تحصل به المثوبة والأجور، فقد انتظم أمر ذلك على أحسن الوجوه وأعمها، وأكمل القواعد التي انتظم الحال عليها من الدول السالفة وأتمها، وأن يعمل في أمر العشر بما أفتت به العلماء الأعلام في الأيام الأشرفية برسباي سقى الله عهده صوب الرحمة والرضوان، وأسكنه فسيح الجنان. وجُلُّ قصدنا الآن، أن تجار بلادكم ومراكبهم لا يختل عن ذلك البحر المديد نظمها، فإن الظلم قد زال، والمكارم نجانسهم[1] بالطُّرف من المكارم، ونقابلهم بوجوه الإقبال، ونعيدهم ممتلئين من المغانم، سالمين من المغارم، لينقلب

---

(١) قلت: أي نقابل فعالهم ونماثلها.

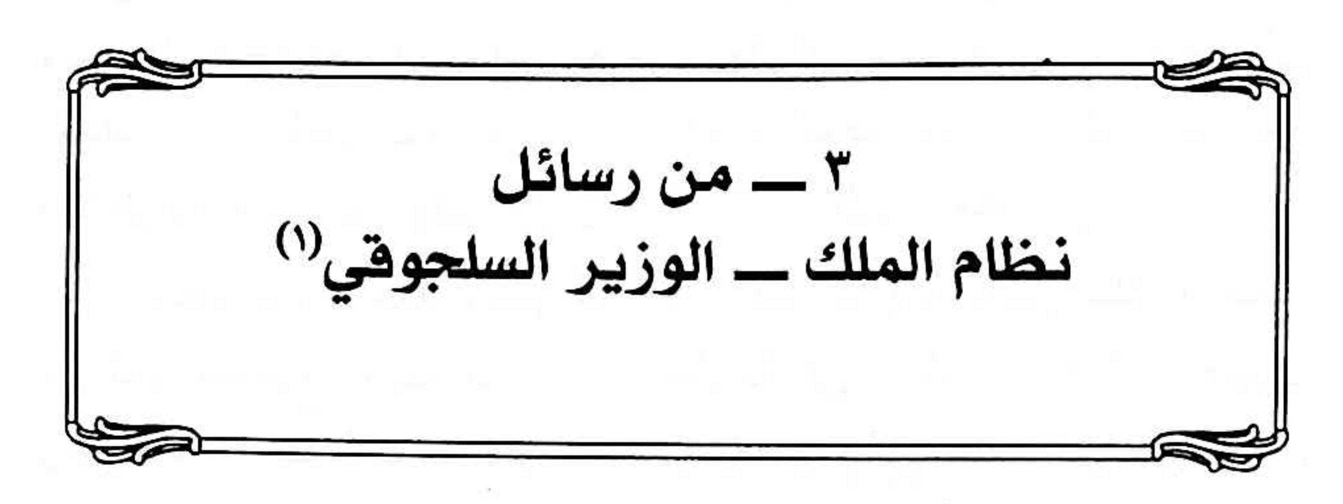
كل منهم إلى أهله مسروراً، ويتلو عليهم لسان الإحسان ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾[1].

وقد وصل ما جهّزتموه من الهدية على يد الرسول وشملناها بعين القبول، وقد عاملنا الرسول المشار إليه بمزيد الإكرام والرعاية والاحترام، وأعدناه الآن إلى حضرتكم العلية ومملكتكم السنية هو ورفقته معامَلين بالخير والإنعام. وجهزنا صحبته على سبيل الهدية ما يؤكد أسباب الوداد ويوثق عرى المحبة والاتحاد، والإتحاف بما يعين له من المهمات لزوم المرسوم الشريف بقضائها على أجمل العادات، والله تعالى يديم التأييد ويمنحه من الخيرات بكل ما يريد، بمنّه إن شاء الله تعالى.

كتب في سابع جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين وثمان مائة.



(١) الإنسان: ٢٢.



٣ ـــ من رسائل
نظام الملك ـــ الوزير السلجوقي(١)

بقلم الدكتور عبدالهادي رضا محبوبة

إن لنظام الملك ـ كما تدل النصوص التاريخية في أمهات المصادر العربية والفارسية ـ رسائل عديدة، كانت تقتضيها ظروف حياته وطبيعة عمله، فقد شغل منصب الوزارة لدولة السلاجقة، وكان فيه الوزير المفوَّض، بل رأس الدولة المفكر، وقلمها المدبّر طوال ثلاثين عاماً، فإذا شُرعت قاعدة جديدة استنير برأيه، وإذا نظم عهد أو صدر مرسوم فبمداد دواته، وثمة شيء آخر يفرض عليه تدوين الرسائل إلى أمراء الأقاليم وحكام الجهات المختلفة: ذلك هو اعتماد السلطان عليه لبراعته في الإنشاء، ودقته في حسن الأداء، فضلاً عما عُرف به من دهاء سياسي وبُعْدِ نظر في معالجة المشكلات، والتعبير عنها بلباقة الخبير المحنَّك، العليم بقواعد اللغة وأسرار بلاغتها.

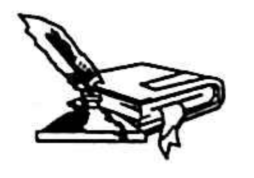
---

(١) قلت: انظر «مجلة معهد المخطوطات»: المجلد السابع: الجزء الثاني: ١٥ ـ ٤٢.
وهو وزير السلاجقة الذين كانت لهم السلطنة في بغداد حاضرة الخلافة العباسية التي لم يكن لها إلا الاسم فقط، واسم هذا الوزير الملقب بـ«نظام الملك»: الحسن بن علي الطوسي، توفي سنة ٤٨٥.

ولو رجعنا إلى ما أشار إليه - ابن الجوزي، وسبطه[1]، وابن الأثير[2] - فحَسْبُ، وأحصينا ما ذكروا من ردود ومراسلات جرت بينه وبين دار الخلافة والمتصلين به من العلماء، والموفَدين إليه ومنه إلى بغداد وسائر الجهات، لعرفنا هذا العدد الوفير من الرسائل السياسية والإخوانية الذي فُقِد ولم نعثر إلاّ على النزر اليسير منه.

وبعد تتبُّع وجهد وسفر كان مما اهتديت إليه بعض تلك الرسائل في ثنايا مجاميع قديمة ما زالت مخطوطة في أمهات المكتبات بطهران وطوس، واحتفظت بصور لكل نسخة منها، وظهر لي من خلال دراستها حقائق جديدة لا شك بأنها ستغيّر من أحكامنا على «نظام الملك» والأحداث التي جرت على يديه أو كانت بإشارة منه في تلك الفترة التاريخية الشائكة، كما سترسم «للنظام» صورة تعبّر عن شخصيته أكثر دقة وأشد وضوحاً.

ولسنا ندري ماذا تخفي تلك الخزانات الزاخرة بالمخطوطات الفارسية القيِّمة التي لم تفهرَس بعد، أو فُهرس بعضها ولم يُطبع، أو طُبع ولم يُترجم إلى العربية، وإذا ما أتيح لمكتبتنا ذلك، فليس من شك بأنها ستلقي ضوءَ مُجَلِّياً على كثير من غوامض تاريخنا السياسي والأدبي والمذهبي ما زالت مثار جدل وخلاف بين الباحثين حتى اليوم.



---

(١) قلت: هو يوسف بن قُزُغلي، أبو المظفر، الواعظ المشهور، توفي سنة ٦٥٤ رحمه الله تعالى. انظر إلى ترجمته في «وفيات الأعيان»: ١٤٢/٣، وهو سبط ابن الجوزي، أي ابن ابنته.

(٢) قلت: هو علي بن محمد بن محمد، أبو الحسن الجزري الشيباني المؤرخ، توفي سنة ٦٣٠ رحمه الله تعالى. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٣٥٣/٢٢ وما بعدها.

الرسائل

من رسالة لابنه «فخر الملك»

وفي مخطوطة فارسية قديمة مهَّد الناسخ لهذه الرسالة بالأسباب التي دعت «النظام» لإنشائها، وحدّد الزمن والمقاصد في كتابتها، وذلك تحت عنوان «دستور الوزراء» فقال:

في عهد السلطان «ألب أرسلان» فوضت سلطنة فارس إلى «معز الدين جلال الدولة ملكشاه» وأسندت وزارته إلى «نظام الدين فخر الملك بن نظام الملك»، سنة ٤٦٣هـ، في ذلك العهد كتب الخواجة «نظام الملك» رسالة إلى ولده «فخر الملك» عند تسنّمه دست الوزارة لتكون دستوراً لسيره في الحياة، ولما كان كل وزير محتاجاً إليها، اقتطفنا منها قدر الحاجة.

ورسالتان أخريان أثبتهما المؤرخ الفارسي «سيف الدين عقيلي» في كتابه المعروف بـ«آثار الوزراء» المخطوط حتى الآن:

الأولى: كتبها «نظام الملك» إلى ولده «فخر الملك» وهي غير السابقة.

الثانية: كتبها إلى ولده «مؤيد الملك».

تحدّث في الأولى إلى ابنه «فخر الملك» كمَن يريد إعداده لمستقبل كبير في الدولة.

وفي الثانية: لم يحرم ابنه «مؤيد الملك» من نصائحه، فقد كان موضع رعايته بعد ولده الأكبر «فخر الملك» غير أنه لم يكن يتوسّم فيه مشاركة في الوزارة يومئذ، لذلك لم يُخفِ عليه مخاطرها ولم يخشَ أوزارها، فكانت رسالته إليه طرازاً آخر في التوجيه والإرشاد.

١ ـ رسالة النظام إلى ولده «فخر الملك»

وهذه ترجمتها:

في الوقت الذي أمرنا ولدنا الأعز أن يذهب إلى طوس كتبنا له كتاباً بخطنا، وذكرنا فيه شروط ذلك العمل.. وعليه فإن هذه التذكرة مما تهذّب وتعلّم الأولاد بسائر أصول الكتب، فإن عمل ذلك الولد ببعضها وترك أكثرها فهو طريق غير مرضي بل إن هذا العمل مما لا يقاس عليه:

الملك هو سلطان الدنيا[١] وذلك الولد هو ولي العهد والتابع له، وإن لفظ الملك المبارك ـ أعز الله أنصاره ـ ليُعطي ويُفهم دائماً بأن كل ما عملناه وما جمعناه من خزائن وملك وجند هو منه وله دون غيره. ولكن الملك قد راعى حق خدمتي إياه، وإني لأتصور أنه لما كانت خدمتي له، مقبولة لديه، فستكون خدمة ولدي أيضاً مرضيّة عنده، وسوف يقتدي بي إن شاء الله.

إن العقلاء من الناس إذا ما أرادوا الشروع في عمل نظروا إلى تحصيل الجاه وحسن الذكر، حتى إذا ما انتشر ذكرهم الجميل ومالت القلوب إليهم في المحبة حصل لهم ما طلبوا، ولم يضع عملهم، ولم يستطع هناك أي حاسد أو مفسد أن يزيل ذلك الذكر الجميل عنهم

---

(١) يقصد المؤلف السلطان «ألب أرسلان» وابنه الأمير «ملكشاه».

أبداً. أما الجهلاء منهم فلا يقصدون في عملهم إلا كسب المال، وذلك مما يلوث النفوس بحقيرات الأمور ورذائل الأعمال، فليس على جاه حصلوا، ولا غير سوء الذكر اكتسبوا. وعندئذ يكون مجال الطعن والطاعن فيهم واسعاً.

وعلى هذا فإن خَطِي - يعني ولده فخر الملك - بالمثول أمام الأمير فليجلس مؤدّباً مصغياً إلى كلامه بكل حواسه ليفهم مرامه جيداً فيعرف كيف يجيب إذا سُئل، وليكن غير مفارق حلمه ووقاره في كل آن.

وليسمع كلام الناس وشكواهم بسرعة، وليساعد الفقراء ويعينهم، وليكن حسب المستطاع مالئاً بالمحبة قلوبهم.

أما باب قصره وديوانه فليكن مفتوحاً للجند والرعايا دون أي حجاب ليتمكنوا من الوصول إليه متى شاؤوا، ويعرضوا حوائجهم عليه كيف أرادوا، فإن حجبوا أو صدّوا دون عذر مسموع مقبول فإن ذلك مما يوحشهم وينفرهم منه.

وليهيىء للسلطان في كل وقت من طرائف ما يميل إليه من سلاح وخيل وأمثالها ثم يعرضها عليه في كل شهر مرتين، وإذا حضر لديه في مراسم الحفلات فليظهر خدمته ويبدي إخلاصه.

كما عليه أن يلحظ العائلة الملوكية فيرسل إليهم في كل شهر مرتين أو ثلاث مرات مما يرغبون فيه من مأكول أو مشروب أو حلوى أو فاكهة فإن ذلك مما يجعله عزيزاً عندهم، وإذا صدر أمر من داخل العائلة فليبادر بالإجابة بكل سرعة ممكنة له، بل عليه أن يجعل تعهدهم وملاحظتهم من فروضه وواجباته فيبعث إلى باب الحرم مَن يسألهم عن لوازمهم ويعرض نفسه وخدماته عليهم، وأن يوصل إليهم تبركاته في

أوقاتها، ويضيف أحياناً إلى تلك التبركات بعض الهدايا اللائقة من ملبوس وأشباهه خصوصاً في الحفلات التي يخدم فيها الملك هو بنفسه، وأن يجعل جميع معاريفه ومتعلقيه يترددون إلى داخل الحرم الملوكي لتبركهم وقضاء حوائجهم اللازمة.

وإذا عرض عليه أحد جنوده حاجة فإن كانت مختصرة قضاها له من مصروفه الخاص، وإن كانت كبيرة فليراجع بها الملك نفسه. وإذا جاء إلى داره أحد الحجّاب أو السيّاس أحياناً فليضفهم ولا يدعهم يخرجون، ثم يكرمهم بالألبسة المناسبة لهم، ولتصل إليهم مبرّاته في كل سنة مرتين أو ثلاث، وليظهر المحبة مع جميع موظفي الدولة ويحترمهم، وإذا وفدوا عليه فليكسهم ويركبهم الخيول، وإذا كانوا من الحجّاب المقرَّبين فليركبهم الخيول المسرجة بالذهب.

وليعلم أن خدم القصر يكونون في الغالب جهلاء ومغفَّلين، ومثل هؤلاء يكون رضاهم وسخطهم بسيطاً مختصراً فليسهّل رواتبهم ويتعهدهم في المواسم والمهرجانات، وليبعد عن حضرته جهَلة الرجال وقليلي الهمّة.

ولا يكفل أحداً في أية بلدة أو ولاية لاحتمال ألا يكون المكفول صادقاً فيكون هو المعاتب.

وليشهر نفسه ويعرفها بحسن الآراء، فإن أخذ ما كان قليل القيمة فليؤده نقداً لئلا يطالب به وهو قليل، وليوصِ خادمه ووكيل صرفه وخرجه بتلك الطريقة. فإن حسن معاملة الخادم وسوءها ينسب إلى مولاه، بل اللازم أن يكون له على الناس دَيْن لا للناس عليه، لا سيما المحل الذي يكثر معاملته وأخذ الحاجات للمطبخ والإصطبل منه.

إن لنا هناك معارف كثيرين ومزارع يتصرف بها الخواجه «أبو

سعيد البيهقي» وقد وهبناها لك جميعها، فاسعَ لتكون لك أملاك تدر عليك ما يكفيك مصاريفك اليومية خصوصاً الخبز والشعير اللذين هما مقدمة لكسب العظمة وأكبر مقوِّم لطالب الاحترام والتبجيل...

إن الولاية التي توجهتَ إليها هي ولاية فارس، وجل أهلها فضلاء ينتقصون كل مَن لم يعرف العربية ولم يتكلمها ولم يكتب بها أو لم يكن خطّه جيداً فيها، خصوصاً صاحب الحكم فإنهم يستهزئون به.. وقد أرسلنا إليك الأديب «أبا المكارم» وهو وحيد الدهر في أنواع الفضائل والآداب، فالضروريّ أن تشتغل عليه في القراءة والكتابة بعد الفراغ من أعمالك، وأن تتكلم معه بالعربية، وأن تتبادل وإياه الرسائل والرقاع حتى تحصل لك ملكة الإنشاء العربي.. ولتطلب الأستاذ «عبدالله الطهراني» فإنه خطاط معروف لتتعلم عليه الخط، وليكن هذا الذي ذكرته من أهم مهماتك بل مقدَّماً على سائر وصاياي لك.

وليختر عدداً من المعتمدين لديه ويعيِّن لهم مقرَّراً من المال ليتاجروا له ويظهروا كفاءتهم واقتدارهم في التجارة.. فإذا سمعنا بحسن طريقته وجودة سلوكه وكانت لدينا مرضية لم يخل من تفقدنا له في كل وقت.. ليكن عند حسن ظننا.

هذا ما سنح في الخاطر، أما ما بقي فبالمشاهدة، لأن الحاضر يرى ما لا يراه الغائب.. أما نحن فلسنا ببعيدين عنه ولم تنقطع المراسلة بيننا في كل وقت.

ثم ليسعَ أن تكون بضاعته مرسلة على ظهور الحيوانات الخاصة به من بغال وإبل وغيرها، وأن تكون من غلمانه المختصين به، وليصرف في كل سنة مبلغاً لا يقل عن عشرة إلى اثني عشر ألف دينار على غلمانه وحيواناته.. وأن يراعي على الدوام حال العمال، فلا يغفل عن أعمالهم حتى إذا ما حصل تقصير فليتداركه بسرعة.. وإذا احتاج

ذلك إلى أن يعرضه على الملك فلا يتسامح في عرضه عليه، وليجامل في ذلك العرض قولاً أو كتابة.

ثم ليحترز جدّ الاحتراز في أن يتصرف بخزانة الدولة فلا يحول عليها أبداً إلا بأمر الملك نفسه، وليوصِ الخازن بعدم التصرف، وأن يفهمه أن لو تصرَّف أحد في أموال الخزينة فقد عرَّض نفسه للقتل، وأنه يجب أن يخبره بكل ما يصرف منها أو يدخل فيها.

ولتكن صناديق الذهب مختومة بختمه ومهره ولا يتصرف بها إلا بحضوره. وليذكر على الدوام محبي الخير والصلاح من أصحابه إن شاء الله تعالى.

٢ ـ رسالة أخرى إلى ولده «فخر الملك»

وهذه ترجمتها:

في مستهل العمر وفاتحة العمل الطيب تحصل السمعة الحسنة، ويصل خبر ذلك إلى البعيد والقريب فتميل إليه قلوب الجند والرعية، فإن يصدر منه سهو وأراد الخصوم تشويه سمعته لم يستطيعوا.

هذه تذكرة لولدي الأعز «فخر الملك» فإن يَجْرِ على سننها يجد السعادة في الدارين إن شاء الله تعالى.

يجب عليك أولاً: أن ترتاح لك جميع الرعايا، وكلما لزمت لهم حقوق وجب قضاؤها كي يشتغلوا بكسب معاشهم وهم مطمئنون، وينالوها وهم هادئون، وأن يصدَّ عنهم صروفَ الزمان، ولا يدع شخصاً يريد منهم شيئاً بعد أمر الديوان.

ثم يجب ثانياً: أن يفتح باب قصره للمتظلمين، وأن يمارس هذا العمل يوماً في الأسبوع بحيث لا تشغله مصلحة أخرى. وعليه أن

يتأنى في حكمه حتى يعرف ممَّ شكاية المتظلّم وكيف يجب تدارك ذلك ليكون ما يحكم به صادراً عن بصيرة.

كما يجب ثالثاً: أن يحترم أمراء عسكره وخواصه ويعزّهم، وينظر إلى الشيوخ والموالي والأئمة بعين الحرمة أيضاً، وأن يتفقدهم ويتعهدهم جميعاً ويسأل عن سبب غيبتهم، وأن يعودهم إذا مرضوا، ويعينهم ويمدهم - بالمال وغيره - إن عملوا مصلحة أو استقبلوا أمراً مهماً. وأن يتعرف على الجميع ويحفظ ألقابهم، وأن يكون معهم بشوشاً حتى يحرصوا على متابعته وخدمته، ويشفقوا عليه إذ الإنسان عبد الإحسان، وأن يطعم معروفيهم كل يوم على سفرته.

ثم يجب رابعاً: أن يحيا مع ندماء الملك ومقربيه بحياء، وأن يعزهم ويمنحهم شيئاً، وأن يأكل مع أركان الدولة وأصحاب المناصب، ويحكي لهم خلال ذلك حكايات تتضمن المصالح، فإذا أكل معهم أكثر من مرتين كان هذا هتكاً للحشمة، وأن يتعهد حق التربية والمصلحة لكل شخص...

ثم يجب خامساً: أن يسمع من المقرَّبين والندماء حين يشفعون في حق شخص بكلام يقولونه أو في حاجة يطلبونها مما هو ممكن التنفيذ، وأن يعتذر بأن يكتب ويخدم - بمقدار يطيّب فيه الخاطر - ولو لم تكن المصلحة في ذلك، إذ لا يصح المنع. وينبغي أن تعلم أنه لن يأخذ أحد معه مالاً إلى العالم الآخر إلا ما يحصل به الذكر الحسن، لذا وجب أن يصل إلى الخدم والحشم الجراية والخِلَع في وقتها دون احتباس.

كما يجب سادساً: عدم الغفلة عن حال رؤساء النواحي والعمال إذ يقع منهم على الرعايا حيف عظيم، فيصبح الفقراء - لهذا السبب -

معذَّبين مثقلين، فإن دفع ظلمهم وصل ذكره إلى جميع الآفاق، وألا يغفل عن السابلة والقافلة حتى تكون الطرق آمنة، والغادون والرائحون سالمين، وأن يعمر الرُّبط.

ثم يجب سابعاً: عمل الذهب والدرهم فإنه صنع لطيف، وتشجيع ذلك يصل نفعه إلى الجميع، لذا يلزم أن يكون متولي دار الضرب شديداً وأن يكون وازن العيار أميناً، وعلى متعهّد العيار أن يتعلق برقاب الباعة والدلاّلين، وأن يصنع مقداراً من الدينار في كل شهر.

كما يجب ثامناً: الاحتفاظ بالغلمان والخدم حشماً على أن يكونوا ذوي أدب وعقل، ويُؤدبوا إذا أساؤوا الأدب. ويُنظر إلى الجميع بإنصاف تام كي يأخذوا حقهم كما هو المعتاد، ولا يستزيدوا... ويحتاطوا في الكمية والكثرة فإن عمارة الدنيا إنما هي بالمال، فإن حصل في ذلك ظلم فقد خانوا وترتفع البركة كلها.

وفي الاستقامة بين الدهاقين[1] صلاح العمل، إذ للزرع فائدة عظيمة، ولا يجب الإبقاء على السرّاق وقطّاع الطريق في أي وجه من الوجوه، وأن يعتبر القضاء عليهم أهم المهمات.

وألاّ يسمع الكذب والبهتان في حق النساء وأن يقهر قهراً بالغاً أولئك الذين يهتكون حرمة النساء ويقصدون إساءة سمعتهن وهتك أعراضهن.

وكذلك قهر النمام أو النديم إذا قصد عرض أحد، فإن السمعة

---

(١) قلت: الدّهقان والدُّهقان: التاجر، وهو من الفارسي المعرب، وانظر «لسان العرب»: د هـ ق.

والناموس[1] تحصلان في سنين ثم يبطلان بكذبة واحدة.

ويجب - أخيراً - أن يدعو الناس دعوة عامة صباح الجمعة، وأن يختم القرآن، وأن يصلي فيهم الظهر في الجامع، ويطلب التوفيق من الله تعالى في كل حال حتى يصل إلى كل الخيرات، وتظهر بركة رضا الخلاّق جلّ جلاله على أحواله في العالمين، إن شاء الله وحده العزيز.

٣ - رسالة النظام إلى ولده «مؤيّد الملك»

وهذه ترجمتها:

اعلم أيها الولد: أن أساس الخير في الدارين هو الاعتقادُ الحسنُ والاعترافُ للحقِّ تعالى بالوحدانية، فقد كان دائماً وهو كائن ويكون، ومحال عليه التغيير والانتقال والزوال. والإيمان بالله تعالى مقرون بالإيمان بالرسول ﷺ. وليعلم أن محمداً المصطفى خاتم الأنبياء وأحسن الخلق، وأن دينه حق، وأن تحبَّه وتحبَّ أصحابه وأهل بيته الذين هم أئمة بالحق.

ولا ينبغي أن يكون في قلبك عداوة لأي شخص يقول: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، ويجب أن تعرف جيداً حرمة العلماء الذين هم ورثة الأنبياء لا سيما المخصوصون بآية التطهير والتشريف من شجرة النبوة.

وبعد ذلك يجب عليك أن تستيقظ قبل الصباح، فإن للاستيقاظ المبكر بركةً عظيمةً، وأنه يفتح الأعمال المسدودة، ويطيل الحياة، وأن

---

(١) قلت: لها عدة معان، أقربها هنا القانون، أو الطريقة التي يدار بها الملك. انظر «المعجم الوسيط»: نمس.

تسوق على اللسان كلمة الشهادة، وأن تؤدي الصلاة، وأن تلزم نفسك بورد من القرآن، وتقرأ من الدعوات المأثورة حتى ينقضي اليوم بالسرور عليك.

وأن تجلس دائماً مع أديب جامع بارع أو مع فنان لطيف ظريف حتى يعلّمك شيئاً، ويحفظك المحفوظات بالتكرار عليك، وأمرر على الخاطر ما تستطيع من الشعر العربي والفارسي والرسائل والآداب.

وبعد صلاة الصبح يجب أن تروّض الطبع بمسائل النحو والتصريف وأشكال الهندسة والقياسات المنطقية، وأن تقوم بمَشْقِ الخط - تدوينه - حتى يستقيم، ولا تقنع بما هو موجود.

ويجب في أول الليل أن تجلس ساعة للمباحثة والاستفادة ولمخالطة الفنّانين والظرفاء، وأن تتعلم شيئاً من اللطائف والآداب والحكايات والأمثال والأبيات، وحين تسلك هذه الطريقة ترجح على أقرانك بسرعة.

ويجب أن تحفظ اللسان عن الكذب والغيبة، ولا تعب الناس، وأن تعيد - ترجع - اللسان في حرمة شخص أو ماله؛ إذ أنه إذا اشتهر إنسان بالصدق وكذب حيناً لمصلحة قبلوا منه ذلك، وإذا اشتهر بالكذب فلو أنه قال صدقاً مرة لم يقبلوه منه أيضاً.

ويجب أن تفي بالمواثيق والعهود، وأن يكون لك عزم صحيح كي تُعزَّ في عيونِ الجميع، وشراء قبح السمعة بالفائدة الدنيوية ضرر مخيف. وكل درهم يحصل من المكاسب الدون يحجب مائة ألف دينار، فإن ادّعى أحد بخلاف هذه القواعد وعاب الناس وغابهم عندك،

وزعم التوقير من سوء السمعة وتحصيل الغنى في الكسل فعُدّه من شياطين البشر وابتعد عنه.

وحقًا لا تعطِ طريقاً للنمام عندك، واطرده، وتجنّب الندماء والأصدقاء ذوي الوجهين، المتملقين، فهم يضلونك بالضحكة والحديث الرقيق والمجالسة الحلوة فتصير خاسر الدنيا والعقبى.

وأن تحافظ على الخدم بأدب المشفق، وتخالط الأصدقاء أصحاب مكارم الأخلاق كي يكون تواضعك وخدمتك باستحقاق.

ولا تطمع في حرمة الناس ومحارمهم بأي وجه من الوجوه، ولتَعُدَّ كل مَن يحرضك على هذا الأمر خصماً لروحك، ولتكن في كل الأوقات بشوشاً، حسن الخلق ليميل كل الناس إليك، ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾[1].

ولا تُقدِم على ظلم، فليس دون دعاء المظلوم حجاب، ولتكن مع الخلق منصفاً، طيب المعاملة، وأن تعيش وتسير مع الشركاء بالعطاء والتفضُّل كي تكون حسن السمعة، ولا تجعل للحقد والحسد إلى قلبك سبيلاً، إذ «الحسود لا يسود». ولا تتكلّف كل وقت، فقد قالوا: التكلُّف شؤم لأنه لا يدوم.

ويجب أن تسمع كلام العقلاء وتجالس أهل الصلاح، وتسير سيرتهم حتى تمدح بكل لسان، وصل ما عُيِّن ورتِّب من الرسوم والمخصصات والرواتب للخدم، وعليك بالقناعة الموقوتة، والانشغال بتحصيل العلم لتتصرف بإرادتك في الجميع بعد أن تصل إلى درجة الاستقلال والانفراد.

---

(١) آل عمران: ١٥٩.

٤ ـ هل للمكتبة أثر في تكوين المثقف[1]؟
للأستاذ عبدالله كنون[2]

بالنسبة إلى العلماء أصحاب الخزائن فإننا نعتبر خزائنهم علماً على نوع ثقافتهم، ونستعين بذلك على معرفة مدى استفادتهم من الكتب التي كانت في حوزتهم، ذلك أن اختصاص أي عالم أو نبوغه في فن من الفنون لا بد أن يظهر في نوع الكتب الذي يغلب على مكتبته. فالفقيه نجد لديه خزانة ملأى بكتب التشريع والأحكام، والأديب نجد في مكتبته من أمهات كتب الأدب ودواوين الشعر ما لا نجده في مكتبة المحدث أو المفسر مثلاً. وهكذا نستطيع أن نحكم على اتجاه صاحب المكتبة من الموضوع الذي تكثر كتبه في مكتبته، لأنها ما كثرت إلا بتفضيله لذلك الموضوع وحرصه على الإكثار مما وضع فيه من المؤلفات. ثم نزيد بالنظر في آثاره ـ إن كانت له آثار ـ علماً بمبلغ استعماله لهذه الكتب واستفادته من المعلومات التي

---

(١) قلت: انظر «مجلة معهد المخطوطات»: المجلد التاسع: الجزء الأول: ص٤٧ وما بعدها.

(٢) قلت: هو عبدالله بن عبدالصمد كنون. عالم بالدين واللغة والأدب، شاعر، من أعضاء مجامع اللغة العربية بدمشق والقاهرة وعمان والمجمع العلمي العراقي والأمين العام لرابطة علماء المغرب. ولد بفاس سنة ١٣٢٦، وهاجر مع والديه إلى طنجة. وتنقل في المناصب الحكومية إلى أن صار وزيراً للعدل ثم الحاكم العام لطنجة. وأصدر صحيفة ومجلة، وله العديد من المؤلفات والتحقيقات. توفي سنة ١٤٠٩ رحمه الله تعالى. انظر «ذيل الأعلام»: ١٣١ ـ ١٣٢.

تحتويها، ومن هناك نخلص لمعرفة تصرفه في حصيلة علم غيره، وتمثله له وما له هو من ابتكار وتجديد في الموضوع الذي تناوله، وبذلك يسهل علينا تقييم شخصيته العلمية ووزنها بالميزان العادل الصحيح.

وهنا يصح أن نتساءل: هل للمكتبة أثر في تكوين المثقف؟ والجواب: أن الكتاب من أعظم وسائل التثقيف، وأن أفراداً عديدين من الأدباء والمفكرين المشهورين لا يرجع الفضل في تكوينهم إلى مدرسة أو جامعة وإنما إلى الكتاب والقراءة الدائبة المستوعبة، فالمكتبة إذن لها أثر كبير في الثقافة، في حصولها وفي إنمائها، وما من سبيل بعد الدراسة الرسمية إلى الاحتفاظ بالمستوى الثقافي الذي وصل إليه الشخص - بله[1] التوسع في المعرفة الإنسانية - إلا بمواصلة القراءة والاطلاع على نفائس الكتب التي تحتضنها المكتبات وتخرجها المطابع، والشخص الذي يُطلّق القراءة بعد التخريج ويهجر المكتبة لا يلبث أن ينسى معلوماته ويصبح إلى العوام أقرب منه إلى المثقفين، وكم رأيناً معنيًّا بتثقيف نفسه، مهتماً بالحركة الفكرية - وإن لم يكن من الدارسين - يَبُذُّ[2] حملة الشهادات وأصحاب الدرجات العلمية الذين توقفوا بعد التحصيل وأخلوا له في المكتبة المكان الذي كان عليهم أن يحتلوه ولو حيناً بعد حين.

ولعل هذا من البداهة بمكان، ولكن الذي يزيده تقريراً هو أن نرى بعض العبقريات يحد من انطلاقها عدم توفرها على مكتبة غنية بالمصادر الكافية للبحث والدراسة العلمية وخصوصاً في البلاد التي لا توجد فيها مكتبات عمومية، وفي الزمن الماضي الذي كانت فيه هذه المكتبات نادرة جدًّا وعليها قَوَمَةٌ يمنعون المستحق ويعطون المضيّع حتى تبددت خزائن المدارس والمعاهد وضاعت أعلاقها النفيسة التي لم يبقَ منها عين ولا أثر.

---

(١) قلت: هو اسم فعل أمر بمعنى دَعْ أو اترك.

(٢) قلت: أي يفوق.

ونعطي مثالاً على ذلك العلامة النظَّار أبا عبدالله محمد بن أحمد المسناوي الدلائي الفاسي المتوفى سنة ١١٣٦هـ، فإنه كان من الرسوخ في العلم وقوة ملكته بالمكان الذي لا يجهل، وألّف بعض الرسائل في مسائل خلافية أبان بها عن تحقيقه ودقة ملاحظته، منها رسالته في نصرة القبض في الصلاة وترجيح سنيته في مذهب الإمام مالك، وكان فقهاء المغرب آنذاك كلهم من القائلين بكراهته والمؤولين للأحاديث الواردة في مشروعيته أخذاً بما روى عن ابن القاسم[١] في المدونة من تلك الكراهة، فتصدّى المسناوي للمسألة وأوسعها نظراً وتحريراً حتى وضع الحق في نصابه وصارت رسالته علماً في هذا الباب[٢]، ومع ذلك فإننا حين نطالع هذه الرسالة اليوم على ضوء المعلومات والأدلة التي نجدها في الكتب الأمهات بخصوص سُنّة القبض نشعر بضعفها وبما ينقصها من قوة الحجة والبرهان بسبب فقر المكتبة التي كان يرجع إليها المسناوي في كتب الحديث والخلاف العالي، وهي المكتبة المغربية على العموم.

وأكثر من ذلك دلالة على قصور الرجل عن بلوغ المرتبة العلمية التي تناسب اجتهاده وعبقريته، رسالته التي تحمل اسم «جهد المقل القاصر في نصرة الشيخ عبدالقادر» يعني به الجيلاني[٣][٤]، وكان قد مرّ

(١) عالم الديار المصرية ومفتيها عبدالرحمٰن بن القاسم، صاحب الإمام مالك، توفي سنة ١٩١ وعاش تسعاً وخمسين سنة. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٩/١٢٠ ـ ١٢٥.

(٢) نشرت رسالة المسناوي قديماً بالمطبعة الحجرية بفاس، وأعدنا نشرها بالحروف في تطوان منذ أكثر من عشر سنوات.

(٣) توجد هذه الرسالة مخطوطة في عدة مكتبات بالمغرب ومنها نسخة بمكتبتنا.

(٤) قلت: هو الشيخ الإمام العالم الزاهد، شيخ الإسلام، محيي الدين، أبو محمد عبدالقادر بن عبدالله بن جنكي دوست الجيلاني الحنبلي، شيخ بغداد، وصاحب الكرامات الكثيرة، ولد بجيلان سنة ٤٧١، وتوفي ببغداد سنة ٥٦١ .انظر «سير أعلام النبلاء»: ٢٠/٤٣٩ ـ ٤٥١.

في بعض قراءاته بعبارة تَصِمُ هذا الشيخ بالابتداع، فأقَضَّ ذلك مضجعَه وتولى الدفاع عنه وتبرئة ساحته مما نسب إليه من ذلك، كيف وهو شيخ السنة وإمام العارفين؟ وأعوزت صاحبنا المصادر ليعرف أن هذه التهمة إنما وجهت إلى الشيخ من أحد الأشاعرة الغلاة، والشيخ كان حنبلي المذهب في العقيدة، فلم يزل المسناوي يتتبع النقول والآثار حتى اهتدى إلى هذه الحقيقة وحرّر المناط بما في وسعه، ولو وصل إليه من كتب أصول الدين والاحتجاج للعقيدة السلفية ما كان شائعاً ومتداولاً ببلاد المشرق لما وقع في الحيرة، ولأتى منه بالتالي إمام من أئمة العلم والدين لا يقل عن ابن تيمية وابن القيم وأضرابهما.

ويتكرر هذا الموقف بالنسبة إلى أحد الأعلام من أصحاب الخزائن، وهو «الفقيه أبو عبدالله محمد بن المدني كنون»، هذا الرجل عاش في النصف الثاني من القرن الماضي، وكان متضلعاً في علوم الدين وخاصة علم الفقه الذي تفرّد بحمل رايته في أقطار المغرب، وقام بدعوة إصلاحية عظيمة تستهدف تطهير الدين من الخرافات والبدع التي ألصقها به أدعياء التصوُّف والعلم، وكان أكثر ما يستأثر باهتمامه إلى جانب محاربة الطرق الضالة مقاومة الظلم والرشوة والفساد، وزاد على ذلك القول ببطلان الاسترقاق وحرية الرقيق المجلوب من السوادين وعدم صحة نكاحه بملك اليمين، وشدّد النكير في ذلك على الحكام والأمراء حتى تعرّض للإذاية والامتحان، فهو مصلح ومجدد ديني من طراز فذّ ما زال الكثير من الكتاب في النهضة الإسلامية لم يعرفوا قدره ولم يوفوه حقه. وسنرى في محتويات خزانته أن علمه كان أكثر من كتبه، وأنه لو كان أتيح له الاطلاع على كتب أئمة الإصلاح الديني من ابن تيمية فمَن دونه لاتسع أفق علمه وارتفع منار دعوته حتى تعم المشرق والمغرب، وبالرغم من ذلك فإننا نرى في كتبه نقولاً صائبة

ونصوصاً قاطعة مما كان يظفر به في ثنايا الكتب التي بيده فينتفع بها ويوردها في مواطن الاحتجاج لما يقوله ويذهب إليه.

وإن دل هذا على شيء فعلى أثر المكتبة في تنمية الاطلاع، وتوسيع الثقافة، وإنجاد الباحث، وتيسير مهمة الدارس. ولذلك فإن فائدة الإلمام بفهارس الخزائن العلمية الدائرة لا تقتصر على معرفة نوادر الكتب ونفائس المؤلفات، بل تتعداها إلى معرفة مصادر علم أصحابها وأعمالهم الأدبية، مما يترتب عليه صحة الحكم الرامي إلى تقدير هذه الأعمال وثقافة الذين صدرت عنهم، وغير ذلك من الفوائد المهمة.



٥ ـ أبو علي السُّكوني
ورسالته «لحن العامة والخاصة في المعتقدات»[١]
بقلم عبدالقادر زمامة

أسرة السكونيين في الأندلس منسوبة إلى السُّكون[٢] بن أشرس بن كندة، فهي إذن عربية يمانية، قد هاجرت إلى الأندلس منذ أيام الفتوح الأولى.

بعد هذه الوقفة مع السكونيين نرجع إلى أبي علي السَّكوني ورسالته، لنجد مترجميه يقولون عنه أنه: عمر بن محمد بن أحمد بن خليل السكوني [الإشبيلي]، أبو علي، نزيل تونس، الفقيه العالِم العلامة السني، له تـآليف منها: «التمييز لما أودعه الزمخشري من الاعتزال في الكتاب العزيز» في سفرين وقفتُ عليه، وجزء لطيف في البدع. وفاته سنة ٧١٧هـ.

والرسالة موضوعها في الأخطاء التي انتشرت في التعبيرات المتداولة عند الخطباء والشعراء والوعّاظ والمؤلفين وأهل التصوُّف،

---

(١) قلت: انظر «مجلة معهد المخطوطات العربية»: المجلد السابع عشر: الجزء الثاني: ٢٣٥ ـ ٢٧٦.

(٢) قلت: بضم السين وفتحها.

وكلها أخطاء ترجع إلى عدم مراعاة أصول العقائد، والغفلة عن أسس التوحيد مما يؤدي بحسب ظاهره إلى الكفر.

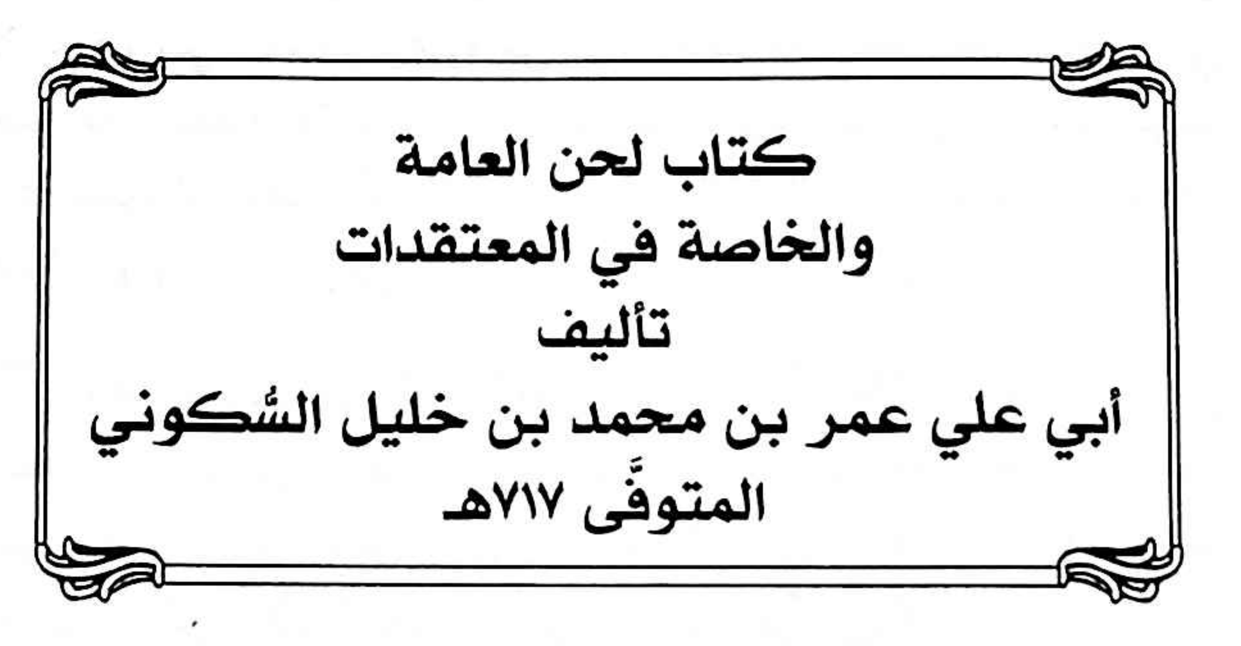
فأبو علي السّكوني يريد باللحن الخطأ الناتج عن جهل، أو غفلة، أو عن مقصد مذهبي لبعض الفرق كالمعتزلة والفلاسفة والصوفية.

وحيث إنه مالكي في الفروع أشعري في الأصول فإن منطقه كان تابعاً لذلك حينما انتقد ما انتقد، وصحح ما صحح من الكلمات والتعبيرات التي اشتهرت في عصره.

وكان أبو علي السكوني جريئاً في النقد والتمحيص، مخلصاً لمذهبيته كل الإخلاص، ومن أجل ذلك لم يكتفِ بما سجله من انتقادات وتصحيحات، بل إنه حذّر قراء رسالته من كتب شخصيات معينة، وآراء فرق معينة تصريحاً لا تلويحاً[1].



(١) قلت: أطلق المصنف في هذه الرسالة الكفر على عدد من ألفاظ العوام واصطلاحاتهم التي لا يتحرزون عند التلفُّظ بها، ولا ريب أن ذلك لا يعني أن قائل ذلك كافر ولا أظن المصنف يعني هذا، وذلك لجهل العوام وعدم تحرزهم، فليتنبه القارىء الكريم إلى هذه المسألة، فإن المسلم لا يكفر إلا بتحقق شروط وانتفاء موانع بينها العلماء، ولا تلقى على عواهنها، أما ما كان معلوماً من الدين بالضرورة ـ وهذا لا يدخل في موضوع المصنف ـ فله حكم آخر، والله أعلم.



كتاب لحن العامة والخاصة في المعتقدات
تأليف
أبي علي عمر بن محمد بن خليل السَّكوني المتوفَّى ٧١٧هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله على سيِّدنا محمد خاتم النبيين، وعلى آله الطيِّبينَ الطاهرينَ، وصحابته الأكرمين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فإنه لما وجب نصح الإسلام والمسلمين، قلت: قال الله سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٨٠)﴾[1] ومما علم بالدلائل أن الحسنَ ما حسّنه الشرع، فالإلحاد في أسمائه تعالى هو الخروجُ فيها عن الشرع، ولا خلاف بين علماء أهل السنة رضي الله عنهم في منع كل إطلاق لم يرد به توقيف شرعي، إذا كان يقتضي ما يستحيل في حقّ الله تعالى،

---

(١) الأعراف: ١٨٠.

أو يمتنع في حق أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام، وفي حق دينه، أو يوهم ذلك، ويترتب على هذه المقدمة، أن كل مَن كان من الناس لا يعرف بين الموهم وغيره من الإطلاقات فلا يجوز له أن يُطلق في حق الله سبحانه إلا ما ورد به التوقيفُ بالإذن الشرعي، وهذه طريقة أكثر العلماء، أعني أنه لا يطلق إلا ما أذن الشرع فيه سواء كان في اللفظ إيهام، أم لم يكن.

ومما يجري على ألسنة العوام مما لا يجوزُ إطلاقُهُ قولُهُمْ: يَا سَاكِنَ السماءِ، ويَا سَاكِنَ الخَضْراءِ، وسُبْحَانَ مَن العُلاَ مكانه، العظيم سلطانه، ومَن يرى ولا يُرَى، ومَن يَراني ولا أراه، ألا ترى أنَّ هَذَا الإطْلاقَ مخالفٌ لقولِهِ تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾[١] ولقوله عليه الصلاة والسلام كما في الصحيح: «**ترون ربكم عياناً**»[٢].

فإن قال صاحبُ هذا الإطلاق الممنوع: أردتُ أن لا أراه في الدنيا قيل له: أتيتَ بلفظ مطلق في موضع تقييد، فكان إطلاقك ممتنعاً وإنما ذلك للشارع فقط، كقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾[٣] فجُعل[٤] على الدنيا لما قام من الدلائل بإجماع الأمة على أن المؤمنين يرون ربهم سبحانه في الجنة.

ويقولون: يا مَن لا تراه العيون[٥]، وهو غير جائز، كما تقدّم بيانه.

---

(١) القيامة: ٢٢، ٢٣.

(٢) قلت: أحاديث رؤية الله تبارك وتعالى في الآخرة متواترة كما بيَّن الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى. انظر فتح الباري: ٢٨/٢١٨ ـ ٢١٩.

(٣) الأنعام: ١٠٣.

(٤) قلت: أي قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾.

(٥) قلت: غفل المصنف رحمه الله تعالى إذ أورد مثل هذا الدعاء وعدّه خطأ عقدياً=

ويقولون: يا سيد كل سيد، ويا سببُ كُن لي سبباً، وكلا اللفظين غير جائز بيانُه كما تقدّم، ويقولون: يا مَن لا يوصف ولا يُعرف، وهو خطأ كله.

ومن ذلك ما يطلقه كثير من الشعراء وأصحاب الخمريات، مثل إطلاقهم في حق الله تعالى: الخمار، والساقي، وصاحب الدَّير، وراهب الدَّير، والقس، ويقول قائلهم:

أيا سعدُ قل للقس في داخل الدَّير   أذاك نبراسٌ أم الكأسُ في الخمر

وكل ذلك وما أشبهه حرام إطلاقه في حق الله تعالى، ولو قصد به مطلقه ما عسى أن يقصد.

ويطلق كثير منهم في حق الله تعالى ما لا يجوز من نوع آخر، مثل قولهم: «ليلى» حتى قال قائلهم:

بدت نار ليلى أشرقَ الكونَ نورُها   وخُصص قيس بالهوى فرآها
فناداها يا ليلى أجابت نداءه   ونادته يا قيسُ أجاب نداها

فهذه إطلاقات محرَّم استعمالها في حق الله تعالى، مع أن هذين البيتين الإشارة بهما كفر صراح. والعياذ بالله من سخطه.

ومما يطلقونه في مثل هذا: لُبنى، وسعدى، وأسماء، وسعاد، وهند، ودعد.

ويطلقون في حق الله سبحانه: الكبريت الأحمر.

ويقول قائلهم:

أنا مَن أهوى ومَن أهوى أنا   نحن روحان حللنا بدنا

= فقد ورد في هذا أثر عن رسول الله ﷺ في دعاء طويل دعاه أحد الصحابة. انظر «مجمع الزوائد»: ١٠/١٦٠ ـ ١٦١، وقال الإمام الهيثمي: رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح غير عبدالله بن محمد، أبو عبدالرحمٰن الأذرمي وهو ثقة.

وهذا كله وما أشبهه حرام إطلاقه، وحرام اعتقاده في حق الله تعالى، لأنه كفر صراح، وأكثر ما عُزي إلى الحَلاَّج[1] من هذا القبيل، وكل ذلك لا يجوز شيء منه عند أهل السنة والجماعة، ومن ذلك قولهم:

تمازجت الحقائق بالمعاني   فصرنا واحداً روحاً ومعنى
فلا تفشِ السرائر يا حبيبي   لعل العيش أن يبقى مهنَّى

ولا يجوز إطلاق هذا ولا اعتقاد معناه لأنه كفر.

ويجري في شعر الشعراء إطلاقات يجب على كل مكلف التحفظ منها وتغييرها على مطلقها.

وكان بإشبيلية إبراهيم بن سهلٍ اليهودي الشاعر، يضمن شعره آيات من القرآن الكريم، محرَّفة عما أُنزلت فيه، فلم يُذكَر أن أحداً غيَّر عليه ذلك، فكان ذلك من دواعي خراب إشبيلية، وذلك كقوله:

أتيتَ قلبيَ يا موسى على قَدَر

وكقوله أيضاً:

ألا ليتَ شعري مَن بآخر سبّح   ومَن هو في التنزيل قبل الذي وفَّى

وهذا كله وما أشبهه حرام إطلاقه، وإحراقه واجب، ولا يحل بيعه في الأسواق، وقال ابن خميس من أهل مالقة في قصيدة له:

ودع ضلوعي يا فؤادي وارحل   ما الحب إلا للحبيب الأول

(١) قلت: هو الحسين بن منصور بن مَحْمي، الفارسي البيضاوي الصوفيّ. تبرأ منه سائر الصوفية والمشايخ والعلماء، ونُسب إلى الزندقة فصلب سنة ٣٠٩ ببغداد. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٣١٣/١٤ ـ ٣٥٤.

إلى أن قال فيها:

واذهب بحالك لا بأهلك تقتبس   ناراً، فقَبْس النار للمتأهل
وإذا رأيت الطورَ دُكَّ لا تُرَع   فالسرّ في السكان لا في المنزل

فهذا الكلام يقتضي حط مقام موسى عليه السلام عن المقام الذي أمر به هذا الناظم قلبه؛ لأنَّ موسى عليه السلام ذهب ليقتبس النار، لأنه سار بأهله، وصعق عند دك الطور، فنهى قلبه هذا الناظم عن هذا المقام، إلى ما هو أسنى في زعمه، ولم يعلم أن أفضل المخلوقين إنما هو بحكم الخالق لهم سبحانه بما يشاء من ذلك، وقد انعقد الإجماع على أن مَن سوى الأنبياء ـ عليهم السلام ـ من البشر لا يبلغ مقامهم، فكانت هذه الإشارة خطأ بإجماع الأمة، ولو تتبعت أمثال هذا في الشعر لطال، ولكن فيما ذكرناه ما ينبّه على مثله مما لم نذكره، والمستبصر في دينه لا يخفى عليه ردّ ما يقع من مثل هذا، لأن الدلائل اقتضت منعه على ما قدّمنا بيانه.

ولقد ذكر العلماء أن سبب توبة أبي العتاهية[1] الشاعر أن قال قصيدة له، فيها:

الله بيني وبين مولاتي   أبدت لي الصدَّ والموالاة

فقيل له في منامه: أما وجدت مَن تجعل بينك وبين امرأة في الحرام إلا الله؟! فاستيقظ مذْعُوراً، فتاب ولم ينظم بعد ذلك بيتاً من شعر إلا في الزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة، حتى جمع من

---

(١) قلت: هو رأس الشعراء، الأديب الصالح، أبو إسحاق إسماعيل بن قاسم بن سويد العَنَزي بالولاء، الكوفي نزيل بغداد. لُقب بأبي العتاهية لاضطراب فيه. تنسَّك في آخر عمره وتزهَّد. توفي سنة ٢١١، وله ٨٣ سنة أو نحوها. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٠/١٩٥ ـ ١٩٨.

شعره في ذلك كتابه المسمى بـ: (زهد أبي العتاهية). والتوفيق من الله تعالى.

وينتهي بعض كتّاب صدور الرسائل ونحو ذلك من المخاطبات في بعض الناس إلى ما لا يجوز مثل قولهم: الأعلى الأعظم، وأوصاف الربوبية لا تطلق في حق المخلوقين، وكذلك يمتنع عليهم مزاحمة أوصاف النبوة كقول بعضهم في مَن دون الأنبياء عليهم السلام: أفضل العالم، فخر بني آدم، حجة الله على الخلق، صدر صدور العرب والعجم، وهذه الأوصاف إنما هي للنبيِّ عليه السلام. فإن قال المطلق لذلك قصدي بقولي: أفضل العالَم عالَم زمانه، وحجة الله على الخلق، خَلق زمانه، قيل له: أوهم كلامك العموم، ومزاحمة أوصاف النبوة، فامتنع الإطلاق.

ويقول قائلهم: ما في الوجود إلا الله، ويقولون: الله فقط.

وهو لفظ موهم من وجهين: الأول: أنه إطلاق يوهم قول القائلين بالاتحاد[1] وهو باطل بالضرورة، وكفر صراح، والثاني: أنه يقتضي حذف اسم النبيّ ﷺ ذكراً باللسان، وكَتباً، ويوهم اعتقاد قائل ذلك كذلك، ودين الإسلام مبني على قول: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، ﷺ، فمَن حذف اسم الرسول عليه السلام من الشهادة لم تُقبل منه ولم يصح إسلامه بالإجماع، وهذا المعنى هو الذي لاحظ شيخ مشايخ الصوفية والسنة في زمانه أبو علي يونس بن السماط[2] رحمه الله في رده على هذه المقالة والإطلاق كما أظهروه، وبلغه ذلك

---

(١) قلت: وهو مذهب باطل، حاصله أن وجود الكائنات هو نفسه وجود الله ـ تعالى الله عن ذلك ـ انظر في تفصيل هذا المذهب والرد عليه «مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية»: ١٤٢/٢، ١٧٥، ٤٦٦، ٤٧٣، ... في مواضع كثيرة.

(٢) قلت: لم أجد له ترجمة.

ففكر ساعة، ثم استحضر دواة وقرطاساً وأملى هذه الأبيات:

ما للرسول على متين علائه ... تُخلَى صدورُ الكُتْب من أسمائه
ما ذاك إلا أن راسم صحفها ... ولو استقام يُعَدُّ من أعدائه
ذادوا نفوسهم ومَن والاهم ... عن أن يفوهوا باسمه وثنائه
وكذا يذاد القوم يوم معادهم ... عن حوضه ومقامه ولوائه
صلى عليه الله رغم أنوفهم ... وعبادُه في أرضه وسمائه
ما أخلق الملوان[1] أعمارَ الورى ... وانهلَّ جفنُ المغمرات بمائه

فلما اقتضى الإطلاق ما قلناه من المذاهب الفاسدة وجب منعه، والصواب أن يقول القائل: ما في الوجود في الأزل إلا الله، وما في الوجود في الأبد خالق ولا رازق إلا الله، لأنا إذا لم نقل هذا وأطلقنا أوهم قولَ القائلين بالاتحاد، وهو كفر صراح.

ويقولون: الله في قلوب العارفين به، ويوهم الحلول[2]، وهو محال على الله تعالى، فالصواب أن يقال: معرفة الله في قلوب العارفين.

ويقول قائلهم أيضاً إذا دعا لأحد: الله يترضى عنك، ولا يجوز أيضاً، لأن يترضى معناه يطلب الرضا من غيره، ورضا الله هو المطلوب الأعظم، لا رضا غيره، وإنما يقال: الله يرضَى عنك.

ويقولون أيضاً: هذا زمن سوء، وليس لهم في الزمان نفع ولا ضر، فتعود أغراضهم إلى الفاعل سبحانه، ولهذا المعنى قال

---

(١) قلت: أي كلما أبلى الليل والنهار.

(٢) قلت: أي حلول الله ـ تعالى الله عما يقولون علوّاً كبيراً ـ في خلقه. وانظر المصدر السابق.

رسول الله ﷺ: **«لا تسبُّوا الدهر، فإن الله هو الدهر»**[1] أي فإن الله هو الفاعل وحده، دون الدهر أو غيره، لأنكم إذا سببتم الدهر وهو في الحقيقة لم يفعل شيئاً فيصير سبكم للفاعل سبحانه وتعالى، فيكون كفراً.

ويقول قائلهم إذا رأى بعض الناس مريضاً: ما يستحقُّ هذا شرّاً، فيعتقد أن المرض شر، وهو خير على الحقيقة، ويعتقد أن ذلك الشخص إنما يستحق العافية، وقد قام الدليل على أنه لا يستحق أحد على الله شيئاً، إذ كل نعمة من الله فضل، وكل نقمة منه عدل، ولا يُسأَل عما يفعل وهم يُسألون.

ويقول قائلهم: هذا الأعمى مغبون، وهو خطأ، لأنه يقتضي أن الله غبن العميان في القسمة الأزلية، فكأنهم كان يجب لهم عند الله غير ذلك فغُبنوا في القسمة، والله سبحانه لا يجب عليه شيء لأحد، فلم يغبن أحداً، بل قسم ما شاء لمَن شاء من غير غبن ولا استخفاف عليه، على ما تقررت براهينه في قواعد العقائد.

ويقول قائلهم: ما يرحمك إلا الله ودراهمك، وتعالى الله عن الشريك.

ويقول قائلهم: هذا لله ولك، وهو شرك.

ويقولون: الدنيا لله وللغالبين، وهو شرك أيضاً.

ويقولون: ما معي إلا أنت مع الله، تعالى الله عن الشريك علوًا كبيراً.

ويقول قائلهم: لولا فلان إيشْ كان يكون منا.

---

(١) قلت: قال الإمام الهيثمي: «أخرجه الإمام أحمد، ورجاله رجال الصحيح» انظر مجمع الزوائد: ٨/٧٤.

ويقولون: لولا صحتي، لولا رأسي، لولا فلان، لولا كذا ما كان كذا، لولا الدواء ما كان الشفاء، لولا النار ما كان الإحراق، لولا الطعام ما كان الشبع، لولا الماء ما كان الري، وأمثال ذلك من المعتادات، وكل ذلك ممنوع.

وقال عليه السلام: «**الشرك في أمتي أخفى من دبيب النمل**»[1]. قال الشيخ أبو الحسن الأشعري[2] رحمه الله في تفسير الحديث: هم أهل لولا كذا ما كان كذا، إذ في ذلك نسبة الأفعال إلى غير فاعلها، والحق في ذلك هو أن يقول الموحد: لولا الله وما شاء الله.

ومن ذلك قول بعض الخطباء: سبحان مَن لم يزل موجوداً، سبحان مَن لم يزل معبوداً، فقوله: سبحان مَن لم يزل معبوداً محال؛ إذ فيه القول بقدم العالم وهو كفر.

وفي هذه المسألة ذكر لي والدي - رحمه الله - عن شيخه: أنه قال: حضرت جنازة مع شيخي - رحمه الله - فقال خطيب القوم عند الانفصال: سبحان مَن لم يزل موجوداً، سبحان مَن لم يزل معبوداً. قال: فسمعت شيخي يقول: آمنت بالأولى، وكفرت بالثانية. قال: فقلت له: كيف يفهم هذا؟ قال: إن الكلمة الأولى صحيحة؛ لأنه تعالى لم يزل موجوداً، وأما الكلمة الثانية فقول باطل، وهو قوله لم يزل معبوداً، لأنه يقتضي عابدين في الأزل وهو قول بقدم العالم، وهو محال والقول به كفر، والكفر بالكفر إيمان، قال الله تعالى: ﴿فَمَن

---

(١) قلت: قال الإمام الهيثميّ: «رواه البزار وفيه عبدالأعلى بن أعين، وهو ضعيف» انظر «مجمع الزوائد»: ٢٢٦/١٠.

(٢) قلت: هو علي بن إسماعيل بن إسحاق، إمام كبير القدر، تحوّل من الاعتزال إلى مذهب أهل السنة والجماعة، وصنف فيه، وتوفي سنة ٣٢٤، رحمه الله تعالى. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٨٥/١٥ وما بعدها.

﴿يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾[1].

ويقول قائلهم: للأمر حيلة، وهو كلام فاسد؛ لأنه التجاء في المضايق إلى التحيلات، دون الله سبحانه، وفيه الإعراض عن التوكل، والتفويض لله في جميع الأمور، فامتنع الإطلاق، لأجل اقتضائه ذلك، فامتنع اعتقاد ذلك أيضاً.

ويقول قائلهم: ما يفعل الله إلا الصلاح، وهو اعتزال؛ لأنه يقتضي أن ما وقع في العالم مما ليس فيه ذلك أنه ليس من فعله سبحانه، وهو مذهب المعتزلة، والصواب أن يقول القائل: الله خالق كل شيء، فإن شاء أصلح، وإن شاء أهلك: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ۝٢٣﴾[2] إذ لا يجب عليه رعاية الأصلح، على ما تقرر في قواعد العقائد.

ويقول بعضهم ـ إذا دخل عليه أحد أو قدم عليه قادم ـ: لقد ﴿جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾[3]، وإن تكلم أحد بما لا يريد السامع قال: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾[4]، وكل هذا ممتنع، وما جرى هذا المجرى، لأن القرآن العظيم موقوف على موارده، محرَّم استعماله في المجازات، لأنه تهاون بالقرآن، وتعرُّض لتحريفه عما نزل فيه وهو محرَّم بإجماع الأمة.

ويقول بعضهم: لا تطلب مني دَيْنك الذي عليَّ أول النهار، حتى يدخل في يدي شيء، وأكثر ما يجري هذا بين أهل الأسواق وهو أيضاً تطير منهي عنه شرعاً، بل يحق له السرور بابتدائه أولَ النهار بأداء حق

---

(١) البقرة: ٢٥٦.

(٢) الأنبياء: ٢٣.

(٣) طه: ٤٠.

(٤) القيامة: ١٦.

واجب عليه أداؤه، فيمتثل أمر ربه بأدائه، وفي أدائه ذلك طاعة ربه وبراءة ذمته أول النهار مما يوبقه في الدنيا والآخرة.

ومن هذا الباب قول قائلهم: مطرنا بنَوْء[1] كذا وكذا، أو بنَوْء الثُّرَيَّا، وفي هذا استظهار بالنجوم، وفي هؤلاء قال رسول الله ﷺ: **«يقول الله عزّ وجل: أصبح من عبادي مؤمن وكافر، فمَن قال مُطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب، ومَن قال مُطرنا بفضل الله وبرحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب»**[2].

وذكر بعضُ علماء أهل السنة أن ملكاً من ملوك الإسلام في الصدر الأول قاتل الكفار، فاصطفّ جيشه وجيشُ الكفار للقتال، فأقام الملك لا يقاتل، وجيشه كذلك مُنع من القتال، فجاء بعض علماء أهل السنة ذلك الوقت، فقال: ما للناس لا يقاتلون؟ فقيل له: المنجم قال لملك الإسلام: لا تقاتل في هذا الوقت، فتقدّم ذلك العالم حتى وصل إلى الملك فقال له:

دع النجوم لطُرُقي يعيش بها ... وقم لوقتك وانهض أيها الملك
إنَّ النبي وأصحاب النبي نهوا ... عن النجوم وقد أبصرتَ ما ملكوا

فقام الملك وأمر الناس بالقتال فهزموا الكفار بإذن الله تعالى وتوفيقه لهم باتباع نبيه عليه السلام.

وأنشد بعضُ أهل السنة في الرد على المنجمين، وإبطال دعواهم:

يقول المنجم لي لا تسر ... فإنك إن سرتَ لاقيت شرا

---

(١) قلت: أي النجم. انظر «المعجم الوسيط» ن و ء.

(٢) قلت: أخرجه البخاري ـ بألفاظ مقاربة ـ في صحيحه: باب الاستسقاء وخروج النبيّ ﷺ في الاستسقاء: ٤١/٢.

فإن كان يعلم أني أسير فقد جاء بالنهي ظلماً وجورا
وإن كان يجهل أني أسير فجهل العواقب أولى وأحرى

وقال القاضي أبو بكر بن الطيب الباقلاني[1] ـ رحمه الله ـ للملك فنا خسرو بن بُوَيْه[2] الذي وجَّهه إلى رومة لمناظرة النصارى عند توجيهه له: هل رفعتَ الطالع لخروجك؟ فقال القاضي رحمه الله: فقلت له: وما الطالع؟ فقال لي: عجباً لك، إذ تكون عالم المسلمين وتقول: وما الطالع؟ كأنك لا تعلم النجوم، قال: فقلت له: أعلم أن النجوم في السماء، فقسَّمها ـ رحمه الله ـ إلى الأقسام الثلاثة المتقدمة الذكر[3] قال: فأمر الملك عند ذلك بإحضار الصوفي المنجم صاحب كتاب أشكال البروج، وأبي سليمان المنطقي[4] لمناظرة القاضي في هذه المسألة، وقال: هذا أوكد عليَّ من إرسالك إلى بلد الروم، فحضرا فناظرهما القاضي فقطعهما بالدلائل اليقينية والبراهين القطعية العقلية والشرعية، وخرج إلى أرض الروم فقطع جميعهم هنالك في مناظرته الشهيرة التي أودعنا ذكرها على وجه البسط والبيان، كتابَنا المسمى «عيون المناظرة»، فمَن أحب الوقوف على ذلك فعليه بذلك الكتاب.

ويقول قائلهم ـ إذا كلمه أحد وهو في حَرَج ـ: لا تزد على مَن زاد الله عليه، وهو تسخُّط بقضاء الله، وسوء أدب معه، فوجب منعه.

---

(١) قلت: هو أحد علماء المسلمين الكبار، له مصنفات في العقيدة وغيرها، توفي سنة ٤٠٣، ودفن ببغداد، رحمه الله تعالى. انظر «سير أعلام النبلاء» ١٩٠/١٧ وما بعدها.

(٢) قلت: هو عضد الدولة، أبو شجاع، صاحب العراق وفارس. كان شجاعاً، مهيباً، جباراً، عسوفاً. توفي سنة ٣٧٢ ببغداد. انظر: «سير أعلام النبلاء»: ٢٤٩/١٦ ـ ٢٥٢.

(٣) قلت: أي زينة للسماء، ورجوماً للشياطين، وللاهتداء بها في ظلمات البر والبحر.

(٤) قلت: هو محمد بن طاهر بن بهرام السجستانيّ، أبو سليمان المنطقيّ. عالم بالحكمة والفلسفة والمنطق، من أهل سجستان وسكن بغداد. لزم منزله لعَوَر فيه وبرص كانا يمنعانه من غشيان منازل الأمراء والوزراء. وأقبل الحكماء عليه. له تصانيف. توفي نحو سنة ٣٨٠ رحمه الله تعالى. انظر «الأعلام» ١٧١/٦.

ويقول قائلهم إذا لم يستحسن شيئاً: ما لله بهذا حاجة، فيؤول كلامه إلى أن ذلك الشيء لو كان حسناً لكان لله فيه حاجة وهو خطأ؛ لأن الله سبحانه لا يحتاج إلى شيء مطلقاً ويحتاج إليه كل شيء، وكل إطلاق من قِبَل المكلفين يوهم الباطل، فهو باطل كما تقدّم بيانه، وهذا اللفظ من ذلك القَبيل، فوجب منعه.

ويقول بعضهم إذا رأى طفلاً صغيراً متألماً: هذا الطفل أصابه هذا الألم بذنوب والديْه، وهي كلمة اعتزالية جرت على ألسنة العوام، ومذهب أهل السنة رضي الله عنهم جواز إيلام البريء، وذلك مما يجوز من أحكامه تعالى في خلقه، فكيف يعاقب الطفل بذنوب والديْه وهو غير مكلَّف، فقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[1].

ويقول بعضهم: هذا الألم تحذفه الطبيعة، ويزول، ولا طبع ولا طبيعة على التحقيق، ولا فاعل إلا الله، على ما تقررت براهينه في علم أصول الدين الذي هو أصل كل العلوم.

ويقول قائلهم: «وتأبى الطباع»، وهذا نسبة الأثر إلى الطبيعة، ولا أثر إلا لله سبحانه.

ويقول قائلهم: طبع الهواء، وطبع الماء والبلد، وهو من قَبيل ما تقدم ذكره، ولا حكم لا للهواء، ولا للماء ولا للأماكن كلها، وإنما الحكم في جميع المخلوقين لخالقهم - سبحانه وتعالى - على ما تقررت براهينه في علم التوحيد.

ويقول قائلهم: إذا خُلقت راحة مريض عند بعض الأدوية بسرعة: هذا الدواء دواء عيسى بن مريم عليه السلام. وإن قيل له: أبطأت الراحة على هذا العليل، قال: لو كان هذا الدواء دواء عيسى بن

---

(١) فاطر: ١٨.

مريم، وهذا كلام موهم كونَ معجزاتِ عيسى عليه السلام عنده عقاقير وأدوية، وليس الأمر كذلك، بل المعجزات خوارق للعادة، بقدرة الله تعالى من غير أسباب ولا معالجات، فامتنع ذلك الإطلاق والوهم.

ويقول قائلهم: فلان مات مقتولاً، وفلان مات بأجله، وفيه إيهام أن المقتول مات لا بأجله، وهو اعتزال، وقد قامت البراهين اليقينية على أن كل مَن مات إنما مات بأجله، لكن من تلك الآجال ما يظهره الله ـ سبحانه ـ عند سبب، ومنها ما يظهره الله تعالى لا عند سبب.

ويقول قائلهم أيضاً: إن كان قيل في حقي أو في حق غيري كذا وكذا فقد قيل في الأنبياء عليهم السلام كَيْت وكَيْت. وهذا كله محرم إطلاقه واعتقاده، لأن ما انتُقِصَ به مُطلِقُ اللَّفْظِ يُضيفه إلى الأنبياء عليهم السلام ليجمعهم مع نفسه في ذلك لتزول عنه المعرة بذلك الجمع.

ففيه إضافة النقص إلى الأنبياء عليهم السلام فيحرم ذلك ويؤدب قائله، وإن عظمت جُرأته زيد في تأدبه.

وكذلك مَن يسب غيره بالألْف، وهو القائل: يا ابن ألف كذا، لأنه يصل بسببه إلى الأنبياء عليهم السلام[1].

ويقول قائلهم إذا رأى أحداً زاهداً في شيء: هذا أزهدُ في هذا الشيء من إخوة يوسف عليه السلام [في يوسف]، وهذا وما أشبهه محرم إطلاقه، يؤدب قائله.

ومن ذلك امتنع أن يطلق أحد لفظ العصيان في حق أبينا آدم، لأن ما ورد في القرآن من ذلك كذلك مؤول بأنه كان نسياناً، وهو عليه السلام معصوم من العصيان، وللعزيز تعالى أن يؤاخذ بالنسيان مَن

(١) قلت: يريد المصنف أن يبين أنه لعل أن يصل السابّ القائل «يا ابن ألف كذا» إلى الأنبياء فبين الأشراف اليوم وجدهم النبي الأعظم ﷺ مثلاً أقل من ذلك بكثير، وهذا من دقة المصنف وورعه، والله أعلم.

شاء، وخصوصاً مَن رفع مقامه أو أعلى منزلته، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾[1] أي على المخالفة، وهو المناسب لظاهر لفظ النسيان، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ﴾[2]، وهذه شهادة عظيمة من الله تعالى، تدل على عصمتهم، وقد ذكرنا أن الإجماع منعقد على عصمتهم من الكبائر، والتحقيق يقتضي عصمتهم من الصغائر لقبول التأويل في جميع ما ذُكر في الشريعة عنهم، فوجب بقاء شهادة الله لهم بالتزكية على أصلها، إذ لا معارض يصلح لمعارضة تلك التزكية الربانية لهم، فلما كان كل ما ورد في الشريعة في حقهم عليهم السلام مؤولاً، وجبت عصمتهم، فلا يجوز لنا أن ننطق في حقهم إلا بالأدب التام ـ صلوات الله عليهم وسلامه ـ ولله سبحانه أن يسمي عباده بما شاء، ويطلق في حقهم ما يشاء، وهو جائز في حق الأنبياء عليهم السلام، وجائز أيضاً في حق الصحابة ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ، فلا ينسب إليهم إلا الحسن الجميل، وكذلك كان في نفس الأمر وحقيقته عند محققي العلماء.

ويقول بعضهم: فلان يعلم الغيب، وفلان هو أنباء الزمان، وفلان لا يتصرف إلا بإذن، وفلان عنده الكشف والاطلاع، وفلان أخذ تلامذته، وأصحابه من اللوح المحفوظ، وفلان يعلم السعيد من الشقي، ويقول: هذا من أهل الجنة، وهذا من أهل النار، وهذه إطلاقات كلها غير جائزة في الشريعة، ولا صحيحة في معناها ومقتضياتها، وإنما ذلك للأنبياء عليهم السلام، وقد خُتمت النبوة فانسدّت أبواب الغيوب على الخلق، قال الله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا

---

(١) طه: ١١٥.

(٢) آل عمران: ٣٣، ٣٤.

﴿يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾[1]، وقد بيَّنَّا هذا بياناً شافياً في كتابنا المسمى بـ«المعتمد في المعتقد» فحصْرُ علوم الخلق دوراناً بين النفي والإثبات، حتى لم يبقَ لهم إلى الغيْب طريق.

ولما ختم الخبر الصادق عن الله سبحانه بختم النبوة لم يبقَ للمخلوقين طريق إلى الغيب أصلاً، فلا مطمع لعاقل في شيء من ذلك، وخبر التواتر عن شاهد أو محسوس ليس بخبر عن غيب بل عن شهادة، فلما تحقق ذلك عُلم أن الولي إنما يصل إلى فراسة صادقة يجعلها الله له مطابقة كرامة له، وهي صفة غالبة ظن من غير قطع ولا مزاحمة للنبوة، والعلم والقطع في الغيوب إنما هو للأنبياء عليهم الصلاة والسلام عن الله سبحانه بالوحي إليهم، إذ هو سبحانه المنفرد بذلك، ولِمَنْ عدا الأنبياء عليهم السلام الظن الصادق فقط، وهي المسماة فراسة لما ذكرنا من قوله تعالى: ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ الآية.

واختلف العلماء في قول عمر رضي الله عنه وهو على المنبر يخطب فصاح: «يا ساريةُ[2] الجبل» وسارية إذ ذاك بنهاوند، على ما قاله إمام الحرمين في «الشامل»: كُشِفَ المانع عن بصره فرأى الجبل، وسارية وجيش المسلمين والكفار، فلا يكون ذلك إخباراً عن غيب، بل هو عن مشاهدة، وعلى ذلك البُعد، إذ لم تَجْرِ بذلك عادة، وقال القوم: إنما أخبر عن فراسة بقلبه دون عينه وبصره، فيكون ذلك عن غالب ظن يُخلَق له، وقد عوَّده الله سبحانه صدقه فصاح بسارية جرياً على ما عوَّده الله تعالى.

ويقول بعض العوام إذا رأى بعض مَن فُتح عليهم بشيء: أين كنا

---

(١) الجن: ٢٦ ـ ٢٧.

(٢) قلت: هو سارية بن زُنيم بن عمرو الدؤليّ، له صحبة. كان أمير الجيوش بفارس، ووقع في حصار، فسمع صوت عمر فاستفاد من نصيحته والتجأ إلى الجبل فانتصر. انظر «الوافي بالوفيات»: ١٥/٧٥ ـ ٧٦.

من هذه القسمة؟ وهو اعتراض على الله تعالى في صنعه وقسمته التي قسم لخلقه وملكه، فحرام إطلاق ذلك واعتقاده.

ويقول قائلهم في ضرب الأمثال مستحسناً لهذا القول: قيل لبعضهم: كيف عشت؟ قال: كيف وجدت، لا كيف أردت، وهذا خطأ من جهة ما فيه من عدم الرضا بقضاء الله تعالى.

ويقول قائلهم: يُعطي الفول لمَن ليس له أسنان! وفيه اعتراض على الله تعالى في أحكامه، وأن هذا الحكم جرى على خلاف الحكمة، فكان هذا الإطلاق على هذا الوجه كفراً.

ويقع في تسمية الكتب أسماء غير جائزة، مثل تسمية بعض الكتب: «الإسراء»، وتسمية بعضها «المعراج»، و«المعارج» وتسمية بعضها «الآيات البينات» وتسمية بعضها «مفاتح الغيب»، فَلْيُتجَنَّبْ ذلك.

وليحترز من مواضع في كتاب «الإحياء» لأبي حامد الغزالي[(١)]، ومن مواضع في كتاب: «النفخ والتسوية»، له أيضاً. ومن مواضعَ دُسّت في تآليفه أو رجع عنها كما ذكره في كتابه المسمّى بـ«المنقذ من الضلال».

وليُحترَز أيضاً من مواضعَ في كتاب «قوت القلوب» لمكي[(٢)].

وأما تفسير الزمخشري فأكثره اعتزال، وفيه مواضع انتهى فيها إلى الكفر والعياذ بالله، وقد صنفنا في الرد عليه كتاباً سميناه بـ«التمييز بما

---

(١) قلت: هو الشيخ الإمام البحر، حجة الإسلام، زين الدين أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الطُوسيّ الشافعي الغزاليّ، صاحب التصانيف والذكاء المفرط، تفقه ببلده ثم تحول إلى نيسابور فلازم إمام الحرمين فبرع في الفقه ومهر في الكلام والجدل، وشرع في التصنيف، وعظم جاهه، ثم رفض الرئاسة وتزهد وحج، وانعزل عن الناس مدة. وكان خاتمة أمره إقباله على طلب الحديث ومجالسة أهله. توفي سنة ٥٠٥ بطوس رحمه الله تعالى. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٣٢٢/١٩ ـ ٣٤٦.

(٢) قلت: هو أبو طالب محمد بن علي بن عطية الحارثيّ المكيّ، الإمام الزاهد العارف كان مجتهداً في العبادة، وحفظت عنه ألفاظ من الشطح بُدِّع لأجلها. توفي سنة ٣٨٦، رحمه الله تعالى. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٥٣٦/١٦ ـ ٥٣٧.

أودعه الزمخشري من الاعتزال في الكتاب العزيز»، كان قد ابتدأه والدي ـ رحمه الله ـ ثم مَنَّ الله في تكميله على يدَي، والحمد لله على ذلك.

وليحترز أيضاً من كتاب «رسائل إخوان الصفا»، فإن مؤلفيها من رؤوس الملحدين والمدلسين للدين والمجانبين لطريق الإسلام والمسلمين، ومن كتب الفلاسفة الملحدين، ومن كلام الجاحظ[1]، وإبراهيم بن سيار النَّظّام[2]، وابن الراوندي[3]، والناشيء[4]، ومَعْمَر بن المثنى[5]، وتركنا ذكر قوم يقل وقوع كلامهم بين أيدي الناس.

وليحترز من كلام ابن حزم[6] إذا تكلم فيما يتعلق بأصول الدين وقواعد العقائد، ومما يتعلق بالمعاني والحقائق، لأن هذا الرجل لم يكن من أهل هذا العلم، فلما تكلم فيما ليس يَعِنُّ له لم يُحسن.

---

(١) قلت: هو عمرو بن بحر بن محبوب أحد أئمة الأدب الكبار، توفي سنة ٢٥٥، وما يحذر منه المصنف من كلام الجاحظ إنما هو في العقائد لأنه كان معتزليّاً، أما الأدب فله فيه قصب السبق. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٥٢٦/١١.

(٢) قلت: هو البصري المعتزلي المتكلم. تكلم في القدر، وانفرد بمسائل مخزية، وله كتب كثيرة. توفي سنة بضع وعشرين ومائتين. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٥٤١/١٠.

(٣) قلت: هو أحمد بن يحيى بن إسحاق، من أهل مَرْو الرُّوذ، وسكن بغداد. كان من متكلمي المعتزلة ثم فارقهم وصار ملحداً زنديقاً. عاش أكثر من ثمانين سنة، وهلك سنة ٢٩٨. انظر «الوافي بالوفيات»: ٢٣٢/٨ ـ ٢٣٨.

(٤) قلت: هو العلامة أبو العباس عبدالله بن محمد بن شِرشير الأنباري، من كبار المتكلمين، وأعيان الشعراء، ورؤوس المنطق، وله تصانيف. وكان قوياً في العربية والعروض، ويعدّ من أذكياء العالم. توفي في مصر سنة ٢٩٣ رحمه الله تعالى. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٤٠/١٤ ـ ٤١.

(٥) قلت: هو الإمام العلامة البحر، أبو عبيدة مَعْمر بن المثنى التيميّ بالولاء، البصري النحوي، صاحب التصانيف. ولد سنة ١١٠، وكان يرى رأي الخوارج، وكان شعوبيًا يبغض العرب، مات سنة ٢٠٩ رحمه الله. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٤٤٥/٩ ـ ٤٤٧.

(٦) قلت: هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الفارسي الأصل ثم الأندلسيّ القرطبي. ولد سنة ٣٨٤ بقرطبة، ورزق فهماً وذكاءً مفرطاً، وكتباً نفيسة كثيرة، وكان ينهض بعلوم جمة ويحسن النظم والنثر. توفي سنة ٤٥٦ رحمه الله تعالى. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٨٤/١٨ ـ ٢١٢.

وليحترز من كلام ابن رشد الحفيد[1] لأن كلامه في المعتقد فاسد، وجدُّه من علماء أهل السنة، وهو صاحب «البيان والتحصيل»، و«المقدمات»، تكلم في صدر المقدمات كلاماً حسناً، دلّ على إمامته وفضله.

وليتحرز من كلام ابن عربي الطائي[2]، ومن مواضع كثيرة في قصائده، وقصائد ابن الفارض[3] الشاعر التي أشبعنا في بيانها وتقريرها في كتاب «أصول الدين»، وإن كان الأمر في ذلك أبين من أن يحتاج إلى بيان.

وليحترز أيضاً من كلام ابن سينا[4] أنصف الله منه الإسلام والمسلمين على ما أحدثه في الدين، ومن كلام الملحدين الظالمين القائلين بالاتحاد أو بالحلول أو بالتشبيه أو بالتجسيم تعالى الله عن أقوالهم ربُّ العالمين.

---

(١) قلت: هو محمد بن أحمد بن محمد، أبو الوليد القرطبي، حفيد العلامة ابن رشد الفقيه. درس الفقه حتى برع، وأقبل على علم الكلام والفلسفة والمنطق حتى صار يضرب به المثل، وله تصانيف كثيرة. امتحنه السلطان يعقوب الموحدي وأهانه، ثم أكرمه، ثم إنه مات محبوساً بعد أن شُنع عليه أنه يميل إلى علوم الأوائل. توفي سنة ٥٩٥ رحمه الله تعالى. انظر «الوافي بالوفيات»: ١١٤/٢ ـ ١١٥.

(٢) قلت: هو العلامة صاحب التصانيف الكثيرة، محيي الدين أبو بكر محمد بن علي بن محمد الطائي الحاتميّ المُرسيّ، ابن العربي، نزيل دمشق، كان ذكيًا، كثير العلم، وتزهّد وتعبّد، وانفرد وتوحّد، وسافر وتجرّد، وعمل الخلوات. وقد أكثر فيه الناس بين مادح وقادح ومكفّر، وله ألفاظ ظاهرها رديء، توفي سنة ٦٣٨. وانظر «سير أعلام النبلاء»: ٤٨/٢٣ ـ ٤٩.

(٣) قلت: هو شرف الدين حمد بن علي بن مرشد الحموي ثم المصري. شعره في الذروة لا يلحق به لكنه مليء بألفاظ عقدية موهمة رديئة في ظاهرها غضب من أجلها كثير من العلماء، فالله أعلم بحاله. توفي سنة ٦٣٢ .انظر «سير أعلام النبلاء»: ٣٦٨/٢٢ ـ ٣٦٩.

(٤) قلت: هو العلامة الشهير الفيلسوف أبو علي، الحسين بن عبدالله بن الحسن بن علي بن سينا البلخي ثم البخاري، صاحب التصانيف في الطب والفلسفة والمنطق. قد كفّره الغزالي، وله أشياء لا تُحتمل، وقيل إنه تاب في آخر عمره، فالله أعلم. توفي سنة ٤٢٨ .انظر «سير أعلام النبلاء»: ٥٣١/١٧ ـ ٥٣٧.

وليعول على الاقتداء بخاتم النبيين، وسيد المرسَلين، وخيرة المخلوقين، عن المصطفى ﷺ، وبما أُنزل عليه من الكتاب الحكيم، وما وردت به سنته ودينه القويم وصراطه المستقيم كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾[1].

ثم الاقتداء بأئمة المؤمنين من الصحابة والتابعين لهم من أهل السنة من أئمة المتكلمين الدالين على الدين والداعين إلى المنهج الحق المبين والحبل المتين، كالشيخ أبي الحسن الأشعري ـ رحمه الله ـ وقد بلغت تآليفه ثلاثمائة وثمانين تأليفاً وأزيد على ما ذكره الحافظ أبو القاسم بن عساكر، محدث الشام ـ رحمه الله ـ ونضَّر وجهه، ولقد أطنب في مدح الشيخ أبي الحسن ـ رحمه الله ـ ومدح أئمة مذهبه، مذهب أهل السنة والجماعة بما يليق بدينه وأمانته، وكالقاضي أبي بكر بن الطيب، وكالأستاذ أبي إسحاق الإسفراييني[2] ـ رحمه الله ـ، وكالأستاذ أبي بكر بن فُوْرَك[3] رحمه الله، وكالإمام أبي المعالي[4][5] ـ رحمه الله ـ ومَن سلك طريقهم،

---

(١) الأنعام: ١٥٣.

(٢) قلت: هو الإمام العلامة الأستاذ أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الإسفراييني، الأصولي الشافعي، أحد مجتهدي عصره، وصاحب المصنفات الباهرة، كان من المجتهدين في العبادة المبالغين في الورع. توفي سنة ٤١٨ بنيسابور التي كان يدرس في مدرستها. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٣٥٣/١٧ ـ ٣٥٦.

(٣) قلت: هو الإمام العلامة الصالح، شيخ المتكلمين، أبو بكر محمد بن الحسن بن فُوْرَك الأصبهاني الأشعريّ، صاحب التصانيف الكثيرة. مات بقرب بُست من بلاد الأفغان، مسموماً لشدته على المبتدعة، سنة ٤٠٦ رحمه الله تعالى، انظر «سير أعلام النبلاء»: ٢١٤/١٧ ـ ٢١٦.

(٤) قلت: هو الشيخ الإمام أبو المعالي عبدالملك بن الإمام عبدالله بن يوسف الجُوينيّ ثم النيسابوري الشافعي، صاحب التصانيف. تفقَّه به أئمة، ورجح مذهب السلف في الصفات وأقره آخر عمره. توفي سنة ٤٧٨ بنيسابور. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٤٦٨/١٨ ـ ٤٧٧.

(٥) قلت: في كلام هؤلاء الأئمة الذين مدحهم المصنف مواضع ينبغي التنبُّه لها والحذر=

ونهج منهجهم، فهم الذين أقامهم الله أعلاماً لنصرة دينه.

وما كان من كلام مَن قدَّمنا التحرُّز من كلامهم موافق للحق عُوِّل عليه، لا لأنه قاله، بل لموافقته للحق، وما خالف الحق من ذلك فلا يلتفت إليه، ولا يعول عليه.

وليس المخالف للحق في الاعتقادات والإطلاقات مما ينضبط بحصر، ولكن ذكرنا من الإطلاقات الممنوعات أمثلة يعتبر بها ما لا يجوز إطلاقه مما يخالف الحق، وبمعرفة الحق يعرف الرد على ما يخالفه، والله سبحانه ينفع بالقصد في ذلك إنه وليٌّ كريم، ونسأله تعالى أن يجعلنا من الناصرين لدينه، والناصحين لأمة رسوله.

والحمد لله ربِّ العالمين، وصلواته وسلامه على خاتم النبيين والمرسَلين، وإمام المتقين محمد أفضل العالمين، وعلى آله الطاهرين وصحابته الأكرمين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.



= منها على إمامتهم وجلالتهم لا سيما كلامهم في باب الصفات، وكلٌّ يؤخذ من كلامه ويرد عدا المعصوم ﷺ والله أعلم.

٦ ــ رسالة: مكر النفس
للإمام أبي عبدالله محمد بن علي بن الحسن الحكيم الترمذيّ[(١)]

تحقيق وتقديم

الدكتور عبدالفتاح عبدالله بركة

صاحب هذه الرسالة «مكر النفس» هو: أبو عبدالله محمد بن علي بن الحسن بن بشير بن هارون، الحكيم الترمذي، وقد اشتهر بهذا اللقب دون بقية ألقابه الأخرى كالشيخ، والعالِم العلامة، والمحدّث، والزاهد، والحافظ، والإمام، والمؤذن، وأصبح هذا اللقب بهذا التركيب بين الحكيم والترمذي ـ مع التقديم والتأخير فيما بينهما ـ خاصًا به، بحيث لا يطلق إلا عليه، إذا ذكر بانفراده.

أما تلقيبه بالترمذيّ، فقد كان ذلك من عادة العلماء في نسبة أهل العلم إلى مواطنهم سواء في نشأتهم، أو خلال طلبهم للعلم، أو بعد استقرارهم، وذلك لأغراض علمية تتعلق بالتمييز بين متشابه الأسماء،

---

(١) قلت: انظر «مجلة معهد المخطوطات العربية»: المجلد العشرين: الجزء الثاني: ١٣١ ـ ١٥٩.

والتحقق من أمانة النقل، والتأكد من المصادر إلى غير ذلك من الأغراض.

وأما تلقيبه بالحكيم فيحمل إشارة واضحة إلى لب مذهبه في التصوُّف.

وقد ولد الحكيم الترمذيّ في بداية القرن الثالث الهجري، وتوفي حوالي عام عشرين وثلاثمائة للهجرة، ونشأ في بيت تقوى وعلم، وقد كان أبوه من رواة الحديث، وروى الحكيم عنه فيمن روى عنهم من رجال الحديث.

وقد انغمس شيخنا في طلب العلم منذ نعومة أظفاره، فقد ذكر ذلك عن نفسه قائلاً: (إن الله تبارك اسمه قيَّض لي شيخي - رحمة الله عليه - من لدن بلغت من السن ثمانياً، يحملني على تعلُّم العلم، ويعلمني، ويحثّني عليه، ويدأب في ذلك في المنشط والمكره، حتى صار ذلك لي عادة وعوضاً عن اللعب وقت صباي)[1].

أما شيخ الحكيم الترمذيّ الذي أشار إليه فقد كان يجمع له بين علم الآثار وعلم الرأي.

وقد وُفِّق هذا الشيخ في أن يجعل تلميذه قادراً في حداثة سنه على أن يجمع بين هذين العلمين، وليس ذلك بالأمر الهين أو اليسير.

ولقد ظلّ منصرفاً إلى تحصيل هذين العلمين حتى قاربت سنه السابعةَ والعشرين واتجه إلى أداء فريضة الحج، وعندئذ بدأ يتجه اتجاهاً

---

(1) بدء شأن أبي عبدالله، للحكيم الترمذيّ، نشرها الدكتور عثمان يحيى في مقدمته لكتاب «ختم الأولياء» للحكيم الترمذيّ أيضاً.

جديداً، حيث حرص على حفظ القرآن، وبدأ حفظه خلال هذه الرحلة حتى أتمّه وانصرف إلى تلاوته وتدبره بالكلية، فلم يكن يمل من قراءته، بل يجد في قلبه حلاوته حتى ليقيمه الليل إلى الصباح، وبدأت نظرته إلى الحياة وإلى تحصيل العلوم تتغير تغيراً شاملاً، واستغرق في أنواع العبادة من صوم وصلاة وقرآن، ثم سلك طريق جهاد النفس وطريق التصوُّف.

واستمر الحكيم الترمذيّ في رياضته ومجاهداته حتى وصل إلى رتب عالية ومقامات رفيعة تظهر لمَن يقرأ شيئاً من رسائله وكتبه، وهي عديدة ومتنوعة، لم يقتصر فيها على موضوعات صوفية خالصة، بل كان منها ما يتعلق بالفقه، وما يتعلق بالحديث وروايته، وما يتعلق بالفرق الإسلامية وموضوعات علم الكلام إلى غير ذلك من أنواع العلوم، لكنه كان يلبسها لباسه الصوفيّ الخاص، ويبرزها من وجهة نظره كما يراها بعين الحكمة الصوفية، فكان له منهجه الخاص في معالجة هذه المسائل، وهو منهج يختلف مع منهج رجال هذه العلوم، مما جعله يتعرّض لكثير منهم بالنقد، ولكثير من طوائفهم بالتوجيه.

ومن المتوقع لمَن يفعل مثل ذلك أن يكون عرضة للطعن والتجريح بالحق في بعض الأحيان، وبغير الحق في أحيان أخرى، وذلك بسبب الفجوة التي تباعد بين المنهجين، وبسبب سوء الظن المتبادل الذي يخلقه أسلوب النقد والتوجيه[1].

---

(١) قلت: ذكر الإمام الذهبي ترجمته، وبيَّن حاله بإنصاف معروف عنه. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٣/٤٣٩ ـ ٤٤٢.
وممن أنصفه أيضاً الإمام ابن حجر في كتابه «لسان الميزان»: ٥/٣٤٨ ـ ٣٥٠، ولكنه ذكر أنه لم يجد ترجمة شافية للحكيم الترمذي على جلالته، والله أعلم.

وقد وقع ذلك فعلاً، وتعرض الحكيم الترمذي لكثير من التهم من كثير من أهل العلم، بل من كثير من رجال التصوف أنفسهم.

ووصل الأمر إلى السعاية به عند والي بلخ، واتهامه بإفساد الناس، والابتداع، بل وادعاء النبوة.

ولم يثبت عند الوالي شيء من ذلك، ولكن رغم ذلك أصبح يُنظر إليه ـ سواء من العامة أو من الخاصة ـ بعين التوجس والريبة، وأثّرت لديهم قالة السوء وشائعة البهتان، بحيث أصبح الحكيم لا يجترىء أن يرفع رأسه خوفاً من العامة.

وقد تعرّض ـ بسبب ذلك ـ للاضطهاد أكثر من مرة، وكان ذلك كله من العوامل التي ساعدته على التخلُّص كلية من ملاحظة الخلق واعتبارهم والنظر إليهم، فقد أسقطت قدره عندهم، وآيسته منهم، وجعلته يستمد منها معيناً ثرًّا يساعده على تطهير قلبه، ورياضة نفسه ومجاهدتها.

وإذا كانت كتب التراجم قد بخلت علينا بشيء من التفصيل الشافي عن حياته وتطوراتها، فإنها لم تبخل عليه ببعض ما هو أهله من تقدير وعرفان.

فقد ذكره السلميّ[1] بأنه من كبار مشايخ خراسان، وله التصانيف المشهورة وأنه كتب الحديث الكثير ورواه.

---

(١) قلت: هو الإمام الحافظ المحدث، أبو عبدالرحمٰن محمد بن الحسين بن محمد السلمي، شيخ خراسان وكبير الصوفية، صاحب التصانيف. ولد سنة ٣٢٥، وتوفي سنة ٤١٢. ضُبطت عليه بعض الألفاظ المشكلة. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٧/٢٤٧ ـ ٢٥٢.

وذكره أبو نعيم الأصفهاني[1] بأنه مستقيم الطريقة تابع للآثار يرد على المرجئة وغيرها من المخالفين.

وذكره القُشَيريّ[2] بأنه من كبار الشيوخ. وله تصانيف في علوم القوم، إلى غير ذلك.

وهذه الرسالة التي بين أيدينا الآن ـ وهي رسالة «مكر النفس» ـ رسالة صغيرة من رسائل الحكيم الترمذيّ المتعددة، وردت في تضاعيف رسالة أخرى بعنوان «الرسائل المكنونة» بحيث لا يُكاد ينتبه إلى استقلالها، وإلى كونها رسالة برأسها.

وإذا نظرنا في هذه الرسالة نجدها تتحدث عما يتعرض له المريدون الذين يسلكون على طريق التصوف للوصول إلى مراتب الولاية العليا[3].

وخلال هذا الطريق يواجه المرء نفسه مواجهة صريحة وحاسمة في كل لحظة وفي كل حركة.

---

(١) قلت: هو أحمد بن عبدالله بن أحمد، الإمام الحافظ، الثقة العلامة، أبو نعيم الأصبهاني الصوفي الأحول. ولد سنة ٣٣٦، وتوفي سنة ٤٣٠، رحمه الله تعالى. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٤٥٣/١٧ ـ ٤٦٢.

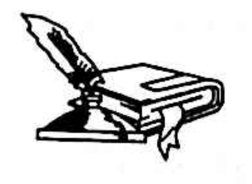
(٢) قلت: هو عبدالكريم بن هوازن بن عبدالملك القُشيريّ الشافعي، المفسر، صاحب الرسالة القشيرية. ولد سنة ٣٧٥، وكان عديم النظير في السلوك والتذكير، لطيف العبارة، طيب الأخلاق. توفي سنة ٤٦٥ بنيسابور. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٢٢٧/١٨ ـ ٢٣٣.

(٣) قلت: بيّن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في مجموع فتاواه وفي كثير من رسائله ومصنفاته أن الصوفية ينقسمون إلى قسمين: القسم الأول: مَن كان مخلصاً لله تبارك وتعالى، سالكاً طريق السنة في أكثر أقواله وأفعاله، بعيداً عن الابتداع فيهما، كالجنيد وأصحابه، وهذا ممدوح.
وقسم غلب عليه الابتداع في أقواله وأفعاله، فهذا مذموم.
والغالب على صوفية زماننا قلة العلم وكثرة الابتداع، وإن كان فيهم مَن يُعد من أهل القسم الأول الممدوح.

والحكيم الترمذيّ يحذر المريدين والسالكين على طريق الصدق من مكائدها[1] وحيلها ومكرها، وهذه الرسالة الصغيرة التي بين أيدينا، تصور هذه المعركة التي تقوم بين المريد ونفسه، فالنفس تزين له مسألة من المسائل على أنها نعمة من الله استحقها لجهد بذله أو طاعة قام بها، أو مكانةٍ خاصة له عند الله أو جاه اكتسبه لديه أو غير ذلك من الأمور، فإذا اقتنع بكلامها، وركن إلى ما أدخلت عليه ولبّست به أموره لديه، سقط في حبائلها، ونالت منه بغيتها وشهوتها من التمتع بشعور العزة والرفعة والجاه، فانقطع به طريقه إلى الله، ووكله الله إلى نفسه فهلك معها.

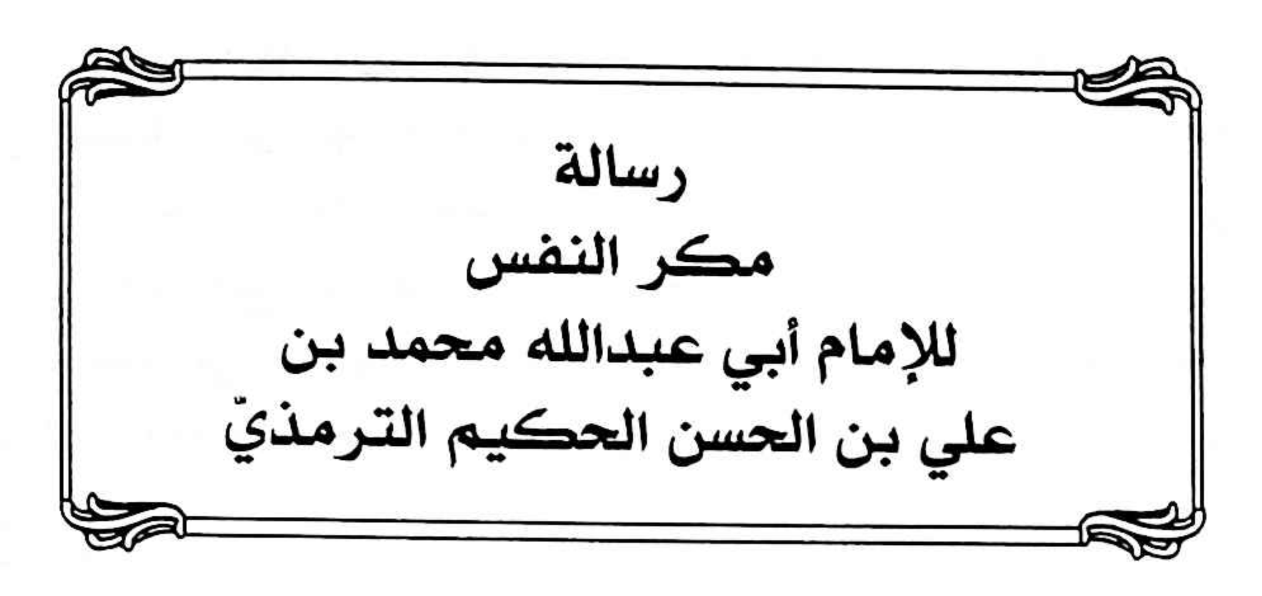
ويتدرج الحكيم في هذه الرسالة موضحاً للمريد كيف يتخلص من حيلها حيلة حيلة، وذلك بالصبر والثبات على الطريق ومراقبة أحوال النفس في مكرها حتى لا تخدعه عن وجهته، فيقابل كل حيلة من حيلها بالرد الصحيح الذي يفحمها، ويلزمها، ويوقفها عند حدها، حتى تيأس منه فتستسلم لربها.

وهذه الرسالة القصيرة توضح لنا دقة الحكيم الترمذي في معرفة مسارب النفس البشرية، ومسالكها التي تسلكها لكي تفسد على المريد وقته وحاله، وتحبط جهده وعمله، وتستحوذ بحيلتها ودهائها على كل ما يحصله من نعم روحية، لكي تحولها إلى مغانمَ دنيوية، ولذائذَ حسية، ولذلك يحذّر المريد من حيلها، فيذكرها له بهذا الإجمال، ويضرب الأمثلة التي تصلح للمريد في كل مرحلة من مراحل سلوكه وسيره في جهاد نفسه.



---

(١) قلت: أي مكائد النفس.



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، وليُّ الحمد وأهله، أما بعد:

مكر النفس من حدة الهوى الذي يصير إلى النفس من معدنه، فتلتقط لطائف الشهوات، وعذوبة الأفراح، وبهاء الزينة، فتحمله إلى الصدر حتى يشبّه على عين الفؤاد، ويطفىء نور الكياسة، ويخمد وقود حياتها، فيكون كالحي المَسْبُوْت[1].

فمن شأن القائم ببرهان ذلك بالعناية والبال العظيم أن يراقب أحوال النفس في هذا المكر الذي يعامل به فيلقى كل حال وكل شأن بمثلها من الكياسة، حتى يردعها عن وجهتها التي قصدت إليها، فترجع

(١) سبت سبتاً: نام وسكن، والمعنى أن الإنسان يكون حيًا، لكنه في هذه الحالة كالنائم الذي لا يرى ولا يميز الأمور.

النفس بمكرها منقمعة خاسئة حَسِرة[1] بما لقيت من زجْرة الكياسة.

فإذا أتته من قِبَل النعمة، تريه سبوغها[2] عليه، وأن الله قد فعل ذلك به، وخار له فيه، لقيها بالكياسة فيقول:

سؤاله[3] إياي عنها أخطر على لذة النعمة ولذة سبوغها، وذلك أنه يسألني: من أين؟ وإلى أين؟ ولماذا؟ ومن أين جئت به؟ أمن السبل التي شرعت لك فأذنت لك فيها؟ وهي ست سبل: التجارة[4]، والهبة، والهدية، والميراث، والوصية، والغنيمة، وللفقير زيادة سبيلين وهي: الصدقة، واللُّقَطة[5]، فمن هذه السبل تناولتها أم من غيرها؟ وإلى أين صرفتها؟ أفي حقوقي؟ أم في ما دعاك إليه الهوى والنفس؟ والتي صرفتها في حقوقي ماذا أردت بها؟ ابتغاء وجه نفسك التي دعتك إليها؟ فهول سؤاله، وتحيري في الجواب كدّر علي لذة هذه النعمة، ولذة سبوغها.

وإذا أتته من قبل المعونة، أن سعة الدنيا معونة على الدين، لقيها بالكياسة فيقول:

ذاك حجج الله عليك، أن تتناولها على ملاحظة المعونة على الدين، ثم لا تقوم لإقامة الدين.

فالمستقيم ـ مع استقامته ـ ترجف قدماه الآن بمحاسبة الاستقامة

---

(١) حسر فلان: أسف، فهو حسران، وهي حسرى.

(٢) سبغ الشيء سبوغاً: تم وطال واتسع.

(٣) قلت أي: سؤال الله تبارك وتعالى.

(٤) لعله يقصد بلفظ التجارة جميع أنواع العقود المشروعة في المعاملات، وذلك بشيء من التوسُّع حتى تدخل سبل مشروعة أخرى لم يذكرها في هذه السبل الست.

(٥) كأنه يرى أن الفقر شرط من شروط التملك في اللقطة، بعد استيفاء الشروط الأخرى الخاصة بالتعريف بها.

غداً فيقال له: تناولتها للمعونة، فتضاعفت عليك المؤونة، وهي مؤونة اقتضاء الاستقامة.

ومَن لم يبلغ هذه المنزلة، أو يَرَ ما ذكرنا من السؤال، لقيها بالموت المزيل لهذه النعمة، المحول عنه إلى مالك غيره.

وإذا أتته من قبل طيب النفس بالأحوال الملائمة له، لقيها بأثقال الشكر المقرونة بكل حال تطيب بها نفسه، فمن أثقال الشكر الحياء من الله يوم يلقاه، وقد قدّم الجفوة.

ومَن لم يبلغ هذه المنزلة لقيها بفجائع الدنيا التي لا ينفك منها ومن تقلبها.

وإذا أتته من قبل الجاه والقدر والمنزلة، لقيها بأن الجاه جاه الآخرة، والقدرة والمنزلة حيث ينزلهم غداً في تلك الغَرصة[1] من الأحوال.

وإذا أتته من قبل النفس ودوام العافية، لقيها بأحداث الزمان، وتحول العافية، حتى يلجأ إلى الله، ولا يطمئن إلى ما دونه ولا يركن.

وإذا أتته من قِبَل دولة دُنيائية، لقيها بأن الدولة دُوَل[2] بين الخلق وإرث متوارث.

وإذا تمت هذه الدولة فكأن لم تكن، فوليّ الدولة يداولها بين عباده[3].

---

(١) العَرَصة: البقعة الواسعة التي لا بناء فيها، والمقصود بها هنا: ساحة العرض والحساب يوم القيامة.

(٢) الدولة: السلطان والغلبة، ودُول: متداولة، تارة لهؤلاء، وتارة لغيرهم.

(٣) متابعة لقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ آل عمران: ١٤٠.

وإذا أتته من قبل جَزي الأمور على مَحابّة، لقيها بأن المنهوم مستبد.

فإن كانت هذه الأمور إنما تجري على محابك لأنك أرضيت خالقك فأرضاك، بأن أجرى الأمور على محباتك، فطوباك!

وإن كنت لم ترضِ خالقك بعد، فأجرى الأمور على محابّك امتحاناً لينظر: أتشكر أم تكفر، فطالع أمرك، وشارف أحوالك، فإن وجدت نفسك شاكرة، فطوباك أيضاً.

وعلامة الشكر أن تتشمر لإرضائه.

وعلامة التشمُّر أن تقصد وتجتهد لصحة الباطن، فإن أعمال الظاهر كثيرة، وصحة الباطن عزيزة.

وإن لم تجد نفسك شاكرة، وأجرى الأمور على محابك، فأنت على شرف الهلاك، لأنك تجري في مكر الله وكيده المتين.

وإذا أتته من قبل يسر الطاعة، والعصمة من المعاصي، لقيها بخوف الزوال، لقلة الشكر، لأن أثقال شكر يسر الطاعة، وشكر العصمة أثقل من شكر نعم الدنيا.

وإذا أتته من قبل كثرة أعمال البر، وتجنُّب أعمال البغي في الظاهر، لقيها بأن الأمر ليس بكثرة الأعمال، وتجنُّب السوء بل الشأن في صحة القلب.

فكم من قليل العمل صحيح القلب فاز وشرف في الآخرة، وكم من كثير العمل سقيم القلب خاب وغبن[1]. وذلك لأن صحيح القلب

---

(١) غبنه في البيع غبناً: غلبه ونقصه.

قلبه مع الله، فإن أخطأ أو زلَّ فبالمقدور الذي خرج من المسطور، ثم خلاصه من ذلك توبته، وتوبته أن يزايله بجوارحه.

وصاحب كثرة العمل مع سقم القلب، قلبه ساهٍ عن الله لاه، راغب فيما زهّد الله، مقبل على نفسه، وهو صادق في عبادته واستقامته في الظاهر، فأما في الباطن فمحب للدنيا، محب للرياسة، محب للثناء والمحمدة، شهواته متلظية[1]، وهواه منتصب، مستبد معجَب برأيه.

وهو في ذلك يتقي المحارم في الظاهر، ويكثر العبادة من الصوم والصلاة والصدقة والحج والجهاد وأعمال البر، فهو إذا جرى عليه المقدور من الذنوب يحتاج إلى مدة حتى يتوب، وإنه ليتوب وشهوة تلك المعصية وحلاوتها باقية في صدره مترددة، فذاك قلب قد سقم بحلاوة المعصية، والإيمان حلو نزه، والمعصية حلاوتها دنسة نجسة، فلذلك سقم القلب فسقم الإيمان، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «**يا سلمان قل اللهم إني أسألك صحة في إيمان وإيماناً في حسن خلق ونجاحاً يتبعه فلاح ومغفرة منك ورحمة ورضواناً**»[2].

وإذا أتته من قبل غزارة العلم، وكياسة العمل، لقيها بتأكد الحجة؛ فكلما ازداد علماً كان العذر أقل، والحجة أوكد، وما أُعطى عبد علماً إلا وهو مسؤول عنه عبادة وعملاً.

وإذا أتته من قبل صدق الأعمال، أنك صادق، متيقناً بالقبول، فيقول: لا أدري أتقبل مني أم لا؛ لأن الصدق له ظاهر وباطن، فظاهر الصدق أنك تبتدىء في العمل لابتغاء مرضاته، ثم باطنه الفرح به، فإن

---

(١) متلظية: ملتهبة.

(٢) رواه الحاكم في مستدركه عن أبي هريرة في باب الدعاء الذي علم النبي ﷺ سلمان الخير وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، فصححه على شرط الشيخين، وسكت عنه الذهبي: ج١ ص٥٢٣.

كان الفرح بالعمل، دون رؤية المنّة، أداك إلى الفخر والكبر والاتكال على العمل، وإن كان الفرح بالعمل، مع رؤية المنّة، أداك إلى اقتضاء الثواب، والاستكثار والتبجُّح بنفسك[1].

وإن كان الفرح بالمنّة خالصاً دون العمل، أداك إلى الخوف، وهو خوف الزوال.

وإن كان الفرح بالله في المنة، كان فرحك خالصاً صافياً، فأداك إلى خوف الله محضاً، وهو خوف الجلال والعظمة.

وإذا أتته من قِبَل العطايا لقيها بالعزم، وذلك أن العطاء هو نفقة، وإذا أسرف في النفقة لحقه الغُرْم، وإذا أصابه الغرم حبس، فلا يزال محبوساً حتى يؤدي الغرم؛ وذلك أن العبد لما دُعي فأجاب، سار إلى الله بالقلب صدقاً في الأعمال حتى إذا فُتح له رُمي إليه بالعطاء، وهو نور التواسي، ليكون ذلك النور نفقة القلب والنفس، ليسير إليه بلذة ذلك النور، ليصلا إلى منازل القربة، فاستقامته في هذا الطريق أن يسير سيراً لا يلتفت إلى شيء سواه، فكلما عمل عملاً من البر سوى الفرائض فالتفت إليه طاب نفساً بذاك، وثقل عن السير لأنه ركن إليه واطمأن القلب عن الله إلى ذلك العمل فهذا عيب ووقوف عن السير، فإذا وقف عن السير على عمل من أعمال البر، فذلك العمل ممزوج بالهوى، فصار سيره مع الهوى، إنما دُعي إلى منازل القربة ليكون والهاً بالله، ويفارق وَلَهَ النفس بالهوى.

فكيف يجوز له السير مع عمل قد شابه الهوى؟! فلذلك صار بالعمل واقفاً عن السير.

ويقال: إنه رمى إليك العطاء، وهو ذلك النور، وليقوي قلبك،

---

(١) قلت: التبجُّح: هو السرور وإظهار الفرح.

ولتخفّ نفسك عن التثاقل والتلكؤ؛ لأن النفس إنما تتلكأ وتتثاقل بلذاتها وشهواتها و[الله][1] إنما أعطى ليقوي القلب، ويتربّى توحيده في قلبه، ولتجد النفس لذة العطاء، فتخف في السير، وترتحل عن لذاتها النفسية الدُّنيائية التي مركبها الهوى.

فإذا ذهب يستعمل حلاوة ذلك العطاء في أعمال البر أليس يكون قد شغل قلبه بذلك العمل!؟ وإذا جاءت النفس بحلاوة شهواتها النفسية، وبهواها المُدْني، فما زجت حلاوة العطاء، أفليس يكون قد ترك السير؟!

فبقدر ما يقف عن السير اشتغالاً بتلذُّذ تلك الحلاوة التي مازجتها حلاوة هوى النفس يُغرم ويُحبس، وغرمه أن يُلزم جُعْلاً، وحبسه أن يُحبس مدد العطاء عنه، فيبقى منكسراً قد فقد اللذة والحلاوة، وبقي في أوحال النفس ودواهيها، وعاد إلى رِقّ النفس، وجاء التزيُّن والتصنُّع والمداهنة وأخلاق النفس، وقويت الشهوات.

وإن رُحم غَرِم جُعْلاً، وجُعله أن يلزمه حقوق كثيرة، وأعمال البر ثقيلة يحتاج إلى أن يقوم بها على الجهد حتى يقضي ذلك الجُعْل الذي أُلزم.

ومثل ذلك كمثل رجل دعاه أمير المؤمنين من بين الرعية ليتخذه وليًا وخاصة، ويكونَ أميناً من أمنائه، وأُمر أن يُعطى نفقة الطريق، فسار إليه، فلما بلغ نيسابور[2] أُعطي نفقة أسخى من الأولى، فتجمّل بزينة أَهْيأ من الأولى ثم لما بلغ الريّ[3] أُعطي أسخى منها ليزيد في

(١) قلت: في الأصل طمس، وإنما حاولت إكمال المعنى بهذه الزيادة، والله أعلم.

(٢) (٣) نيسابور مدينة عظيمة بينها وبين مرو ثلاثون فرسخاً، فتحها المسلمون في أيام الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه، وقد خرج منها جماعة من العلماء، وكانت الريّ مدينة مشهورة كثيرة الخيرات.

التزيُّن والتأهُّب، ثم لما بلغ المعسكر أُعطي نفقة أسخى وأوسع، ليتزين للقواد بالباب، فما زال بالباب مقيماً تجري عليه النفقة بأضعاف ما كان في الطريق، لأن تلك نفقات أمير المؤمنين يبعثها إليه حتى يتزيّن له، حتى إذا كان اليوم الذي أذن له في لقائه دخل عليه فرضيه، وقبله، وولاه، وخلع عليه خلع الولاية، وائتمنه على الخزائن.

فلو وقف هذا المدعو على نزهة في هذا الطريق، فقال: أبني ههنا قصراً لأمير المؤمنين، وأتقرّب به إليه، يُعدّ ذلك بلاهة وغتامة[1] وانحطت منزلته عنده، وقال: إنما دعوته لأحبوه وأشرفه، وأوليه أعمالي، حتى يعمر بلادي، ويهيىء أمور رعيتي، حتى يُسكن عني أصوات الشكاة الغتمة[2] فوقف عن السير متشاغلاً بما لا حاجة بي إليه.

فأمر بأن يغرم ويُلزم جُعْلاً إن لم يمضِ، فبقي المغرور مع أثقال الغُرم والجعل.

فإن تشمر للجُعْل وقضاء الغرم، واستغاث بأمير المؤمنين كان كائناً أن يرحم، فيقضي بعضاً ويحط عنه بعض، ويسامح حتى يصل إليه، فإذا وصل إليه استحيا من الإبطاء.

وإن لم يتشمّر لقضاء العزم والخروج من الجعل، رُدّ من الطريق إلى محله الذي منه خرج، وأغلق الباب دونه، وقيل له: كن كسائر الرعية عملاً، تؤدي الخراج الموظف عليك، فإنك لم

---

(١) (٢) يستعمل الحكيم الترمذي هذا اللفظ بمعنى الغباء والثقل، والغُتمة بضم الغين عجمة في المنطق، فهو رجل أَغْتم وغتمي وهي امرأة غتماء، وهم قوم غُتم وأغتام.

تصلح للولاية والسياسة، فلا عهد لك، ولا حكماً ينفذ، إنما أنت أجير تعمل، فإن وفيت العمل متقناً محكماً خالصاً فلك أجرك، وإن لم توفِ بطل أجرك، وحوسبت على النعمة وهي نفقات العمر.

فكذلك هذا الذي فُتح له فسار وأُعطي نوراً، فكلما قطع مسافة من هذا أُعطي نوراً زائداً، فلا يزال يقطع المسافات بهذه الأنوار حتى يصل إلى منازل القربة، ثم يتخطى المنازل بالسير، حتى ينتهي إلى السدرة المنتهى، فيلزم الباب حتى يتهيأ ويتزين للملك العزيز ويتأدّب.

فتهيؤه بالصفاء، وتزينه بالطهارة، وتأدبه بالسكينة والوقار.

فإذا أذن له في التقدم إلى مقام العرض، تقدم في زينته وبهائه، وسكينته ووقاره، وآدابه وكياسته في المعاملة، عارياً من الهوى والشهوات، فرضي به وقَبِله، وولاه، وخلع عليه من أنواره وأعطاه سلطاناً من سلطانه، وأنفذ حكمه، فهم الذين ينجع في القلوب كلامهم وسياستهم، وتنفذ أحكامهم في ملكه.

فهذا ولي الله، به يعمر البلاد، ويعز الدين، وينصر الحق، وهو بعين الله يرعاه ويؤيده.

فإن أردت أن أشير لك إلى مَن كان من السلف بهذه المنزلة، أشرت لك إلى أبي بكر وعمر وعلي وعثمان، ثم في التابعين نفر منهم، ثم لا يزال يخلفهم من بعدهم طبقة على إثر أخرى في هذه الأمة، كلهم صدِّيقون، حكماء، علماء الله وأمناؤه، وخلفاء الأرض، بهم تقوم الأرض.

٧ ـ الأقوال القويمة
في حُكم النقل من الكتب القديمة
لأبي الحسن البقاعي

تحقيق

الدكتور محمد مرسي الخولي[(١)(٢)]

تمهيد:

البِقاعي هو إبراهيم بن عمر بن حسن الرُبَاط البِقاعي، أبو الحسن برهان الدين، أصله من البِقاع في لبنان، وسكن دمشق ورحل إلى بيت المقدس والقاهرة، وكان مؤرخاً أديباً، له كثير من المؤلفات في فنون متعددة، ولكن معظمها ما يزال مخطوطاً؛ مع أن الكثير منها جدير بالتحقيق والنشر، وقد توفي البِقاعي عام ٨٨٥هـ بدمشق، رحمه الله.

وهذا الكتاب الصغير الذي بين أيدينا «الأقوال القويمة في حكم النقل من الكتب القديمة»، ألّفه البِقاعي بعد أن فرغ من تأليف تفسيره

---

(١) قلت: هو أديب محقق. تعلم بالأزهر وتخرج في قسم اللغة العربية سنة ١٩٥٨. نال الدكتوراه سنة ١٩٧٥. أشرف على تحرير مجلة معهد المخطوطات ونشرة أخبار التراث العربي. حقق عدة كتب. توفي سنة ١٤٠٢ رحمه الله تعالى. انظر «ذيل الأعلام»: ٢٠١.

(٢) قلت: انظر «مجلة معهد المخطوطات العربية»: المجلد السادس والعشرين: الجزء الثاني: ٣٧ ـ ٩٦.

الكبير الذي بذل فيه جهده وأفرغ جعبته مبيناً فيه آراء المفسرين وآراءه هو التي استنبطها ليحظى الكتاب بالتقدير لدى جمهرة العلماء والمتعلمين[1].

والواقع أن الكتاب قد حَظِي فعلاً بما كان يريده له مؤلفه من التقدير، غير أنه لم يَعْدِم بالرغم من ذلك مَن يتصدّى له من العلماء بالنقد، وبخاصة بدر الدين بن القطان الذي تولى كِبْر هذه الحملة على حد قول المؤلف.

أما الحجة التي استند إليها في التقليل من شأن الكتاب والحط منه، فهي أن مؤلفه استشهد كثيراً بالتوراة والإنجيل والزبور، مع أن العلماء قد أجمعوا على حرمة النقل منها كما زعم.

وهنا نرى البقاعي ينبري لخصمه هذا ويهاجمه مهاجمة عنيفة فيذكره بأنه إذا كان مستحرجاً هكذا من النقل عن التوراة والإنجيل فلماذا كان أكثر عُشَرائه من النصارى والقبط، حتى لقد شُهِر بأنه يشاركهم في بعض عوائدهم، ومن ذلك أنه رفع الماء في ليلة يرفعونه فيها لما يرفعونه له، فلامه بعض المسلمين، فقال: إنه لا يضرنا التبرُّك بأمر قالوا إن عيسى عليه السلام فعله.

ثم يأتي المؤلف بعد ذلك إلى القضية الجوهرية وهي قضية النقل من الكتب القديمة، فيذكر مناظرة وقعت بينه وبين ابن القطان بمحضر من العلامة الشيخ محيي الدين الكافيجي الحنفي[2]، وكان أستاذاً له كما كان أستاذاً لابن القطان، في الوقت الذي لم يكن يرى فيه رأيه في

---

(١) قلت: اسم هذا الكتاب «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» وهو مطبوع ومتداول.

(٢) هو محمد بن سليمان بن سعد بن مسعود الرومي الحنفي، محيي الدين أبو عبدالله الكافيجي، وهي نسبة إلى كافية ابن الحاجب في النحو، الذي كان يكثر الاشتغال به. انتهت إليه رياسة الحنفية في مصر، وله تصانيف. انظر «الأعلام»: ٢٢/٧، «الضوء اللامع»: ٢٥٩/٧.

معارضته للبِقاعي في مسألة النقل من الكتب القديمة، وانتهى هذا المجلس بالمصالحة بين البِقاعي وابن القطان، غير أن الخصومة بينهما لم تنقطع، بل أخذت مظهراً آخر تمثّل في أن أصدقاء كل منهما قد انبرى للهجوم على الآخر، فقد ألّف أصحاب البقاعي كتباً امتلأت بالهزء والسخرية، واتخذت شكل الأقاصيص حتى يتحدث بها السمّار في الحاضرة والأسفار... إلخ، كذلك فقد أقام ابن القطان شخصاً ينافح عنه سماه البِقاعي «ابن البارد»، ووصفه بأنه عامي لا بصر له بعلم من العلوم، ولا معرفة برسم من الرسوم.

على أن الأمر حين طال بينهما رأى البقاعي أن ينهيه بوضع كتاب يبحث فيه أمر النقل من الكتب القديمة بحثاً موضوعيًا بعيداً عن المهاترة والسخرية مع ذكر الدوافع التي أدت إلى ذلك، فيقول: فلما طال الأمر أحببت أن أذكر ما يشهد بحسن صنيعي في ردي على الأخصام في بطلان أديانهم، واستشهادي على صحة دين الإسلام بما يعتقدونه من كتبهم، فيكون الحجة عليهم به في هذا الكتاب، وكنت كتبته على وجه دون هذا فكتب عليه صاحبي العلامة نور الدين علي بن محمد المحلي الشافعي[1] حواشي نافعة مهمة، فأحببت أن أذكرها في هذا التصنيف معزوة إليه، فستراها في مواضعها إن شاء الله تعالى. ورتبته على مقدمة وثمانية فصول وخاتمة:

المقدمة: في بيان أن مَن شنع عليَّ إنما تشنيعه لحظ نفسي وغرض شيطاني، والقول في حسن صنيعي في الكتاب وما فيه من حكمة وصواب.

---

(١) علي بن محمد بن عبدالله البهرمسي، المَحَلّي الشافعي (نور الدين، أبو محمد)، ولد بالبهرمس من المحلة وتوفي بها سنة ٨٤١هـ، وله آثار. انظر «معجم المؤلفين»: ٢١١/٧، و«الضوء اللامع»: ٣١٤/٥.

الفصل الأول: في كلام مشايخ العصر في كتابي تقريظاً وإفتاءً.

الفصل الثاني: في حكم النقل من الكتب القديمة لقصد التأييد لدين الإسلام.

الفصل الثالث: في أدلة ذلك.

الفصل الرابع: في شواهده ومؤيداته.

الفصل الخامس: في كلام الأئمة على الأدلة وما يتراءى أنه يخالفها.

الفصل السادس: في ذكر بعض من نقل منها من الأئمة وأعيان الأمة، وذكر بعض ما نقلوه.

الفصل السابع: في أنها هل هي مبدلة وما المبدل منها.

الفصل الثامن: في أن حكم النقل عن بني إسرائيل الجواز وإن لم يثبت ذلك المنقول، وكذا ما نقل عن غيرهم من الكفار، لأن المقصود به الاستئناس بخلاف ما نستدل به في شرعنا فإنه العمدة في الاحتجاج للدين فلا بد من ثبوته.

الخاتمة: فيما يُعرّف بجلالة كتابي وذلك أمران:

الأول: السلامة من الأمور الشنيعة التي وقع فيها غيري من المفسرين ونزهت كتابي عنها.

الثاني: في ذكر شيء مما يدل على تحلِّيه بالكمال، وهو قسمان: **الأول:** في تفسير آيات حار في توجيهها العلماء، **والثاني:** إيراد تفسير سورة الكوثر لتدل على بقيته.

وسوف نقوم هنا بنشر الفصول من الثاني إلى الثامن[1]؛ لأنها جوهر الموضوع الذي نتحدث عنه هنا، وهو حكم النقل من الكتب القديمة، ولا بد أن نشير قبل ذلك إلى ما ذكره العلامة محيي الدين الكافيجي الحنفي في هذا الصدد فإنه ذو صلة وثيقة بموضوعنا، وقد أورد رأيه هذا في المقدمة التي سرد فيها المؤلف تقاريظ العلماء على مؤلفه، وهذا هو ما يقوله الكافيجي.

فتوى الإمام الكافيجي

إن نقل شيء من التوراة والإنجيل وغيرهما يجوز من التأليفات في هذا الزمان لغرض من الأغراض المعتبَرة كالاعتبار والاتعاظ، وإن لم يجز الاستدلال بها على الأحكام والأصول، على ما نصّ به العلماء في الكتب ونظير ذلك خبر المستور الذي لم يظهر قَبوله ولا رده، فيجوز العمل به وإن لم يجب، وقريب من هذا قول الحنفيين: شريعة مَن قبلنا هي شريعة ابتداء إذا حكيت لنا بلا إنكار عليها، قال الله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾[2] الآية.

والحاصل أن نقل سِفر من أسفار التوراة والإنجيل وغيرهما على ما ذكرنا جائز شرعاً لا شبهة قادحة فيه، وإن كانت متقدمة في الأوهام، ومعلوم عندك ألا اعتبار لها بالإجماع على ما مرّ في أصول الفقه، فكيف وقد روي في الصحيحين من عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**بلِّغوا عني ولو آية، وحدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج**»[3].

---

(١) قلت: لعل ذلك سبقُ قلم؛ فإني لم أرَ إلا الفصل الثاني إلى السادس، والله أعلم.

(٢) المائدة: ٤٥.

(٣) قلت: أخرجه الإمام البخاري في صحيحه: كتاب أحاديث الأنبياء: باب ما ذكر عن بني إسرائيل.

وقال أهل التحقيق من المحدثين في بيان هذا الحديث: المراد منه هاهنا هو التحديث عنهم بالقصص والحكايات؛ لأن في ذلك عبرة وعظة لأولي الألباب.

وأما النهي الوارد عن كتابة التوراة والإنجيل ففيما عدا القصص والأخبار، فحصل الجمع والتوفيق بينهما على ما تسمع وترى.

هذا وقيل كان النهي عنها قبل اشتهار شأن القرآن حذراً من الالتباس والاشتباه، ولأجل هذا نُهي عن كتابة الحديث قبل اشتهاره، فلما اشتهر شأنه أيَّ اشتهار رُخِّص فيها، وكذا الأمر الذي نحن بصدده.

وقال البيضاوي[1] في تفسير قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا﴾[2]: مثَّل في الإنجيل غلّ الصدر بالنخالة، والقلوبَ القاسية بالحصاة، ومخاطبةَ السفهاء بإثارة الزنابير، ومثلُ هذا وقع كثيراً في سائر كتب التفاسير كالكشاف للزمخشري، والتفسير الكبير للإمام الرازي، وفي كتب الحديث كصحيح البخاري وغيره أيضاً، وفي كتب الكلام كالصحائف[3] والمواقف[4] وغيرهما، وفي كتب أصول الفقه كالبَزْدَوي[5] وغيره أيضاً، يشهد بذلك كله مَن يطالعها ويتأمل فيها،

---

(1) قلت: هو عبدالله بن عمر، الشيخ الإمام العالم ناصر الدين الشيرازي البيضاوي، صاحب التصانيف البديعة المشهورة. توفي سنة ٦٨٥ بتبريز، ودفن بها. انظر «الوافي بالوفيات»: ٣٧٩/١٧.

(2) البقرة: ٢٦.

(3) واسمه الصحائف في الكلام، وهو للسمرقندي شمس الدين بن محمد «كشف الظنون»: ١٠٧٥/٢.

(4) المواقف في علم الكلام، للعلامة عضد الدين عبدالرحمٰن بن أحمد الإيجي، وهو مشهور، طبع مراراً.

(5) قلت: هو كتاب «كنز الوصول إلى معرفة الأصول» المشهور بأصول البزدوي، تأليف العلامة أبي الحسن علي بن محمد بن الحسين البزدوي الملقب بفخر الإسلام، وقد شرحه علاء الدين البخاري في كتابه «كشف الأسرار»، وهو مطبوع متداول.

ولقد ذكر في علم التاريخ أن القصص والأخبار العجيبة الغريبة كقصة عوج بن عنق[1] وغيرها يجوز كتابتها وحكايتها، وإن كانت غير معلومة الحال لتضمنها عبرة وعظة ومصالح، لقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[2] ولمّا اشتهر عند الناس أن ما لا يدرك كله لا يترك كله، فإن العلم بالبعض خير من الجهل بالكل، قال الله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[3] ومن هنا نشأ قول مَن قال:

فكل إنسان سوى ما استدركوا[4] يـؤخـذ مـن كـلامـه ويـتـرك

وأمر آخر: إن نقل القصص والأخبار من التوراة وغيرها قد شاع بين الناس شيوعاً لا خفاء فيه، فقد حلّ محل الإجماع السكوتي، ولهذا وقع كثيراً في كتب السلف بما لا إنكار عليه، كما وقع في هذا العصر في هذا التأليف المسمى بـ«نظم الدرر من تناسب الآي والسور» على ما حررنا فيما ما مرّ.

فإن قلت: فكيف تقبل هذه الدعوى منك هاهنا، وقد ذكر في بعض كتب علم الكلام أن الكتب السماوية قد نسخت تلاوتها وكتابتها، قلت: لا استبعاد هاهنا على ما ذكرنا فيما قبل من التفصيل والتحرير، فيُحمل ما ذكرنا هاهنا على نسخ كتابة التوراة الحالية عن الدلالة عليها، فحصل الجمع بينهما على ما ترى، وأنت تعلم أن العمدة والمدار في أمثال هذا إنما هو قول الفقهاء المحققين لأقوال المتكلمين، كما تقرر أن صاحب البيت أدرى بما فيه، كما تعلم أن نسخ الوجوب لا يستلزم

---

(١) قلت: هو شخصية خرافية بولغ في ذكر عِظَم قامته حتى قيل إنه كان يأخذ الحوت من البحر فيشويه في الشمس!!!

(٢) يوسف: ١١١.

(٣) طه: ١١٤.

(٤) أي النبي ﷺ.

نسخ الجواز كصوم عاشوراء، فإنه جائز شرعاً وإن نسخ وجوبه، وتعلم أيضاً أن المثبت أولى من النافي. . . إلخ.

هذا ما ذكره الكافيجي بصدد هذه المسألة ثم أخذ يعدد محاسن كتاب البِقاعي بما هو خارج عن موضوعنا. ولنأخذ الآن في سرد الفصول التي سوف نوردها هنا.



في حكم النقل من الكتب القديمة لتأييد دين الإسلام وإبطال مذاهب أهل الضلال

الاستدلال على أهل الكتاب بما في التوراة والإنجيل والزبور في صحة دين الإسلام والرد عليهم في اعتقاداتهم الباطلة سُنة جليلة، أمر الله تعالى بها، فقال تعالى لأشرف خلقه ﷺ: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[1]، وفعلها رسول الله ﷺ امتثالاً لهذا الأمر الشريف، فأتاهم في بيت مِدْراسهم[2] وسألهم عن شريعة الرجم للزاني، فأنكروا أن يكون في توراتهم، فأمرهم بالإتيان بها فأتوا بها، فنزع وسادة كانت تحته ووضعها عليها، وقال: «آمنت بك وبمَن أنزلك»، مع أنه يعلم أن فيها المبدلَ إذ ذاك، لشهادة الله سبحانه في غير آية مما أنزل عليه أنهم حرَّفوا وكتبوا بأيديهم ما ليس من عند الله، وقالوا: إنه من عند الله، وقال رسول الله ﷺ: «**إيتوني بأعلمكم**» فأتوه به فأمره بقراءتها، فشرع يقرأ ما قبل آية الرجم وما بعدها، فأمره

---

(١) آل عمران: ٩٣.

(٢) المِدْراس بيت الدروس الذي يتلون فيه كتبهم.

عبدالله بن سلام[1] رضي الله عنه برفع يده فإذا آية الرجم فحينئذ لم يسعهم إلا الاعتراف فافتُضِحوا حينئذ، وعلم ما هم عليه من الضلال علماً جليًا لكل واحد.

وعلم من هذا أن الأحسن في باب النظر أن يُرد على الإنسان بما يعتقد صحته، وأما مَن كان يتكلم بهواه فليس له دواء إلا بالعلم، إذ أن من المقرر عند حملة الشريعة من أهل الفقه والأصول أنه إنما يسوغ الرد على المخالف بالمتفق عليه مما يكون مكترثاً له، أو يقوم الدليل العقلي عليه.



(١) قلت: هو عبدالله بن سلام الإسرائيلي، أبو يوسف، حليف الخزرج. صحابي مشهور، له أحاديث وفضل، توفي بالمدينة سنة ٤٣ رضي الله عنه، انظر «التقريب»: ٣٠٧.

في الدلائل الدالة على أن النقل من الكتب القديمة لذلك المقصد سنة عظيمة، وطريقة مستقيمة

ولا أشك في أنه ليس أحد من أهل الزمان يرى ذلك إلا بادر إلى إنكاره والاستهانة به واستصغاره لكونه لم يرَ لي سلفاً في التصريح به من أئمة الإسلام، وإن كان مأخوذاً من كلامهم، وإنكارُه ما لم يُنظر أوله وآخره، ويعرف مخالفته للكتاب والسنة وأقوال الأئمة، غشٌّ للدين وأهله، وظلم عظيم لقائله، يتعلّق لأجله بمَن ظلمه يوم الجمع الأعظم ليُلقي أحدهما صاحبه في نار جهنم، بل الواجب على كل مَن وهبه الله علماً ورآه أن ينعم التأمُّل فيه وفي أدلته، فإن رآه قويماً وجَّه عليه أتباعه، وعدّه فخراً لصاحبه، عملاً بما أرشد إليه ما قال النووي في ترجمة الإمام الشافعي من «تهذيب الأسماء واللغات»: قال محمد، يعني ابن عبدالحكم[1]: ليس فلان عندنا بفقيه، لأنه يجمع أقوال الناس ويختار بعضها، قيل: فمَن الفقيه؟ قال: الذي يستنبط أصلاً من كتاب

---

(١) قلت: هو الإمام محمد بن عبدالله بن عبدالحكم المصري الشافعي. لزم الشافعي مدة وتفقه به، وانتهت إليه رياسة العلم بمصر. توفي سنة ٢٦٨. انظر «الوافي بالوفيات»: ٣٣٨/٣ ـ ٣٣٩.

أو سنّة لم يسبق إليه، ثم يشعب من ذلك الأصل مائة شعبة، قيل: فمَن يقوى على هذا؟ قال: محمد بن إدريس[1]، إذا تقرّر هذا، فالدليل على ما ادعيته الكتابُ والسنة وأقوال الأئمة، قال الله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[2].

وقال الشيخان البخاري في مواضع، ومسلم، وأبو داود وهذا لفظه والدارمي، والترمذي في الحدود، والنسائي في الرجم، عن ابن عمر رضي الله عنهما، أنه قال: إن اليهود جاؤوا إلى النبيِّ ﷺ فذكروا أن رجلاً منهم وامرأة زنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «**ما تجدون في التوراة في شأن الزنا؟**» فقالوا: نفضحهم ويُجلدون، وفي رواية فقال: «**ألا تجدون في التوراة الرجم؟**» فقالوا: لا نجد فيها شيئاً، فقال عبدالله بن سلام رضي الله عنه: كذبتم، فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين، فأتوا بالتوراة فنشروها فجعل أحدهم ـ وفي رواية ـ مدراسها الذي يدرسها منهم يده على آية الرجم، فجعل يقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له عبدالله بن سلام: ارفع يدك، فرفعها، فقال: هذه، فإذا فيها آية الرجم، فقالوا: صدق يا محمد فيها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرُجما.

ولمسلم وأبي داود، وهذا لفظه، والنسائي وابن ماجة، عن البراء بن عازب رضي الله عنهما[3] قال: مرّ رسول الله ﷺ بيهودي محمم[4]، فدعاهم فقال: «**هكذا تجدون حد الزاني؟**» فقالوا: نعم، فدعا رجلاً من علمائهم، فقال: «**نشدتك بالله الذي أنزل التوراة على موسى، أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟**» فقال: اللهم لا، ولولا

---

(١) قلت: هو الشافعي.
(٢) سورة آل عمران: آية ٩٣.
(٣) قلت: هو البراء بن عازب بن الحارث الأنصاري الأوسي، صحابي ابن صحابي، نزل الكوفة، استُصغر يوم أحد، توفي سنة ٧٢ رضي الله عنه. انظر «التقريب»: ١٢١.
(٤) محمَّم أي مسود الوجه، من الحممة: الفحمة.

أنك نشدتني بهذا لم أخبرك، نجد حد الزاني في كتابنا الرجم، ولكنه كثر في أشرافنا فكنا إذا أخذنا الرجل الشريف تركناه، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد، فقلنا: تعالوا، فنجتمع على شيء نقيمه على الشريف والوضيع، فاجتمعنا على التحميم والجلد، وتركنا الرجم، فقال رسول الله ﷺ: **«اللهم إني أول مَن أحيا أمرك إذ أماتوه»** فأمر به فرُجم، فأنزل الله عزّ وجل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾[1] إلى قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾[2]. في اليهود - أيضاً - إلى قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾[3] في اليهود أيضاً إلى قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾[4].

وفي السيرة: في أحوال ما بعد الهجرة، قال ابن إسحاق[5]: وكتب رسول الله ﷺ إلى يهود خيبر، فيما حدثني مولى لآل زيد بن ثابت[6]، عن عكرمة، أو عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما:

بسم الله الرحمٰن الرحيم، من محمد رسول الله صاحبِ موسى وأخيه والمصدّق لما جاء به موسى، ألا إن الله قد قال لكم: يا معشر

---

(١) المائدة: ٤١.

(٢) المائدة: ٤٤.

(٣) المائدة: ٤٥.

(٤) المائدة: ٤٧.

(٥) قلت: هو محمد بن إسحاق بن يسار، أبو بكر المُطّلبي - بالولاء - المدني، نزيل العراق، إمام المغازي. صدوق يدلس ورُمي بالتشيع والقدر. توفي سنَة ١٥٠ رحمه الله تعالىٰ، انظر «التقريب»: ٤٦٧.

(٦) قلت: هو زيد بن ثابت بن الضحّاك الأنصاري النجّاري، أبو سعيد وأبو خارجة، صحابي مشهور كتب الوحي. كان من الراسخين في العلم. توفي سنة ٤٥ أو ٤٨ رحمه الله تعالىٰ. انظر المصدر السابق: ٢٢٢.

أهل التوراة إنكم تجدون ذلك في كتابكم: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًاۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِۚ﴾[1] إلى آخر السورة.

وفي أصل سيرة ابن إسحاق، حدثني حسين بن عبدالله بن عبيدالله بن عباس[2]، عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كتب رسول الله ﷺ إلى يهود: **«من محمد رسول الله أخي موسى وصاحبه، بعثه الله عزّ وجل بما بعثه به، إني نشدتكم بالله وما أنزل الله على موسى يوم طور سيناء، وفلق لكم البحر فأنجاكم وأهلك عدوكم وأطعمكم المن والسلوى، وظلّل عليكم الغمام هل تجدون في كتابكم أني رسول الله إليكم وإلى الناس كافة، فإن كان ذلك كذلك، فاتقوا الله وأسلموا، وإن لم يكن عندكم فلا تباعة عليكم»**.

وقد كان رسول الله ﷺ غنيًا عن الاستشهاد بهم وبكتابهم، بما له من المعجزات الباهرات التي أوجبت الإيمان به على كل أحد، ولم تدع لأحد عذراً لولا شرع مثل ذلك والتنبيه على عظيم جدواه، لأنه أقطع في رد الخصوم، وقد تضمّن هذا الفصل من الدليل على حسن صنيعي في تأييد الإسلام والرد على الأخصام من كتبهم قول الله والحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ، فكيف يعدل عنه أحد.



---

(١) الفتح: ٢٩.

(٢) قلت: المطلبي الهاشميّ المدني، ضعيف، مات سنة مائة وأربعين أو بعدها بسنة رحمه الله تعالى. انظر «التقريب»: ١٦٧.

في الشواهد الحسنِ الاستدلالُ بها

والمؤيدات الدالّة على أن ذلك يَسُرُّ النبيَّ ﷺ روى أحمد في المسند، ومسلم في الصحيح عن فاطمة بنت قيس وكانت من المهاجرات الأول رضي الله عنها قالت:

سمعت نداء مُنادي رسول الله ﷺ ينادي: الصلاة جامعة، فخرجت إلى المسجد في نسوة من الأنصار فصلّى بنا رسولُ الله ﷺ الظهر، فصلّيت مع رسول الله ﷺ فكنتُ في النساء اللاتي يَلِينَ ظُهور القوم، فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته صعد المنبر، وكان لا يصعد عليه إلا يوم الجمعة، فاشتد ذلك على الناس فمن بين قائم وجالس، فأشار إليهم بيده أن اقعدوا فإني والله ما قمتُ مقامي لأمر ينقصكم لرغبة ولا لرهبة، وفي رواية جلس على المنبر وهو يضحك، فقال: **«ليلزم كل إنسان مُصَلَّاه»**، ثم قال: **«أتدرون لِمَ جمَعْتُكم؟»** قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: **«إني والله ما جمعتكم لرغبة ولا لرهبة ولكن جمعتكم لأن تميماً الدَّارِي[1] وكان رجلاً نصرانيًا فجاء فبايع وأسلم،**

(١) هو تميم بن أوس بن خارجة الداري، أبو رقية، صحابي، نسبته إلى الدار بن هانىء من لخم، كان راهب أهل عصره، وعابد أهل فلسطين، أسلم سنة ٩هـ، وأقطعه=

وحدثني حديثاً وافق الذي كنت أحدثكم عن مَسِيح» وفي رواية «المسيح الدَّجَّال».

وفي رواية جابر رضي الله عنه: قام رسول الله ﷺ ذات يوم على المنبر، فقال: «يا أيها الناس إني لم أقم فيكم بخبر جاءني من السماء ولكن بلغني خبرٌ ففرحتُ به، فأحببت أن تفرحوا بفرح نبيِّكم ﷺ أنه بينا رَكْبٌ» وفي رواية: «بينما أناسٌ يسيرون في البحر فنفِدَ طعامُهم فرُفعتْ لهم جزيرة، فخرجوا يريدون الخير فلقيتْهم الجَسّاسة»، فذكر الحديث في أمر الدَّجَّال.

وفي آخر الحديث أن النبيَّ ﷺ قال: «ألا هل كنت حدثتكم ذلك؟» فقال الناس: نعم، قال: «فإنه أعجبني حديثُ تميم أنه وافق الذي كنت أحدثكم عنه، وعن المدينة ومكة».

وروى الشيخان عن أبي سعيد رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «تكون الأرض يوم القيامة خُبْزة نزلاء لأهل الجنة» فأتى رجل من اليهود، فقال: بارك الرحمٰن عليك يا أبا القاسم، ألا أخبرك بنُزُلِ أهل الجنة يوم القيامة؟ قال: «بلى»، قال: تكون الأرض خبُزَة، كما قال النبيُّ ﷺ، فنظر النبيُّ ﷺ إلينا ثم ضحك حتى بدت نواجذه.

ومن المشهور قصة سلمان رضي الله عنه في سبب إسلامه بإخبار الرهبان من النصارى بالنبيِّ ﷺ وفي آخرها: فأحبَّ النبيُّ ﷺ أن يسمع ذلك أصحابه، رواها ابن إسحاق في السيرة، وأبو بكر بن أبي شيبة[1]،

= النبيّ ﷺ قرية حبرون (الخليل) بفلسطين، توفي سنة ٤٠هـ. انظر «صفة الصفوة»: (٣١٠/١).

(١) قلت: هو عبدالله بن محمد بن أبي شيبة الواسطيّ الأصل، أبو بكر بن أبي شيبة الكوفي. ثقة حافظ، صاحب تصانيف. توفي سنة ٢٣٥ رحمه الله تعالى. انظر «التقريب»: ٣٢٠.

والحارث بن أبي أُسامة[1]، عن سلمان رضي الله عنه.

فقد عُلم من هذا لكلّ ذي لُبّ أنه يَسُرُّ النبيَّ ﷺ ذكر ما يُصدّق كلامه من قول بني آدم، على اختلاف أصنافهم.

ولا شك أن ما كان يُظن أنه من كلام الله كان أجدر بذلك، وأن مَن منع من شيء كان مخالفاً لأمر رسول الله ﷺ: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[2].



(١) قلت: هو الحارث بن محمد بن أبي أسامة داهر، الحافظ الصدوق، العالم، مسند العراق، أبو محمد التميمي ـ بالولاء ـ البغداديّ، صاحب المسند المشهور. ولد سنة ١٨٦، وتوفي سنة ٢٨٢ رحمه الله تعالى. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٣٨٨/١٣ ـ ٣٩٠.

(٢) النور: ٦٣.

في كلام الأئمة على الأدلة وما يتراءى أنه يخالفها

قال الإمام شمس الدين الكرماني[1] في شرحه للبخاري في أوائل تفسير سورة البقرة، في حديث: «**لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم**»:

هذا الحديث أصل في جواز التوقف عما يشكل من الأمور، فلا يُقضى عليه بصحة أو بطلان، ولا بتحليل أو تحريم، وقد أُمرنا أن نؤمن بالكتب المنزلة على الأنبياء، إلا أنه لا سبيل لنا إلى أن نعلم صحيح ما يحكونه عن تلك الكتب من سقيمه، فيتوقف فلا نصدقهم لئلا نكون شركاء معهم فيما حرَّفوه منه، ولا نكذبهم فلعله يكون صحيحاً فنكون منكرين لما أُمِرْنا أن نؤمن به، وعلى هذا كان توقف السلف عن بعض ما أشكل عليهم وتعليقهم القول فيه، كما سُئل عثمان رضي الله عنه عن

(١) قلت: هو الشيخ محمد بن يوسف بن علي الكرماني ثم البغدادي. ولد سنة ٧١٧، وأخذ عن جماعة ببلده ثم ارتحل إلى شيراز، ثم حجَّ واستوطن بغداد وتصدّى لنشر العلم بها ثلاثين سنة. شرح البخاري وسمّى شرحه «الكواكب الدراري»، وكان مقبلاً على شأنه، قانعاً باليسير، مع ملازمة التواضع والبر بأهل العلم. توفي راجعاً من الحج سنة ٧٨٦، ونقل إلى بغداد فدفن بها. وانظر «الدرر الكامنة»: ٧٧/٥.

الجمع بين الأختين في مِلْك اليمين، فقال: أحلتهما آية وحرمتهما آية، وكما سئل ابن عمر رضي الله عنهما عن رجل نذر أن يصوم كل اثنين فوافق ذلك اليوم عيد، فقال: أمر الله بالوفاء بالنذر، ونهى النبيُّ ﷺ عن صيام يوم العيد، فهذا مذهب مَن سلك طريق الورع، وإن كان غيرهم قد اجتهدوا واعتبروا الأصل ورجحوا أصل أحد المذهبين على الآخر، وكل ما تنويه من الخير وتنويه من الصلاح مشكورٌ. انتهى.

وهو واضح جدًا في أن التوقف إنما هو فيما يُشْكل، وأما غيره مما عرفنا صدقه أو كذبه بشهادة كتابنا فلا، كما يأتي عن ابن بطال[(١)]، ثم عن نص الشافعي.

قال الشيخ نور الدين[(٢)] وقوله: ورجحوا إلى آخره موضع تأمل وبعده لا نحتاج في ردّ كلام مَن ادعى الإجماع إلى شيء.

وقال الإمام بدر الدين الزركشي[(٣)] في أول كتاب الوصية في شرحه للمنهاج[(٤)]: أنه لو أوصى بكتب شريعة موسى وعيسى عليهما السلام فإن أراد كتب سيرهم وقصصهم الموثوق بصحتها جاز؛ لأن الله تعالى قصّها علينا في كتاب، وإن أراد للأحكام لم يَجُز

---

(١) قلت: هو العلامة أبو الحسن علي بن خلف بن بطال البكري القرطبي ثم البلنسي، كان من أهل العلم والمعرفة، وعُني بالحديث عناية تامة، وشرح صحيح البخاري، وجلس للقضاء، وكان من كبار المالكية، توفي سنة ٤٤٩. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٨/٤٧ ـ ٤٨.

(٢) قلت: هو أحد أصحاب البقاعي، وقد قام بكتابة تعليق على كتاب البقاعي، ضمّنه في كتابه كما ذكر في المقدمة.

(٣) قلت: هو الشيخ محمد بن بهادر بن عبدالله، التركي الأصل، المصري. ولد سنة ٧٤٥، وعُني بالاشتغال من صغره فحفظ كتباً. أخذ عنه عدة مشايخ، وكان منقطعاً لا يتردد إلى أحد. توفي بالقاهرة سنة ٧٩٤. انظر «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة»: ١٧/٤٥ ـ ١٨.

(٤) قلت: المنهاج من كتب فقه الشافعية، من تصنيف الإمام النووي رحمه الله تعالى.

كالتوراة والإنجيل. انتهى، يحمل قولهم في التوراة والإنجيل على كتابة أحكامه للعمل بها لا للاعتبار بما فيها من الإصر مثلاً لنشكر الله على تخفيفه عنا، وعلى كل حال قد جُعل الفيصل في معرفة الصحيح من غيره كتابنا.

وقال شيخنا ـ حافظ عصره ـ أبو الفضل بن حجر في شرحه في باب قول النبي ﷺ: «**لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء**»، هذه الترجمة لفظ حديث أخرجه أحمد وابن أبي شيبة والبزار من حديث جابر، أن عمر رضي الله عنهما أتى النبيَّ ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب فقرأه عليه فغضب، وقال: «**لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيءٍ ليخبروكم بحق لتكذبوا به، أو بباطل فتصدِّقوا به، والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حيّاً ما وسعه إلا أن يتبعني**» ورجاله موثقون إلا أن في مجالد ضعفاً.

وأخرج البزار أيضاً من طريق عبدالله بن ثابت الأنصاري[1]، أن عمر رضي الله عنه نسخ صحيفة من التوراة، فقال رسول الله ﷺ: «**لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء**»، وفي سنده جابر الجُعفي وهو ضعيف[2]، واستعمله[3] في الترجمة لورود ما يشهد بصحته من الحديث الصحيح، وأخرج عبدالرزاق من طريق حُريث بن ظُهير[4]، قال: قال عبدالله[5]: «**لا تسألوا أهل الكتاب فإنهم لن يهدوكم، وقد أضلُّوا أنفسهم فتكذبوا بحق أو تصدقوا بباطل**»، وأخرجه عن سفيان الثوري من هذا

---

(١) قلت: قال البزار: لا نعلم روى ابن ثابت إلا هذا، انظر «كشف الأستار عن زوائد البزار»: ٧٩/١.

(٢) جابر بن يزيد بن الحارث الجُعفيّ، أبو عبدالله الكوفيّ، ضعيف رافضي. مات سنة ١٢٧. انظر «التقريب»: ١٣٧.

(٣) قلت: أي البخاري.

(٤) قلت: الكوفي، قدم الشام، مجهول. انظر «التقريب»: ١٥٦.

(٥) أي ابن مسعود رضي الله عنه.

الوجه، بلفظ: «**لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلُّوا أن تكذبوا بحق أو تصدقوا بباطل**» وسنده حسن[(١)].

قال ابن بطال عن المهلب: هذا النهي إنما هو في سؤالهم عما لا نصّ فيه؛ لأن شرعنا مكتفٍ بنفسه، فإذا لم يوجد فيه نص ففي النظر والاستدلال غنىً عن سؤالهم، ولا يدخل في النهي سؤالهم عن الأخبار المصدِّقة لشرعنا، والإخبار عن الأمم السالفة.

قال الشيخ نور الدين: هذا على أن شيخنا حفظه الله تعالى قد وقعت له موافقة ذلك؛ فإن شخصاً من حُذَّاقهم، وهو صهر لبعض المشنعين أسلم وهو يحفظ التوراة إلى الآن، وله خبرة ـ زَعَمَ ـ بالمبدل من غيره، فهو يميز ذلك من ذلك، مع أن في تصديق كتاب الله وتكذيبه لما ينقل عنهم غنىً عن ذلك، فإنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. انتهى.

قال ابن التِّيْن:

وحديث أبي هريرة ـ يعني في الصحيح ـ: كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال النبيُّ ﷺ: «**لا تصدِّقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا آمنا بالله وما أنزل...**» إلخ، كما تقدّم في تفسير سورة البقرة، وقال شيخنا هناك: لا تصدِّقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، أي إذا كان ما يخبروكم به محتملاً؛ لأن لا يكون في نفس الأمر صدقاً فتكذبوه أو كذباً فتصدقوه فتقعوا في الحرج، ولم يرد النهي عن تكذيبهم فيما ورد شرعنا بخلافه، ولا عن تصديقهم فيما ورد شرعنا بوفاقه، نبّه على ذلك الشافعيُّ ـ رحمه الله ـ ويؤخذ من هذا الحديث التوقف عن الخوض في المشكلات والجزم فيها بما وقع في الظن، وعلى هذا يُحْمَلُ ما جاء عن السلف من ذلك.

---

(١) قلت: أخرجه عبدالرزاق في المصنف، كتاب: أهل الكتاب، باب: مسألة أهل الكتاب، ٦/١١١، وما في المصنف يختلف اختلافاً يسيراً عما هاهنا.

قال الإمام أبو القاسم الرافعي[1] في شرحه: وكتب التوراة والإنجيل مما لا يحل الانتفاع به؛ لأنهم بدّلوا وغيّروا، وكذا قال غيره من الأصحاب، وهو مخصوص بما عُلم تبديله بدليل أن كل مَن قال ذلك علّل بالتبديل، فدار الحكم معه، ونصُّ الشافعي ظاهر في ذلك.

قال المُزَني[2] عنه في مختصره في جامع السير: وما كان من كتبهم - أي الكفار - فيه طبٌّ وما لا مكروه فيه بِيْعَ، وما كان فيه شرك أبْطِل وانتُفع بأوعيته، وقال في (الأم) في سير الواقدي[3] في باب ترجمته كتب الأعاجم: قال الشافعي: وما وُجد من كتبهم فهو مَغْنم كله، وينبغي للإمام أن يدعو مَن يترجمه، فإن كان علماً من طب أو غيره لا مكروه فيه باعه كما يبيع ما سواه من المغانم، وإن كان كتاب شرك شَقُّوا الكتاب فانتفعوا بأوعيته وأداته فباعها، ولا وجه لتحريقه ولا دفنه قبل أن يعلم ما هو، انتهى.

فقوله في الأم: «كتاب شرك»، مفهم لأنه كله شرك، ولهذا عبّر المُزني عن ذلك بقوله: وما كان فيه شرك، أي من أبواب الكتاب وفصوله، ويوضح هذا جدًّا قول الرافعي في شرح قول الوجيز، في باب

---

(١) قلت: هو الشيخ الإمام عبدالكريم بن محمد القزويني، إمام في الفقه والتفسير والحديث، كثير الأدب، شديد التثبُّت في النقل، وكان من الصالحين ذوي الكرامات، وهو منسوب إلى رافع بن خديج الصحابي رضي الله عنه. توفي سنة ٦٢٤ وله ٦٦ سنة. انظر «طبقات الشافعية» لابن هداية الله الحسيني: ٢١٨ - ٢٢٠.

(٢) قلت: هو الإمام العلامة، فقيه الملة، علم الزهاد، أبو إبراهيم إسماعيل بن يحيى بن إسماعيل المزنيّ المصري تلميذ الإمام الشافعيّ. ولد سنة ١٧٥، وكان رأساً في الفقه، مجتهداً في العبادة، معظماً للعلم وأهله، ورعاً، ذا زهد وتألُّه، مجاب الدعوة، وهو الذي نشر مذهب الشافعي في الآفاق، وكان ملازماً للرباط، توفي سنة ٢٦٤ وله تسع وثمانون سنة، رحمه الله تعالى. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٤٩٢/١٢ - ٤٩٧.

(٣) قلت: هو محمد بن عمر بن واقد الأسلمي الواقديّ، المدنيّ، القاضي، نزيل بغداد. متروك مع سعة علمه. مات سنة ٢٠٧ وله ثمان وسبعون سنة رحمه الله تعالى. انظر «التقريب»: ٤٩٨.

الأحداث: ويجب إهلاك كتبهم التي لا يحل الانتفاع بها، وفي جواز استصحابها لفائدة تعرُّف مذاهبهم خلاف، قال الإمام: وقد يخطر للفَطِن أن كتب الشرك ينتفع بها على معنى أن الحاجة تمس إلى الاطلاع على مذاهب المبطلين ليوجه الرد عليها، فإن كانت تلك المقالات مشهورة فالرأي إبطالها، وإن كان فيها ما لم يتقدم الاطلاع عليه ففي جواز استصحابه ـ مَن يعرف مقالتهم ويرد عليهم ـ تردُّدٌ واحتمالٌ بيِّن. انتهى.

وأدل من ذلك قولهم في باب الإحداث: أن حكمها في الاحترام بالإكرام بتنزيهها عن مس المحدث لها كاحترام القرآن بلا خلاف، لكن هل تلحق بما لم ينسخ فيه ليحرم المس أم بما نسخ ليكره، رجحوا أن حكمها في ذلك حكم ما نسخت تلاوته من القرآن في أصح الوجهين.

والتعبير بالأصح على ما اصطلحوا عليه يدلُّ على أن الوجه القائل بحرمة مسِّ المحدث لها قويّ، وعبارة محرر المذهب الشيخ محيي الدين النووي ـ رحمه الله ـ في مسائل ألحقها في آخر باب الإحداث من شرح المهذب، الثالثة: يجوز للمُحْدث مس التوراة والإنجيل وحملهما، كذا قطع به الجمهور، وذكر الماوردي[(١)] والرُّوياني[(٢)] فيه وجهين، **أحدهما**: لا يجوز، **والثاني**: قالا ـ وهو قول جمهور أصحابنا ـ يجوز لأنها مبدلة منسوخة، قال المتولي[(٣)]: فإن ظنّ أن فيها شيئاً غير مبدل كُره مسُّهُ ولا يحرم. انتهى.

---

(١) قلت: هو الشيخ الإمام علي بن محمد بن حبيب، أقضى القضاة. ولي القضاء ببلاد شتى، ثم سكن بغداد. تبحّر في المذهب الشافعي. توفي سنة ٤٥٠، وقد بلغ ستاً وثمانين سنة. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٨/٦٤ ـ ٦٨.

(٢) قلت: هو الشيخ الإمام عبدالواحد بن إسماعيل بن أحمد، أبو المحاسن الطبري، شيخ الشافعية، توفي شهيداً حيث قتلته الإسماعيلية الباطنية سنة ٥٠١. انظر المصدر السابق: ١٩/٢٦٠ ـ ٢٦٢.

(٣) قلت: هو شيخ الشافعية أبو سعد عبدالرحمن بن مأمون بن علي. توفي سنة ٤٧٨ رحمه الله تعالى. انظر المصدر السابق: ١٩/١٨٧.

ولا شك أن كراهة مسّ المحدث لها للاحترام، والاحترام فرع جواز الإبقاء والانتفاع بالقراءة والسماع.

وأصرح من ذلك كله قول الشافعي رحمه الله: إن ما لا مكروه فيه يباح، وكذا قول البغوي[1] في تهذيبه في آخر باب الوضوء: وكذلك لو تكلم ـ أي الجنب ـ بكلمة توافق نظم القرآن أو قراءة آية نُسخت قراءتها أو قراءة التوراة والإنجيل، أو ذكر الله سبحانه أو صلّى على النبيِّ ﷺ فجائزٌ، قالت عائشة رضي الله عنها: كان النبيُّ ﷺ يذكر الله على كل أحيانه، فإنه لا يتخيل أنه يجوز للجنب ما لا يجوز للمُحْدِث، بل كل ما جاز للجُنُبِ قراءتَهُ جاز للمحدث ولا عكس، وتعليله لذلك بحديث عائشة رضي الله عنها دالٌّ على أن ذلك ذكر الله تعالى.

هذا آخر ما أردت ذكره من الدليل على سنية إطلاق ذكر ما لا مكروه فيه من الكتب القديمة، للرد على أهلها به، أو التنبيه على مصادقته لكتابنا، وإلزامهم به ونحو ذلك من الفوائد التي لا تخفى على منصف، مثل ظهور إعجاز القرآن ظهوراً بيّناً للذكيّ والغبيّ، فإنه كما قيل: وبضدها تتبين الأشياء، وأما المبدَّل فلا يحل ذكره إلا مقروناً ببيان أنه مبدل، والله الموفق.



(١) قلت: هو الشيخ الإمام الحافظ الحسين بن مسعود بن محمد البغوي الشافعي، المفسر، صاحب التصانيف، توفي سنة ٥١٦ رحمه الله تعالى. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٩/٤٣٩ ـ ٤٤٣.

في ذكر
بعض مَن نقل من الكتب القديمة
من الأئمة وأعيان الأمة

وذكر بعض ما نقلوه منها ويلحق به ما نُقل عن أهل الأديان كلهم من اليهود والنصارى والمشركين والكهان والشياطين.

روى البخاري في صحيحه الذي تلقته الأمة بالقبول، وتبرَّكوا به في الارتحال والحلول، عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما أنه قال ـ وقد سُئل عن صفة رسول الله ﷺ ـ: والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَـذِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ وحرزاً للأميِّين، أنت عبدي ورسولي، سَمَّيْتُكَ المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخّاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح به أعيناً عمياء، وآذاناً صمّاء وقلوباً غلفاء.

وقد سمع جماعة من الصحابة رضي الله عنهم من بني إسرائيل

كعب[1] وغيره منهم العبادلة[2] وغيرهم، فقد قال أئمة الحديث: إن الصحابي إذا نقل شيئاً لا يقال مثله بالرأي إنه مرفوع في الحكم إلا إذا كان الصحابي من أهل الكتاب.

وفي الصحيح عن معاوية رضي الله عنه أنه ذكر كعب الأحبار، فقال: إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب وإن كنا مع ذلك لنبلوا عليه الكذب[3].

وفيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «**لا تُصدِّقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم**»، ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾ ولم يقل: لا تسمعوا منهم، ولا تنقلوا عنهم.

وقال القاضي عياض[4]:

ومن أسمائه ﷺ في الكتب: المتوكل والمختار ومقيم السنة والمقدَّس وروح الحق، وهو معنى البارقليط في الإنجيل.

ومن أسمائه في الكتب السالفة: ماذ ماذ، معناه: طيب طيب وحَمْطايا والخاتم والحاتم، حكاه كعب الأحبار.

---

(١) قلت: هو كعب الأحبار بن ماتع الحميري، أبو إسحاق. ثقة. كان من أهل اليمن فسكن الشام، ومات في آخر خلافة عثمان رضي الله عنه وقد زاد على المائة رحمه الله تعالى. انظر «التقريب»: ٤٦١.

(٢) قلت: هم عبدالله بن عباس، وعبدالله بن عمر، وعبدالله بن مسعود، وعبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهم جميعاً.

(٣) قلت: يحتمل تفسير الكذب هنا بالخطأ، كما ذكر جماعة من العلماء.

(٤) قلت: هو عياض بن موسى اليَحْصُبي الأندلسي ثم السَّبتي المالكي، الإمام القاضي. ولد سنة ٤٧٦، واستبحر من العلوم، وجمع وألّف، واشتهر اسمه في الآفاق، وله شعر حسن، وهو إمام الحديث في وقته وأعرف الناس بعلومه، وبالنحو واللغة، وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم. توفي شهيداً مقتولاً بمراكش سنة ٥٤٤ وذلك لإنكاره عصمة ابن تومرت أمير الموحدين. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٢٠/٢١٢ ـ ٢١٨.

وقال في أواخر الباب الرابع، فصل:

ومن دلائل نبوّته ما ترادفت به الأخبار عن الرهبان والأحبار وعلماء أهل الكتاب، إلى أن قال: وما ألفي من ذلك في التوراة والإنجيل مما قد جمعه العلماءُ وبيَّنوه ونقله عنها ثقاتُ مَن أسلم منهم، وعدَّ جماعة ممن أسلم، ثم قال: وقد اعترف بذلك هِرَقْل، وعدَّ جماعة ممن مات على كفره إلى أن قال: وقد قال لهم: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[1] إلى غير ذلك مما فيه، ولا ينكره فقيه ولا فاضل نبيه.

وفي السيرة لإمام أهل المغازي محمد بن إسحاق تهذيب الإمام أبي محمد عبدالملك بن هشام[2]، بعد قصة ورقة بن نوفل وزيد بن عمرو بن نفيل رضي الله عنهما: (صفة رسول الله ﷺ من الإنجيل) قال ابن إسحاق:

وكان ـ فيما بلغني ـ عما كان وضع عيسى بن مريم عليهما السلام فيما جاء من الله في الإنجيل من صفة رسول الله ﷺ مما أثبت يُحنَّس الحواري لهم حين نسخ لهم الإنجيل من عهد عيسى بن مريم عليهما السلام أنه قال: مَن أبغضني فقد أبغض الرب، ولولا أني صنعت بحضرتهم صنائع لم يصنعها أحد قبلي ما كانت لهم خطيئة، ولكن من الآن بطروا وظنوا أنهم يعزونني وأيضاً للرب، ولكن لا بد أن تتم الكلمة التي في الناموس، أنهم أبغضوني مجاناً، أي باطلاً، فلو

---

(١) آل عمران: ٩٣.

(٢) قلت: هو عبدالملك بن هشام بن أيوب، العلامة النحوي الأخباريّ، أبو محمد الذهليّ السَدوسيّ المعافريّ البصريّ، نزيل مصر. هذب سيرة ابن إسحاق وخفف من أشعارها. توفي سنة ٢١٨ رحمه الله تعالى. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٤٢٨/١٠ ـ ٤٢٩.

قد جاء المنحمنا هذا الذي يرسله الله إليكم من عند الربّ روح القسط، هذا الذي من عند الرب خرج، فهو شهيد علي وأنتم أيضاً لكنكم قديماً كنتم معي في هذا، قلت لكم لكي لا تشكوا. فالمنحمنا - بالسريانية - محمد ﷺ وهو بالرومية البارقليطيس.

وقال الإمام ناصر الدين البيضاوي بن شمس الدين محمود الأصبهاني في تفسيره في قوله تعالى: ﴿مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾[1] في أول الكلام: ولقد ضربت الأمثال في الإنجيل بالأشياء المحقرة كالزّوان[2]، والنُّخالة، وحَبَّةِ الخَردل، والحَصَاة، والأَرَضَة، والدود، والزنابير.

وعند قوله: ﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾[3]: ومنها أخذ الميثاق عليهم بأنهم إذا بعث إليهم رسول يصدقه الله بمعجزاته صدَّقوه واتبعوه، ولم يكتموا ذكره فيما تقدمه من الكتب المنزَلة عليهم لقوله: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾[4]، وقوله في الإنجيل لعيسى عليه السلام: (سأنزل عليكم كتاباً فيه نبأ بني إسرائيل ونبأ ما أريته إياهم من الآيات وما أنعمت عليهم وما نقضوا من ميثاقهم الذي واثقوا به).

وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾[5]: فمنهم مَن قال: إنه - أي إبليس - كان كافراً أبداً، يدل على ذلك ما نُقل عن شارح الأناجيل الأربعة أنه وقع المناظرة بين الملائكة وبين إبليس بعد الأمر بالسجود وإبائه، قال إبليس للملائكة: إني أُسَلِّمُ أن الله خالقي وخالق الخلق، لكن لي على حكمته أسئلة سبعة، **الأول**: ما الحكمة في الخلق لا سيما إذا كان عالماً بأن الكافر لا يستوجب عند

---

(١) البقرة: ٢٦.

(٢) قلت: هو حب ينبت بين القمح. انظر: (لسان العرب): زون.

(٣) البقرة: ٣٩.

(٤) البقرة: ٤٠.

(٥) البقرة: ٣٤.

خلقه إلا الألم؟ وسرد السبعة، وقال بعدها: فأوحى الله تعالى إليه من سرادقات الجلال والكبرياء: يا إبليس إنك ما عرفتني، ولو عرفتني لعلمت أنه لا اعتراض عليّ في شيء من أفعالي، فإني أنا الله لا إله إلا أنا لا أسأل عما أفعل.

وقال في تفسير قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[١] - نقلاً عن الإمام الرازي[٢] -: هذا آخر الآيات الدالة على النعم التي أنعم الله بها على جميع بني آدم، وهي دالة على التوحيد موافقاً لما في التوراة والإنجيل.

وقال في تفسير: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ﴾[٣]: المراد بعهدي أربعة أقوال: **أحدها**: ما عهد إليهم في التوراة من صفة محمد ﷺ وأنه سيبعثه على ما قال الله تعالى في الأعراف: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾[٤] الآية.

ثم قال: ولنذكر بعض ما جاء في كتب الأنبياء المتقدمين من البشارة بمقدم محمد ﷺ.

فإن كان المحذور عند مَن أنكر لقلة ممارسته لكتب الأئمة ذكر ما في الكتب القديمة فقد ذكر هذا الإمام المفسر وغيره من الأئمة الكبار كالرازي وكالبغوي كثيراً من ذلك، وإن كان المحذور عزوه إلى تلك الكتب التي أخذ منها لأذكره غير معزو إليها فذلك أمر لا يعقله

---

(١) البقرة: ٣٩.

(٢) قلت: هو الإمام فخر الدين محمد بن عمر بن الحسن التيميّ البكري الرازي، ابن خطيب الريّ، إمام المتكلمين. ولد سنة ٥٤٣، واشتغل على والده وغيره، وبَعُد صيته، واشتهر اسمه. وكانت له اليد الطولى في الوعظ باللسان العربي والفارسي. له عدة مصنفات. توفي بهراة سنة ٦٠٦. انظر «طبقات الشافعية الكبرى»: ٨/٨١ - ٩٦.

(٣) البقرة: ٤٠.

(٤) الأعراف: ١٥٦.

عاقل، والتفاسير وغيرها طافحة بالنقل عن أهل الكتاب، ومن المعلوم أنهم لا يأخذون ذلك إلا من كتبهم أو عمن أخذه منها، فمَن سوَّغ النقل عنهم غير معزو ومنعه معزواً؟ مع ما تقدم عن البخاري والشافعي وغيرهما من النقل معزواً إلى كتبهم.

فإن كان المحذور عند مَن أنكر ذلك مجرد ذكره ففي هؤلاء الأئمة أسوة، وكفى بهم متبعاً وقدوة، فالطاعن في مَن اقتدى بهم لأجل ما اقتدى بهم فيه طاعن فيهم، والطاعن فيهم وهم سلف الأمة وعلماؤهم وصلحاؤهم وحملة الشريعة طاعن في الدين، فكيف إذا انضم إلى ذلك تأييدهم بنص الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، فقد قال الله تعالى في كتابه العزيز الذي يُقرأ على البر والفاجر والعالِم والجاهل: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾[1].

وإن كان المحذور عندهم ذكره مقروناً بردِّه أو تأويله بأن المراد به غير ظاهره، فهو منابذةٌ للدين، وقال الإمام ناصر الدين البيضاوي في تفسير قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝١١٧﴾[2].

واعلم أن السبب في هذه الضلالة ـ يعني اعتقادهم أن ذلك حقيقة ـ أن أرباب العلوم المتقدمة كانوا يطلقون الأب على الله باعتبار أنه السبب الأصلي حتى قالوا: إن الأب هو الرب الأصغر والله تعالى هو الرب الأكبر، ثم ظنّت الجهلة منهم أن المراد به معنى الولادة فاعتقدوا ذلك تقليداً، ولذلك كُفِّر قائله ومنع منه مطلقاً حسماً لمادة الفساد. انتهى.

---

(١) التوبة: ٣٠.

(٢) البقرة: ١١٧.

فهذا يسير مما نقله الأئمة عن أهل الكتاب ومن كتبهم، مَن كان يريد الحق كفي في معرفته، ومَن أراد الباطل والعناد فالله قاصم له وعاصم من كيده.

وقد كانت الكتب الإلهية القديمة ـ فيما هو خير من هذا العصر مما سلف من الأعصار التي كانت أكثر علماً وعلماء وأمَّارين بالمعروف ـ متظاهراً بها غير مخفي أمرها حتى إنها تُوْقفُ في خزائن أهل الإسلام، وكانت هذه الكتب تقرأ على العلماء فلا ينكر ذلك.

وكل مَن بذّ الناس سبقاً وعلاهم فوقاً، لا يعدم مَن يتكلم فيه ممن لا يفهم بعض كلامه، أو يحسده؛ لأنه لا يصل إلى جميع مرامه كما قيل:

وكم من عائب قولاً صحيحاً   وآفته من الفهم السقيم
وإذا أتتك مذمتي من ناقص   فهي الشهادة لي بأني كامل

ومَن جهل شيئاً عاداه، ومما ينسب إلى إمامنا الشافعي ـ رحمه الله ـ أو علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وضد كل امرىء ما كان يجهل   والجاهلون لأهل العلم أعداء

ومن المعلوم عند أئمة الحديث وجهابذة النقد أن الجرح لا يقبل إلا مفسراً، بل وإن فُسِّر نظر في الخارج هل هو مطعون فيه بجهل أو فسق أو غرض؟ وإن سلم من ذلك وكان هناك توثيق مَن هو مثله أو أعلى منه، نُظر في القولين: هل يتنافيان أم لا؟ ويجتهد في مثل ذلك ليقدم الأصل ويترك غيره، فأعراض الناس ليست هيّنة ليتكلم فيها مَن لم يتضلّع بالعلوم ويشتهر بالدين، فما جاء البلاء إلا ممن يتكلم وهو يظن أنه يعلم، والحال أنه لا يُقبل في ثُمْنِ درهم كما مضى عن إمامنا

الشافعي، ولا سيما إن وجد له جهلة مثله، فالجنسية علة الضم[1]، يتلقفون من كلامه ويبردون غليل حسده وأُوامه[2]، وما آفة الأخبار إلا رواتها، ولعمري أن الحق لواضح جدًا عند مَن يتعرّفه وهو منصف، فكل مَن يتكلم من وراءٍ منسوب إلى أفرى الفِرى، ومَن لم يقدر على إبراز كلامه لخصمه فقد شهد على نفسه بجهلها ولخصمه بعلمه، وهذا برهان بديهي التصور، واضح التقرر والتحرر، ولمثل هذا كان مثل هذا الأمر مما ينبغي أن يصان عمن لا يسعفه عقله، فقبّح الله مَن أحوج إلى إظهاره، ودعا إلى إشاعته عند مَن ليس بأهله وإشهاره؛ فقد ذكر أئمة المحدّثين في آداب المحدث أنه لا يروي في الإملاء المشكل الذي لا يحتمله عقول العوام، قال الشيخ زين الدين العراقي[3] تبعاً لابن الصلاح[4] في شرح منظومة كتابه: قال الخطيب[5]: وليجتنب في أماليه، ما لا تحتمله عقول العوام، ثم قال: وإن [كانت] الأحاديث صحاحاً ولها في التأويل طرق ووجوه إلا أن من حقها أن لا تروى إلا لأهلها خوفاً من أن يضل بها مَن جهل معانيها فيحملها على ظاهرها، أو يستنكرها فيردها.

هذا وأما ما نقل العلماءُ عن غير أهل الكتاب من أعداء

---

(١) قلت: أي التماثل والتقارب في الصفات مدعاة إلى الاجتماع بين الناس والتقارب فيما بينهم.

(٢) قلت: الأوام شدة العطش. انظر «لسان العرب»: أوم.

(٣) قلت: هو الشيخ الإمام عبدالرحيم بن الحسين بن عبدالرحمٰن الكردي الأصل المصري الشافعي، شيخ الحديث. توفي بالقاهرة سنة ٨٠٦ رحمه الله تعالى. انظر «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع»: ٤/١٧١ ـ ١٧٨.

(٤) قلت: هو الإمام الحافظ العلامة عثمان بن عبدالرحمٰن بن عثمان الكردي الشهرزوري الموصلي الشافعي. ولد سنة ٥٧٧، وجمع وألّف وأفتى، وكان من كبار الأئمة، توفي سنة ٦٤٣ بدمشق، وكان قد نزح إليها بعد رحلات كثيرة. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٢٣/١٤٠ ـ ١٤٤.

(٥) قلت: هو الخطيب البغدادي، وقد توفي سنة ٤٦٣ كما مرّ.

الإسلام في تأييد الحق وتكذيب الباطل فكثير، ففي السيرة باب معقود للنقل عن الأحبار من اليهود والرهبان من النصارى والكهّان من العرب.

قال ابن هشام: أما الأحبار من يهود والرهبان من النصارى فممّا وجدوا في كتبهم من صفته وصفة زمانه، وأما الكهان من العرب فأتتهم به الشياطين من الجن فيما تسترق من السمع؛ إذ كانت لا تحجب عن ذلك بالقذف بالنجوم، فقد اشتمل هذا على النقل في تأييد الإسلام عن جميع طوائف الكفرة من الجن والإنس، وتلقّت ذلك الأمة بالقبول بل استحسنوه وأثنوا عليه ومدحوه عصراً بعد عصر وجيلاً بعد جيل، فقد وقع عليه الإجماع وانفصل النزاع حتى جاء في هذا الزمان مَن لا خلاق له، يشنّع بما ليست له حقيقة ولو ثبت كان جهده أن يكون مثل هذا، فيخشى على مَن أنكر مثله على بعض أهل عصره أن يكون ممن أنكر مجمعاً عليه مَعْلوماً من الدين بالضرورة.

وقال ابن هشام عقب النقل عن طوائف الكفرة في إنذار يهود برسول الله ﷺ: ومنهم رجلٌ بشّر برسول الله ﷺ، قال سلمة بن سلامة بن وَقْش[1]: فوالله ما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله رسوله ﷺ وهو حيٌّ بين أظهرنا، فآمنّا به وكفروا به بغياً وحسداً، وفيها في قصة حسان رضي الله عنه[2] في الذي قال من اليهود: وطلع الليلة نجم أحمد.

---

(١) قلت: هو سلمة بن سلامة بن وَقْش بن زغبة بن زعوراء بن عبدالأشهل الأنصاريّ الأشهليّ، أبو عوف. شهد العقبة الأولى والثانية، وشهد بدراً والمشاهد بعدها. توفي بالمدينة سنة ٤٥ وهو ابن أربع وسبعين سنة رضي الله عنه. انظر «الإصابة»: ٢/٦٣ ـ ٦٤.

(٢) قلت: هو حسان بن ثابت بن المنذر الأنصاريّ الخزرجيّ، أبو عبدالرحمن، شاعر رسول الله ﷺ، مشهور، مات سنة ٤٥ وله مائة وعشرون سنة رضي الله عنه. انظر «التقريب»: ١٥٧.

وفي البخاري النقل عن ابن الناطور[1] وهِرَقل في ظهور النجم الدال على النبي ﷺ المبعوث إلى الأميين ﷺ، ومن ذلك قصة ابن الهيسان التي نفع بها ناساً منهم ابنا سَعِيّة فأسلموا بعد مدة طويلة[2]، وغير ذلك وهو كثير.

وفي السيرة والتفسير لقوله تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾[3]: إن الأنصار رضي الله عنهم قالوا: إن مما نفعنا وهدانا للإسلام لما كنا نسمع من رجال يهود من أمر النبي ﷺ. انتهى.

وهذا الذي يذكر في التفسير من كتبهم يرجى به ما رجي من ذلك ولو بعد حين، وقال ابن هشام في السيرة في بنيان الكعبة: قال ابن إسحاق: فحدثني بعض مَن يروي الحديث أن رجلاً من قريش ممن كان يهدمها ـ أي الكعبة ـ حين أرادوا بناءها أدخل عتلة بين حجرين منها، ليقلع بها أحدهما، فلما تحرك الحجر تنقضت مكة بأسرها فانتهوا عن ذلك الأساس، قال: وحُدِّثت أن قريشاً وجدوا في الركن كتاباً بالسريانية فلم يدروا ما هو حتى قرأه لهم رجل من يهود، فإذا هو: أنا الله ذو بكة، خلقتها يوم خلقت السموات والأرض، وصورت الشمس والقمر، وحففتها بسبعة أملاك حفًّا لا تزول حتى يزول أخشباها[4]، مبارك لها في الماء واللبن، فهذا عن بعض الجاهلية

---

(١) قلت: انظر قصته في صحيح البخاري في المقدمة: في طلب هرقل أبا سفيان ومن معه، وابن الناطور هو صاحب إيلياء، وهو سُقُفٌ على نصارى الشام، وقد عاش حتى حدث الزهري زمان عبدالملك بن مروان، انظر «فتح الباري»: ٨٣/١.

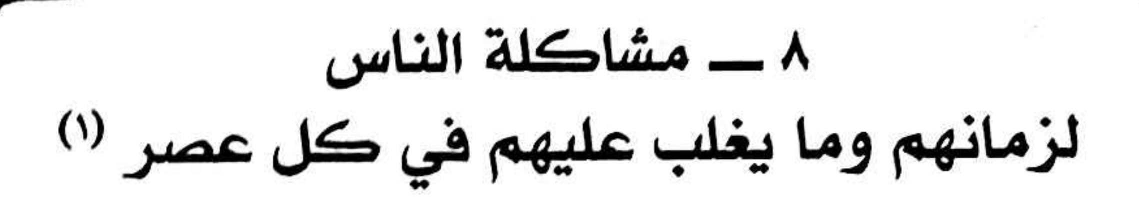
(٢) قلت: لم أقف على هذه القصة ولم أجدها بعد البحث والتنقير، فالله أعلم.

(٣) البقرة: ٨٩.

(٤) قلت: هما الجبلان المحيطان بها.

عن رجل يهوديٍّ عن خط سُرياني في وصف بلد الله الحرام ببعض ما لا يتحقق صحته ولا فساده أهل الإسلام، ولم ينكره أحد من الأعلام.





٨ ـ مشاكلة الناس لزمانهم وما يغلب عليهم في كل عصر [١]

تأليف
أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر اليعقوبي

تحقيق

محمد كمال الدين عز الدين [٢]

(١) قلت: انظر «مجلة معهد المخطوطات العربية»: المجلد السادس والعشرين، الجزء الأول (١٢١ ـ ١٦٥).

(٢) قلت: قد حقق الكتاب ـ أيضاً ـ المستشرق وليم ملورد قبل أن يحققه الأستاذ المذكور، وقد كان تحقيق الأستاذ قد نشر سنة ١٩٧٨، بينما نشر تحقيق المستشرق سنة ١٩٦٢ ببيروت: دار الكتاب الجديد. هذا وقد اخترت تحقيق الأستاذ محمد وفضلته على تحقيق المستشرق لأسباب منها حسن التعليقات وجمال أكثرها.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

توطئة:

الحمد لله مداول الأيام بين الناس، مالك الكون بقدرته، ومدبّره بحكمته، يؤتي الملك مَن يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، وكل شيء عنده بمقدار.

أما بعد، فهذا كتاب (مشاكلة الناس لزمانهم، وما يغلب عليهم في كل عصر) يخرج لأول مرة من خبايا المخطوطات، وكم كان لعنوانه قبل الحصول عليه من تشويق إليه، أقدم بين يديه هذا الموجز للتعريف بصاحبه: العالم المؤرخ الجغرافي أحمد بن أبي يعقوب، مجملاً ما قال العلماء فيه، مستمدًا من الله السداد فيما قصدت، وهو جل علاه وليُّ الفضل ومانح التوفيق.

المؤلف:

ترجم له ياقوت[1] في (معجم الأدباء) قال: أحمد بن أبي

---

(١) قلت: هو الأديب الأوحد شهاب الدين الروميّ الحمويّ، السفّار النحوي، الأخباري المؤرخ. جرت عليه شدائد، ثم تنقّل في البلدان، وله مصنفات نافعة. توفي سنة ٦٢٦ عن نيف وخمسين سنة. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٢٢: ٣١٢ ـ ٣١٣.

يعقوب إسحاق بن جعفر الأخباري العباسي توفي سنة أربع وثمانين ومائتين.

كما ترجم له الزِرِكْليّ[1] في الأعلام فقال:

مؤرخ جغرافي كثير الأسفار، من أهل بغداد، كان جده من موالي المنصور العباسي. رحل إلى المغرب، وأقام في أرمينية، ودخل الهند، وزار الأقطار العربية، وصنّف كتباً جيدة منها: (تاريخ اليعقوبي) انتهى به إلى خلافة المعتمد على الله العباسي، وكتاب (البلدان) و(أخبار الأمم السالفة) صغير، و(مشاكلة الناس لزمانهم).

أما بروكلمان فتفيدنا ترجمته للمؤلف إلى جوانب من حياته تَغْني الباحث، منها: نشأته على التشيُّع، التي لها أثرها في اتجاهاته: (وكان واضح [أنه] يتشيّع سرًّا على الرغم من صِلاته الوثيقة بالعباسيين ومناصبه الرفيعة... وقد توارثت أسرته التشيُّع).

مشاكلة الناس لزمانهم:

الذي يبدو من كتابات المترجمين والنقاد أنهم لم يطَّلعوا على هذه الرسالة الصغيرة الحجم، فحديثهم عنها بالسماع؛ إذ لم يصفها أحدهم ـ كما صنعوا مع كتبه الأخرى ـ بالصغر أو الكبر أو عدد الصفحات أو المجلدات، أو تناول شيء من المضمون، حتى روزنثال الذي اتخذ من عنوانها استدلالاً على اتجاه اليعقوبي الذي قارب

(١) قلت: هو خير الدين بن محمد الزركلي، ولد سنة ١٨٩٣ في بيروت من أبوين دمشقيين. ونشأ في دمشق وتعلم في مدارسها وعلى يد علمائها، وأولع بكتب الأدب. غادر دمشق على إثر دخول الفرنسيين وحكموا عليه بالإعدام غيابياً، تنقل في البلاد والمناصب، وتولى كثيراً منها للحكومة السعودية. ألف مصنفات أكثرها نافع مهم. توفي بالقاهرة سنة ١٩٧٦ رحمه الله تعالى. انظر «علم الأعلام»: ٨٧ ـ ٨٩.

المحدثين في استنتاج القوانين الاجتماعية والإنسانية من مسار التاريخ[1].



(١) قلت: انظر كلام روزنتال على تاريخ اليعقوبي في كتابه «علم التاريخ عند المسلمين»: ١٨٤ - ١٨٥. ترجمة د. صالح العلي. نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية سنة ١٤٠٣.

موضوع الكتاب

بين الفكر والتطبيق:

يبدو من استهلال المخطوطة أنها مسبوقة بكلام مفقود ـ كما سترى ـ ولكنها بحالها تدور على محور هو عنوان الكتاب، حيث يصور العنوان الفكرة، ويمثل الكتاب التطبيق.

والفكرة ناتجة عن استقراء للمعتاد من التبعية بالتقليد، يسرع بها العامة للخاصة في جميع العصور والأقطار.

والتقليد من غرائز الإنسان المبكرة منذ الطفولة، وهو وسيلة أولية من وسائل اكتساب المهارات والمعارف، دون تفريق ـ أو بتفريق ـ بين الضار والنافع؛ إذ يقلد الإنسان أحياناً فيما يجره نحو حتفه.

والحامل على التقليد الاستهواء، أو تقدير المنفعة، أو حب إظهار القدرة، أو النفاق على وجه التقية أو المجاملة.

وكما يتخذ الأطفال من الأهل والأساتذة نماذج عليا يقلدون ما يستهوي عقولهم منها، فإن الشعوب مع الملوك والرؤساء كالأطفال مع الآباء في ذلك التقليد، ولهذا يكون من واجب الكبار لله، ثم للأمة والتاريخ، أن تكون مظاهر حياتهم وسلوكهم على النهج المرضي، حتى لا ينحدروا بالتابعين والرعايا المقلدين عن مستوى النبلاء الناهضين الذين يقدرون حرمة الدين والإنسان والحياة.

لهذا شددت رسالة الإسلام على ضمير الراعي ليعرف قيمة التبعة، وليعلم أنه مسؤول أمام الله عن رعيته حفظ أم ضيع، وأعظمت الجزاء لمَن سنّ سنّة حسنة فله أجرها وأجر مَن عمل بها إلى يوم القيامة، ولمن سنّ سنّة سيئة فعليه وزرها ووزر مَن عمل بها إلى يوم القيامة.

هذه الحقيقة الثابتة بالاستقراء «مشاكلة الناس لزمانهم» وعلى رأس الزمان السادة من ملوك وحكام، مثل لها اليعقوبي في فترة من عمر البشر. وفي قطاع من التاريخ الإسلامي. يبدأ بخلفاء الإسلام وأولهم أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه وينتهي بالخليفة المعتضد الذي وُلِّي الخلافة سنة ٢٧٩هـ، وهو آخر الخلفاء في حياة المؤلف.

أثبت المؤلف على مد هذه الفترة تطبيق المثال على الحقيقة من مشابهة الناس للحاكم، واقتدائهم به في الظواهر العامة للسلوك.

هذه الظاهرة أو الحقيقة الاجتماعية في تاريخ البشر لا ينفرد اليعقوبي بالحديث عنها؛ إذ هي تفصيل في كتابه لما أجمل قبله في قولهم: الناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم.

وقولهم: الناس على دين ملوكهم. وقد نلمح مغزى هذه الظاهرة في القول الشائع:

إذا كان رب البيت بالدف ضارباً ... فشيمة أهل البيت كلهم الرقص

وممن تحدّث في المعنى دون تفصيل ابن طَباطَبا العلوي[1] في كتابه «تاريخ الدول الإسلامية» حيث يقول في خواص الملوك:

«واعلم أن للملك أموراً تخصه، يتميز بها عن السوقة، فمنها أنه إذا أحبّ شيئاً أحبّه الناس، وإذا أبغض شيئاً أبغضه الناس، وإذا لهج

(١) قلت: هو الشريف أبو محمد عبدالله بن أحمد بن علي الحسني المدني ثم المصري. كان محتشماً، ذا أموال وضياع وعقار، وكان يصلح للخلافة، وله جلالة عجيبة. توفي سنة ٣٤٨ رحمه الله تعالى. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٥/٤٩٦ - ٤٩٧.

بشيء لهج به الناس، إما طبعاً أو تطبُّعاً، ليتقربوا بذلك إلى قلبه، ولذلك قيل: الناس على دين ملوكهم. فانظر كيف كان زي الناس في زمن الخلفاء، فلما ملكت هذه الدولة وأسبغ الله إحسانها، وأعلى شأنها، غيَّر الناس زيهم في جميع الأشياء، ودخلوا في زي ملوكهم بالنطق واللباس والآلات والرسوم والآداب، من غير أن يكلفوهم ذلك أو يأمروهم به، أو ينهوهم عنه. ولكنهم علموا أن زيهم الأول مستهجَن في نظرهم، منافٍ لاختيارهم، فتقرّبوا إليهم بزيهم، وما زال الملوك في كل زمان يختارون زيًّا وفناً فيميل الناس إليه، ويلهجون به، وهذا من خواص الدولة وأسرار الملك»[1].

والثعالبي[2] في كتابه «الغرر في سِيَر ملوك الفرس» يذكر مقتطفات من كتاب «البدء والتاريخ» للمطهر[3]، عن أديان الهنود وعاداتهم وقوانينهم فيقول:

«إن الكلام على هذه الأمور هو كالكلام على ملوكهم؛ لأن الناس على دين ملوكهم، وخاصة الهنود الذين يضحُّون بأنفسهم من أجل إعلاء ملوكهم...»[4].

كما كتب ابن خلدون (ت٨٠٨هـ)[5] فصله الثالث والعشرين من

---

(١) تاريخ الدول الإسلامية: ٢٦.

(٢) قلت: هو العلامة، شيخ الأدب، أبو منصور عبدالملك بن محمد بن إسماعيل النيسابوري الشاعر، له مصنفات كثيرة، وكان رأساً في النظم والنثر. توفي سنة ٤٣٠، وله ثمانون سنة. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٤٣٧/١٧ ـ ٤٣٨.

(٣) قلت: هو المطهر بن طاهر المقدسيّ، ألف تاريخه سنة ٣٥٥، ووضعه بمنظار فلسفي. انظر وصف الكتاب في «علم التاريخ عند المسلمين»: ١٦١.

(٤) علم التاريخ عند المسلمين: ١٣١ عن مخطوطة الغرر ٢٤٧ ـ باريس.

(٥) قلت: هو الشيخ عبدالرحمن بن محمد بن محمد، ولي الدين، أبو زيد الحضرمي الإشبيليّ الأصل، التونسي ثم القاهريّ المالكيّ، ولد سنة ٧٣٢، بتونس، حفظ القرآن وعدة كتب، وطلب العلم على مشايخ عدة، واعتنى بالأدب وحفظ عدداً من دواوين=

مقدمته «في أن المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب: في شعاره، وزيه، ونِحْلته، وسائر أحواله وعوائده»[1].

(والسبب في ذلك أن النفس أبداً تعتقد الكمال في مَن غلبها وانقادت إليه، إما لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه، أو لما تغالط به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعي، إنما هو لكمال الغالب، فإذا غالطت بذلك واتصل لها اعتقاداً فانتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبَّهت به، وذلك هو الاقتداء. أو لما تراه - والله أعلم - من أن غلب الغالب لها ليس بعصبية ولا قوة بأس، وإنما هو بما انتحلته من العوائد والمذاهب، تغالط أيضاً بذلك عن الغلب، وهذا راجع للأول.

ولذلك ترى المغلوب يتشبّه أبداً بالغالب في ملبسه، ومركبه، وسلاحه، في اتخاذها وأشكالها، بل وفي سائر أحواله.

وانظر في الأبناء مع آبائهم: كيف نجدهم متشبهين بهم دائماً، وما ذلك إلا لاعتقادهم الكمال فيهم، وانظر إلى كل قطر من الأقطار: كيف يغلب على أهله زي الحامية وجند السلطان في الأكثر، لأنهم الغالبون لهم، حتى إنه إذا كانت أمة تجاور أخرى ولها الغلب عليها، فيسري إليهم من هذا التشبُّه والاقتداء حظ كبير، كما هو في الأندلس لهذا العهد مع أمم الجلالقة، فإنك تجدهم يتشبّهون بهم في ملابسهم وشاراتهم، والكثير من عوائدهم وأحوالهم، حتى في رسم التماثيل في الجدران والمصانع والبيوت، حتى لقد يستشعر من ذلك الناظر بعين الحكمة أنه من علامات الاستيلاء، والأمر لله. وتأمل في هذا سر قولهم: «العامة على دين الملك» فإنه من بابه؛ إذ الملك غالب لمَن

= الشعر، وارتحل إلى عدة بلدان. قدم القاهرة سنة ٧٨٤ فأكرم وولي قضاء المالكية بالديار المصرية. ألف تاريخاً وقدم له بمقدمة اشتهرت بمقدمة ابن خلدون. توفي بالقاهرة سنة ٨٠٦ رحمه الله تعالى، انظر «الضوء اللامع» ١٤٥/٤ - ١٤٩.

(١) مقدمة ابن خلدون: ١٤٧.

تحت يده، والرعية مقتدون به لاعتقاد الكمال فيه اعتقاد الأبناء بآبائهم، والمتعلمين بمعلميهم...).

خصوصية الملك:

غير أن للملوك مع هذا نزعة حب التفرُّد ببعض المزايا، التي لا يحبون المشاركة فيها، لأنهم يرون في مشاركتهم انتقاصاً لعظمتهم، كما يشير الجاحظ (ت٢٥٥هـ) إذ يقول[١]:

«فأما كل ما أمكن الملك أن ينفرد به دون خاصته وحامته، فمن أخلاقه أن لا يشارك أحداً فيه. وكذا حُكي عن أنو شروان[٢] ومعاوية بن أبي سفيان. وبعض أهل العلم يحكي عن الرشيد ما يقرب من هذا».

«ألا ترى أن الأمم الماضية من الملوك لم يكن شيء أحبَّ إليهم من أن يفعلوا شيئاً تعجز عنه الرعية، أو يتزيوا بزي ينهون الرعية عن مثله؟».

فمن ذلك أردشير بن بابك، وكان أنبل ملوك بني ساسان[٣]، كان إذا وضع التاج على رأسه لم يضع أحد في المملكة على رأسه قضيب ريحان متشبهاً به، وكان إذا ركب في لبسه لم يُرَ على أحد مثلها، وإذا تختّم بخاتم فحرام على أهل المملكة أن يتختموا بمثل ذلك الفص وإن بَعُدَ في التشابه.

وطاعة أهل المملكة أن تتحامى أكثر زي الملك، وأكثر أحواله وشيمه، حتى لا يأتي ما لا بد لها منه.

---

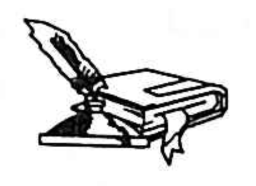
(١) التاج المنسوب للجاحظ: ٥٥ ـ وقد نقل الأبشيهي كلامه دون نسبته في (المستطرف: ١: ١٠٨).

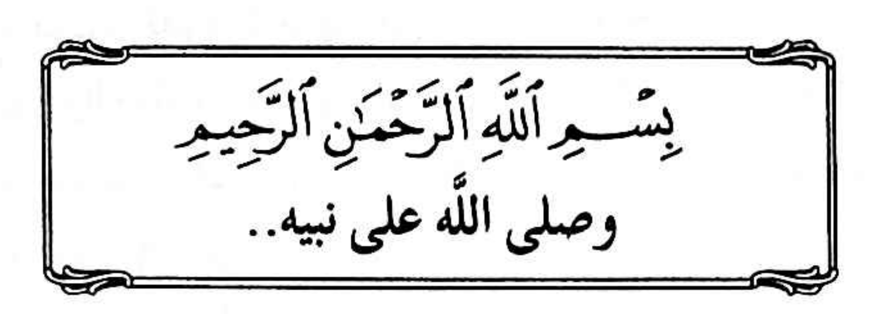
(٢) قلت: هو أحد ملوك الفرس الأكاسرة.

(٣) قلت: أي الفرس الأكاسرة.

إلا أننا إلى يوم الناس هذا، نجد الصورة العامة التي رسمها اليعقوبي لتلك المتابعة، فالدولة التي ينضبط سلوك حكامها على سنن الشريعة والقانون، تقود شعبها في استقامة وحزم، والتي يصيبها في السادة التحلُّل والغفلة، يصيبها في شعبها ما أصاب السادةَ من غيبوبة عن الهدى، فترتدي ألف زي من الأخلاق واللباس والمعاملة، وإذ غلب العرب على البلاد المفتوحة رأينا زي العرب ولغة العرب تسود المغلوب، وإذ غلب الأتراك رأينا مظهر الأتراك يسود سواد الحياة في الزي والمراسم والعادات، وقد شهدنا بعض الملوك يعفي لحيته لعلة في البشرة، فيسري إعفاء اللحى في شعبه بما لم يفعله وازع العقيدة. وإلى عهد قريب كان الدخول من المرؤوس على الرئيس بلا طربوش جناية وقحة، ومن عهد قريب عريت عنه رؤوس الحكام فعريت رؤوس الأتباع.

تلك هي الفكرة لكتاب اليعقوبي، وهذا هو التطبيق.





كتاب
مشاكلة الناس لزمانهم، وما يغلب عليهم في كل عصر

قال الشيخ الإمام الحافظ العلامة أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن واضح رحمه الله:

فأما الخلفاء وملوك الإسلام، فإن المسلمين في كل عصر تبع للخليفة، يسلكون سبيله، ويذهبون مذاهبه، ويعملون على قدر ما يرون منه، ولا يخرجون عن أخلاقه وأفعاله وأقواله.

أبو بكر:

فكان أبو بكر بعد رسول الله ﷺ أزهد الناس، وأشدهم تواضعاً وتقلُّلاً في لباسه، وكان يلبس ـ وهو الخليفة ـ الشملة والعباءة. وقدمت عليه أشراف العرب وملوك اليمن وعليهم التيجان وبرود الوَشْي[1] والحِبَر[2]، فلما رأى القوم تواضعه ولباسه نزعوا ما كان عليهم، وذهبوا مذهبه، واقتفوا أثره.

---

(١) قلت: هي الثياب المنقوشة. انظر «المعجم الوسيط»: و ش ى.

(٢) قلت: الحِبَرَة ثوب من قطن أو كتان مخطَّط يُصنع في اليمن. انظر «المعجم الوسيط»: ح ب ر.

وكان ذو الكَلاع ملكُ حمير[1] فيمن قدم على أبي بكر في عشيرته وقومه وعليه التاج، فلما رأى لباس أبي بكر قال: ما ينبغي أن نفعل بخلاف ما عليه خليفة رسول الله ﷺ فنزع لباسه الأول وتشبّه بأبي بكر، حتى إنه رئي في سوق المدينة يحمل جلد شاة على قفاه، فقالت له عشيرته وقومه: فضحتنا! أنت سيدنا! تحمل جلد شاة بين المهاجرين والأنصار؟

قال: فأردتم مني أن أكون جباراً في الجاهلية جباراً في الإسلام؟

وكان الأشعث بن قيس ملك كِندة[2] يلبس التاج، ويُحيا بتحية الملوك فلما أسلم بعد ارتداده وزوَّجه أبو بكر أخته أم فروة بنت أبي قحافة تواضع بعد التكبُّر، وتذلّل بعد التجبُّر، حتى كان يشد عليه شَمْلة خَلِقة[3]، ثم يهنأ البعير[4] بيده. تشبُّهاً بأبي بكر، واطّراحاً للأخلاق التي كان عليها في الجاهلية.

وكان أبو بكر ـ رحمه الله ـ لا يحمل أحداً من الأشراف على التجاوز، حتى إنه بلغه عن أبي سفيان بن حرب أمر يكرهه، فدعا به فجعل يصيح عليه وأبو سفيان يتذلّل له ويتواضع بين يديه، وأقبل أبو قحافة يقوده قائده ـ وكان قد عمي ـ فسمع صياح أبي بكر. فقال لقائده: على مَن يصيح أبو بكر؟ قال: على أبي سفيان بن حرب. قال

---

(1) قلت: هو ذو الكَلاع الأصغر سميفع بن ناكور بن عمرو بن يعفر بن ذي الكلاع الأكبر، أبو شراحيل الحميريّ، من ملوك اليمن المعروفين بالأذواء. كان في أواخر العصر الجاهليّ، ولما ظهر الإسلام أسلم ولم ير النبي ﷺ، شهد وقعة اليرموك وفتح دمشق، وسكن حمص، وتولى قيادة أهلها في جيش معاوية رضي الله عنه يوم صفين فقتل بها سنة ٣٧ رحمه الله تعالى. انظر «الأعلام» ٣/ ١٤٠.

(2) قلت: هو الأشعث بن قيس بن معدي كِرب الكنديّ، أبو محمد، نزل الكوفة، مات سنة أربعين أو إحدى وأربعين وهو ابن ثلاث وستين سنة. انظر «التقريب»: ١١٣.

(3) قلت: أي ثوباً بالياً يتلفّف به، انظر «المعجم الوسيط»: ش م ل.

(4) قلت: أي يطليه بالقطران الذي هو دواء الجَرَب.

أبا عتيق: أعلى أبي سفيان ترفع صوتك؟ لقد تعدّيت طورك! فقال: يا أبتِ: إن الله قد رفع بالإسلام قوماً ووضع آخرين.

عمر:

وكان عمر بن الخطاب ـ رحمه الله ـ مع تواضعه وخشونة ملبسه ومطمعه شديداً في ذات الله، فكان عماله وسائر مَن يحضره أو يغيب عنه يتشبّهون به، ولا يفارق أحد مذهبه.

وكان يلبس الجبّة الصوف ويشتمل بالعباءة. ويهنأ البعير[1]، ويحمل قربة الماء على ظهره لأهله، وكان العامل من عماله وهم أمراء الأمصار، وقد فتح الله عليهم، وخوّلهم، ومكّن لهم، وأغناهم، وكفاهم يخلعون النعال، ويلبسون الخفاف، ويلبسون غلاظ الثياب، وإذا قدموا عليه قدموا شُعثاً، غبراً، غلاظاً ثيابهم، شحبة ألوانهم، فإن رآهم، أو بلغه عنهم غير ذلك أنكره عليهم. وكان ركوبهم الإبل أكثر من ركوبهم للخيل على التشبُّه بعمر وسلوك فعله، وما كانوا عليه على عهد رسول الله ﷺ، حتى إنه رئي على أبي عبيدة بن الجراح ـ وهو أمير الشام وقد فتحها الله عليه ـ جبة صوف قد تغيّرت رائحتها، فقال أبو عبيدة: لقد جلست إلى رسول الله ﷺ فيما هو أشد رائحة من هذا فما أنكره[2].

وكان سلمان الفارسي عامل عمر بن الخطاب على المدائن،

---

(١) يطلي البعير بالهناء وهو القطران ليبرأ من جربه.

(٢) الحق أن الإسلام لم يفرض هذا الزهد البالغ في طيبات الحياة من الحلال على أحد، وقد كان النبيُّ ﷺ ـ وهو إمام الأمة وهاديها إلى الحق ـ أطيب الناس جسماً وثوباً، وكان يرى وبيض الطيب في مفرقه. وإنما هي شدة الخوف من الدنيا وشدة الرجاء في نعيم الآخرة قد صرفت الهمم عما أحل لها، لا تحريماً لما أحلّ الله، بل تواضعاً لجلاله ورجاء لما عنده، وحسب أبي عبيدة إشفاقاً من الدنيا على شدة بلائه أن يقول: وددت أني كبش فذبحني أهلي فأكلوا لحمي وحسوا مرقي رضي الله عنه أمين هذه الأمة أبي عبيدة بن الجراح.

وكان يلبس غليظ الثياب، ويركب الحمارة، وحضرته الوفاة فأتاه سعد بن أبي وقاص فقال له: أوصني يا أبا عبدالله! فقال: نعم، اذكر الله عند همك إذا هممت، وعند لسانك إذا حكمت، عند يدك إذا قسمت! وجعل سلمان يبكي! فقال له: يا أبا عبدالله، ما يبكيك؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن في الآخرة عقبة لا يقطعها إلا المُخِفُّون**» وأرى هذه الأساور حولي، فنظرنا فما رأينا في بيته إلا إداوة، أو ركوة، أو قدراً، أو مطهرة.

وولّى عمر بن الخطابِ عميرَ بنَ سعدٍ الأنصاري جند حمص، فأقام حولاً ثم انصرف على جمله على الحال التي مضى من عند عمر بها، فقال عمر: ويح قوم وُلِّيتَ عليهم ما عرفوا لك حقاً! أو كما قال.

عثمان:

وكان عثمان بن عفان ـ رحمه الله ـ في السماحة، والجود، وصلة الأرحام، ورفع القرابة، واتخاذ المال، على ما كان عليه، فامتثل الناس فعله، فبنى عثمان داره بالمدينة، وأنفق عليها مالاً جليلاً، وشيّدها بالحجارة، وجعل على أبوابه مصاريع الساج، واتخذ أموالاً بالمدينة وعيوناً وإبلاً[١].

قال عبدالله بن عتبة[٢]: كان لعثمان بن عفان يوم مات عند خازنه مائة ألف وخمسون ألف دينار، وألف ألف درهم، وكانت ضياعه بئر أريس، وخيبر، ووادي القرى، وخلف خيلاً وإبلاً.

---

(١) عن عبيدالله بن دارة: (كان عثمان رجلاً تاجراً في الجاهلية والإسلام، وكان يدفع ماله قراضاً. وعن العلاء بن عبدالرحمٰن عن أبيه: أن عثمان دفع إليه مالاً مضاربة على النصف) (٢: ٤١ جـ٣ الطبقات) فلا عجب أن يصنع عثمان رضي الله عنه ما صنع، والله تعالى لم يحرم الكسب الحلال والاستمتاع بالطيبات من الرزق مع أداء حقه تعالى منها.

(٢) قلت: هو عبدالله بن عتبة بن أبي سفيان الأموي المدني. مقبول. انظر «التقريب»: ٣١٣.

وفي أيام عثمان اتخذ أصحاب رسول الله ﷺ الأموال، وبنوا الدور، فبنى الزبير بن العوام داره المشهورة بالبصرة، وفيها الأسواق والتجارات، وبنى الزبير أيضاً داراً بالكوفة، وداراً بمصر، وداراً بالإسكندرية، وبلغ ثمن مال الزبير خمسين ألف دينار، وترك ألف فرس، وألف مملوك، وخِطَطاً بمصر، والإسكندرية، والكوفة، والبصرة.

وبنى طلحة بن عبيدالله دوراً، وعقارات، قُوِّمت بمائة ألف دينار، وكانت غلّته بالعراق في كل يوم ألف واف، وغلته بالشام عشرة آلاف دينار، وبنى داره بالجص والآجر والساج، وترك من الذهب والفضة مالاً جليلاً.

وبنى عبدالرحمٰن بن عوف داره فوسعها، وكان له ألف بعير، وعشرة آلاف شاة، ومائة فرس، وبلغ ربع ثمن ماله أربعة وثمانين ألف دينار.

وبنى سعد بن أبي وقاص داره بالعقيق[1] فشيّدها، وجعل لها شرفات.

قال سعيد بن المسيب[2]: وترك زيد بن ثابت من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفؤوس، ومالاً وضياعاً، وعيوناً، مبلغها مائة ألف وخمسون ألف دينار.

وبنى المقداد قصره بالجرف[3] باللّبِن، وجصّص باطنه وظاهره، وجعل له شرفاتٍ، ولم يفعل هذا أحد من الناس على عهد عمر، وإنما فعلوه بعده.

---

(١) العقيق: من أعظم وديان المدينة.

(٢) قلت: هو سعيد بن المسيّب بن حَزْن القرشي المخزومي. أحد العلماء الأثبات الفقهاء الكبار، قال ابن المديني: لا أعلم في التابعين أوسع علماً منه، مرسلاته أصح المراسيل. مات بعد سنة تسعين وقد ناهز الثمانين رحمه الله تعالى. انظر «التقريب»: ٢٤١.

(٣) قرب المدينة.

علي:

وكان علي بن أبي طالب عليه السلام مشغلاً أيامه كلها بالحرب، إلا أنه لم يلبس ثوباً جديداً، ولم يتخذ ضيعة، ولم يعقد على مال إلا ما كان له بينبع.

وحفظ الناس عنه الخطب؛ فإنه خطب بأربعمائة خطبة حُفظت عنه، وهي التي تدور بين الناس، ويستعملونها في خطبهم وكلامهم.

خلفاء بني أمية

معاوية:

وكان معاوية بن أبي سفيان، فبنى القصور، وشيّد الدور، وأعلى الستور، واتخذ الحرس، واتخذ الشرطة، وأقام الحُجّاب، وبنى المقاصير في المساجد، وركب الدواب الهماليج[1] بالسروج المصفقة، ولبس الخز والوشي، واتخذ الصوافي والضياع، وعُمل له الطراز[2] باليمن، وبمصر والإسكندرية، والرُّها[3]، فاتخذ أهله وولده وعماله ما اتخذ، وفعلوا مثل ما فعل، فبنى عمرو بن العاص داره بمصر، واتخذ لنفسه الضياع، وغرس في ضيعته التي يقال لها: الوَهْط بالطائف ألف ألف عود كرم، فكانت غلته عشرة آلاف ألف درهم. وخلف عمرو يوم مات ثلاثمائة ألف دينار.

وفعل عبدالله بن عامر بن كُرَيْز[4] عامل معاوية بالبصرة مثل

---

(١) قلت: الهِمْلاج: الحسن السَّير في سرعة وبخترة. انظر «المعجم الوسيط»: هـ م ل ج.

(٢) الطراز بالكسر: علم الثوب معرب، وطرزه تطريزاً أعلمه فتطرز... والنمط ثوب نسج للسلطان.

(٣) قلت: هي مدينة أورفة بتركيا اليوم.

(٤) قلت: هو الأمير، أبو عبدالرحمن القرشيّ العَبْشميّ الذي افتتح خراسان، رأى النبي ﷺ وروى عنه حديثاً، وهو ابن خال عثمان رضي الله عنه، وولي له البصرة ثم وفد على معاوية فزوجه بابنته هند، وكان من كبار ملوك العرب وشجعانهم وأجوادهم، وكان فيه رفق وحلم وولاه معاوية البصرة. توفي سنة ٥٩ رضي الله عنه، انظر «سير أعلام النبلاء»: ٣/١٨ ـ ٢١.

ذلك: فحفر الأنهار، وشيّد الدور، وبنى القصور، واتخذ الضياع والأموال والأخبية بالبصرة، وبمكة، والطائف.

وفعل زياد[1] عامل معاوية على العراق ذلك بالكوفة، والبصرة، وسائر العراق، واتخذ الضياع، وبنى وشيّد البنيان، وخلف زياد يوم مات ستة آلاف ألف دينار، فأخذها معاوية. وهكذا كان معاوية يقول لعماله، وربما شاطر ورثته.

وفعل مسلمة بن مُخَلَّد عامل معاوية على مصر[2] مثل ذلك، فاتخذ ضياعاً بمصر وقفها على قومه.

وفعل عقبة بن عامر الجهني[3]، وكان عامل معاوية على مصر، ضياعاً بمصر، وحبس بعضها، وبنى داراً بمصر بالحجارة والجص، وخلف ثلاثين ألف دينار وسبعمائة ألف درهم.

وباع حويطب بن عبدالعزى[4] داراً من معاوية بأربعين ألف دينار، فقيل له: يا أبا محمد، أربعون ألفاً؟ فقال: ما أربعون ألف دينار لرجل عليه ستة من العيال؟

وكان معاوية يقول: أنا فتقت الملك.

---

(١) قلت: هو زياد بن عبيد الثقفيّ، وهو زياد بن سمية، وهو زياد بن أبي سفيان الذي استلحقه معاوية بأنه أخوه. يكنى أبا المغيرة. ولد عام الهجرة، وأسلم زمن الصديق. كان من نبلاء الرجال رأياً وعقلاً وحزماً ودهاءً وفطنة، وكان كاتباً بليغاً، تولى العراق لمعاوية رضي الله عنه، توفي سنة ٥٣ رحمه الله تعالى. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٤٩٤/٣ ـ ٤٩٧.

(٢) قلت: هو مسلمة بن مُخَلَّد بن صامت الخزرجي، توفي بمصر وهو والٍ عليها سنة اثنتين وستين بعد أن تولاها أزيد من خمس عشرة سنة رحمه الله تعالى. انظر «تاريخ ولاة مصر»: ٣٦ ـ ٣٨.

(٣) قلت: هو صحابي مشهور. ولي إمرة مصر لمعاوية ـ رضي الله عنهما ـ ثلاث سنين. وكان فقيهاً فاضلاً، مات في قرب الستين. انظر «التقريب»: ٣٩٥.

(٤) قلت: هو حويطب بن عبدالعزى بن أبي قيس العامريّ، صحابي أسلم يوم الفتح. وكان عارفاً بأحوال مكة. عاش ١٢٠ سنة، ومات سنة ٥٤ رضي الله عنه. انظر المصدر السابق: ١٨٤.

يزيد بن معاوية:

وكان يزيد بن معاوية صاحب طَرْد، وجوارح، وكلاب، ولهو، ومنادمة على الشراب. فغلب ذلك على أصحابه، وفي عصره ظهر الغناء بمكة والمدينة، واستعملت الملاهي، وأظهر الأشراف الشراب[1].

عبدالملك بن مروان:

ثم كان عبدالملك بن مروان[2]. فكان صارماً، حازماً، بخيلاً، يحب الشعر والفخر، والتقريظ والمدح، وكان في عصره فحول

---

(١) قلت: قال الإمام الذهبي:
(ويزيد ممن لا نَسُبّه ولا نحبُّه، وله نظراء من خلفاء الدولتين، وكذلك في ملوك النواحي، بل فيهم مَن هو شر منه، وإنما عظم الخطب لكونه ولِّي بعد وفاة النبيّ ﷺ بتسع وأربعين سنة، والعهد قريب، والصحابة موجودون؛ كابن عمر الذي كان أولى بالأمر منه ومن أبيه وجده).
وقال في موضع آخر: (كان قويًا شجاعاً، ذا رأي وحزم وفطنة وفصاحة، وله شعر جيد، وكان ناصبيًا فظًا غليظاً جلفاً يتناول المسكر ويفعل المنكر، افتتح دولته بمقتل الشهيد الحسين، واختتمها بواقعة الحرة، فمقته الناس، ولم يبارك في عمره): «سير أعلام النبلاء»: ٣٦/٤، ٣٧ ـ ٣٨.
وقال الإمام ابن كثير:
(وقد كان يزيد فيه خصال محمودة من الكرم والحلم والفصاحة والشعر والشجاعة وحسن الرأي في الملك، وكان ذا جمال حسن المعاشرة، وكان فيه أيضاً: إقبال على الشهوات وترك بعض الصلوات في بعض الأوقات وإماتتها في غالب الأوقات).
وقد ذكر ابن كثير رحمه الله تعالى دفاع محمد بن الحنفية رحمه الله تعالى ـ وهو ابن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ـ انظر كل ذلك في «البداية والنهاية»: ٢٣٠/٨ ـ ٢٣٦.

(٢) قلت: هو عبدالملك بن مروان بن الحكم الأمويّ، أبو الوليد المدنيّ ثم الدمشقي. كان طالب علم قبل الخلافة، ثم اشتغل بها فتغير حاله. مات سنة ٨٦ وقد جاوز الستين رحمه الله تعالى. انظر «التقريب»: ٣٦٥.

الشعراء: جرير[1]، والفرزدق[2]، والأخطل[3]، وغيرهم. وكثر الشعر في أيام عبدالملك، وامتدحت الشعراء الأمراء والأشراف وطلبت الثواب.

وكان لعبدالملك إقدام على الدماء ومعاجلة، فكان عماله على مثل مذهبه: الحجاج[4] بالعراق، والمهلب[5] بخراسان، وهشام بن إسماعيل المخزومي بالمدينة[6]، وعبدالله بن عبدالملك بمصر[7]، وموسى بن

---

(١) قلت: هو شاعر زمانه، أبو حَزْرة، جرير بن عطية بن الخَطَفي التميميّ البصريّ. كان قد فُضل على الفرزدق، وقيل: كان عفيفاً منيباً. توفي سنة ١١٠ رحمه الله تعالى. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٤/٥٩٠ - ٥٩١.

(٢) قلت: هو شاعر عصره، أبو فراس هَمّام بن غالب بن صعصعة التميميّ البصريّ. روى عنه بعض الصحابة - رضي الله عنهم - ونظمه في الذروة، وكان أشعر أهل زمانه مع جرير والأخطل النصرانيّ، توفي سنة ١١٠ رحمه الله تعالى. انظر المصدر السابق: ٤/٥٩٠.

(٣) قلت: هو شاعر زمانه، غياث بن غوث التغلبيّ النصرانيّ. حصّل أموالاً جزيلة من بني أمية، ومات قبل الفرزدق بسنوات. انظر المصدر السابق: ٤/٥٨٩.

(٤) قلت: هو الحجاج بن يوسف بن أبي عقيل الثقفيّ، الأمير الشهير، الظالم المبير، ولي إمرة العراق عشرين سنة، ومات سنة ٩٥. وقع كلامه في الصحيحين وغيرهما، وليس بأهل أن يُروى عنه. انظر «التقريب»: ١٥٣.

(٥) قلت: هو المهلب بن أبي صُفرة - واسمه ظالم - بن سارق العَتَكيّ، أبو سعيد البصريّ، من ثقات الأمراء وكان عارفاً بالحرب فكان أعداؤه يرمونه بالكذب، وله رواية مرسلة، قال أبو إسحاق السَبيعيّ: ما رأيت أميراً أفضل منه. مات سنة ٨٢ رحمه الله تعالى. انظر المصدر السابق: ٥٤٩ .وبهذا يتبيّن عدم صحة ما ذكر في المتن، والله أعلم.

(٦) قلت: كان قد تولى عدة مناصب للأمويين، انظرها في «البداية والنهاية»: ٩/٦٠ - ٦١، ٧١، ٧٦، ١٠٠، ١٥٩، ١٦٠، ٣٤٦.

(٧) قلت: هو عبدالله بن عبدالملك بن مروان الأمويّ، أمير مصر. تولاها بعد عبدالعزيز بن مروان. غزا الروم وأنشأ مدينة المِصِّيصة - مدينة على ساحل البحر من ثغور الشام بالقرب من أنطاكية -. توفي سنة مائة بعد أن خلف ثمانين مدأ ذهباً. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٥/١١٣.

نصير اللخمي بالمغرب[1][2]، ومحمد بن يوسف الثقفي أخو الحجاج باليمن[3]، ومحمد بن مروان بالجزيرة والموصل[4]. وكلهم جائر، ظالم، غشوم، عسوف! وكان الحجاج من أظلمهم وأقدمهم على الدماء.

الوليد:

وكان الوليد بن عبدالملك جباراً، عنيداً، ظلوماً. وكان عماله في جميع البلدان على مثل مذهبه فكان عمر بن عبدالعزيز يقول: الوليد بالشام، والحجاج بالعراق، وعثمان بن حيان بالحجاز[5]، ومحمد بن يوسف باليمن، وقُرَّة بن شَريك[6] بمصر، وموسى بن نصير بإفريقية؟ امتلأت الأرض جوراً. ولم نعرف من مذهب الوليد [شيء إلا بناء المساجد][7]، فإنه بنى مسجد دمشق.

---

(١) قلت: قد راجعت كتب التراجم العامة فلم أجد مؤرخاً يعتمد عليه وصمه بظلم، فالله أعلم بما نقله اليعقوبي.

(٢) قلت: هو الأمير الكبير، أبو عبدالرحمن اللخميّ، متولي إقليم المغرب وفاتح الأندلس مع طارق بن زياد، وكان مهيباً حازماً، شجاعاً، فتح الله على يديه كثيراً من بلاد المغرب والأندلس وغنم غنائم عجيبة. انظر تفصيل سيرته في «سير أعلام النبلاء»: ٤/٤٩٦ ـ ٥٠٠.

(٣) قلت: هو أمير اليمن للأمويين، وكان يلعن علياً على المنابر. توفي سنة ٩٠، انظر «البداية والنهاية»: ٩/ ٨٠.

(٤) قلت: هو محمد بن مروان بن الحكم الأمويّ، أمير الجزيرة. كان مُفْرط القوى، شديدَ البأس، موصوفاً بالشجاعة. له حروب ومَصافّات مع الروم مشهودة. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٥/١٤٨.

(٥) قلت: له أخبار موجزة متفرقة في «البداية والنهاية»: ٩/٨٨، ٩٦، ٩٨، ١٦٦.

(٦) قلت: هو القيسي القِنَّسْريّ، نائب ديار مصر للوليد بن عبدالملك. ظالم جبار، عاتٍ فاسق، مات بمصر بعد أن وليها سبعة أعوام سنة ٩٦ .همت الخوارج باغتياله فعلم وقتلهم. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٤/٤٠٩ ـ ٤١٠.

(٧) يخالف هذا قول ابن طباطبا: (وكان شديد الكلف بالعمارات والأبنية واتخاذ المصانع والضياع، وكان الناس يلتقون في زمانه فيسأل بعضهم بعضاً عن الأبنية والعمارات).
قلت: جاءت العبارة في المتن مشوشة، وفي تحقيق المستشرق وليم جاءت مضبوطة فأثبتُّها، والله أعلم.

سليمان بن عبدالملك:

ثم كان سليمان بن عبدالملك بن مروان[1]، فكان صاحب طعام، وأكل كثير يتجاوز المقدار، ولباس الثياب الرقاق، وثياب الوشي: جباباً، وأردية، وسراويلات، وعمائم، وقلانس، فكان لا يدخل أحد من أهل بيته عليه إلا في الوشي. وكذلك عماله، وأصحابه، وخدمه، ومَن في داره. وكان لباسه في ركوبه، وجلوسه، وعلى المنبر. وكان لا يدخل إليه أحد من خدمه إلا في الوشي حتى الطباخ.

عمر بن عبدالعزيز:

ثم كان عمر بن عبدالعزيز بن مروان[2]، فولي بتواضع، ونسك، وزهد، ودين، وتقريب لأهل الفضل، فعزل عمال الوليد، واستعمل أصلح مَن قدر عليه، فكان عماله يذهبون مذهبه، وارتفع عن الناس ما كانوا فيه من الجور والظلم، وترك لعن علي بن أبي طالب عليه السلام[3] على المنابر، وجعل مكانه: اللهم اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك

---

(١) ولي للنصف من جمادى الأولى سنة (٩٦هـ). كانت أيامه ذات فتوح متوالية، وكان غيوراً شديد الغيرة، وكان نهماً، فيقال: إن الطباخ كان يأتيه بالشواء فلا يصبر حتى يبرد، فيأخذه بكمه. وقد أهدى الرشيد إحدى جباب سليمان الملوثة الأكمام بالدهن للأصمعي حين حدثه الأصمعي بخبره، وكان الرشيد يظنه أثر طيب: «١٢٨: تاريخ الدول الإسلامية».

(٢) ولي رضي الله عنه لعشر خلون من صفر سنة (٩٩هـ) (وكان عمر بن عبدالعزيز صاحب عبادة وتلاوة، فكان الناس إذا تلاقوا في أيامه سأل بعضهم بعضاً: ما وردك الليلة؟ وكم تحفظ من القرآن؟ وكم تقوم من الشهر؟). (١٢٧: تاريخ الدول الإسلامية).

(٣) قلت: تخصيص علي رضي الله عنه بقول عليه السلام لا ينبغي، وهو من صنيع الشيعة، واليعقوبيّ منهم.

رؤوف رحيم)[1] فاستعمل الناس ذلك في الخطبة إلى هذه الغاية.

يزيد بن عبدالملك[2]:

وكان يزيد بن عبدالملك هو أول خليفة اتخذ قَيْنَة[3]، وغلبت على أمره امرأة، فكانت حبابة جاريته المغنية تولي وتعزل، وتطلق وتحبس، وتأمر وتنهى! وكان مع ذلك يسرع إلى الدماء والأموال، وعاود عماله ما كانوا عليه من الجور.

هشام[4]:

ثم كان هشام بن عبدالملك بن مروان. كان خشناً، فظًا، غليظاً، بخيلاً، يجمع الأموال، ويعمر الأرض، ويستجيد كل شيء يعمل له من الكسوة والفراش، ويعاقب على التقصير فيه بأغلظ عقوبة، وفي أيامه عُمل الخز والرقم[5].

وكان الناس جميعاً في أيام هشام على مثل مذهبه، في منع ما بأيديهم، وقلة الإفضال، وانقطاع الرِفد، حتى إنه يقال: لم يُر زمان

---

(١) وقيل: إنه جعل مكانه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ الآية، فمدحه بذلك الشعراء ومنهم كثير الذي يقول:

وليت فلم تشتم عليًا، ولم تخف بريًا، ولم تتبع مقالة مجرم

(١٢٩: تاريخ الدول الإسلامية).

(٢) قلت: هو الخليفة أبو خالد القرشيّ الأموي الدمشقي، استخلف بعهد عقده له أخوه سليمان بعد عمر بن عبدالعزيز، ولد سنة ٧١. وكان لا يصلح للإمامة، مصروف الهمة إلى اللهو والغواني. مات سنة ١٠٥ وكانت خلافته أربعة أعوام وشهراً. انظر «سير أعلام النبلاء» ٥/١٥٠ ـ ١٥٢.

(٣) قلت: هي الأمة، وغلب على المغنية من الإماء. انظر «المعجم الوسيط»: ق ي ن.

(٤) قلت: هو الخليفة أبو الوليد القرشي الأموي الدمشقيّ، ولد بعد السبعين واستخلف بعهد معقود له من أخيه يزيد سنة ١٠٥، وكان حريصاً جماعاً للمال، عاقلاً، حازماً سائساً، فيه ظلم مع عدل. مات وله أربع خمسون سنة. انظر المصدر السابق: ٣٥١ ـ ٣٥٣.

(٥) الرقم: ضرب مخطط من النسيج.

أصعب على الناس من زمانه، وذلك أنه منع ما كانت الخلفاء تفعله من البذل، والعطايا، والجوائز، والصلات. فاستعمل الناس ذلك، وسلكوا سبيله، واقتدوا به.

وقال له أبو حازم الأعرج[1]: إنما أنتم سوق يُحمل إليكم ما نفق عندكم.

الوليد بن يزيد:

وكان الوليد بن يزيد بن عبدالملك[2] صاحب شراب ولهو وطرب وسماع للغناء، وهو أول مَن حمل المغنين من البلدان إليه، وجالس الملهين وأظهر الشراب والملاهي والعزف.

وكان في أيامه: ابن سريج المغني، ومعبد، والغريض، وابن عائشة، وابن محرز، وطويس، ودحمان[3]. وغلبت شهوة الغناء على الأشراف، واتخذ الناس العيدان. وكان متهتكاً، ماجناً، خليعاً.

---

(١) قلت: هو الإمام القدوة الواعظ، شيخ المدينة النبوية، أبو حازم سلمة بن دينار المخزومي بالولاء، الزاهد. مات في حدود سنة ١٤٠. انظر «سير أعلام النبلاء» ٩٦/٦ ـ ١٠٣.

(٢) ولي لعشر بقين من ربيع الأول سنة (١٢٥)هـ وقد أدى انهماكه في اللهو ومغاضبته أكابر أهله إلى قتله (٢٥٠: تاريخ الخلفاء).

(٣) هؤلاء السبعة من أشهر المغنين:

ابن سُريج: عبدالله بن سريج، وكنيته أبو يحيى، أول مَن ضرب بالعود على الغناء المتقن بالحجاز بعد طويس. كان يقال: ما خلق الله تعالى بعد داود عليه السلام أحسن صوتاً من ابن سريج، كأنه خُلق من كل قلب فهو يغني لكل إنسان.

ومَعْبِد: هو أبو عبادة معبد بن وهب مولى بن قطر من موالي معاوية، غنّى أول دولة بني أمية ومات أيام الوليد بن يزيد الذي تولى في داره تجهيزه ودفنه، ومشى متجرداً في قميص ورداء وبين يدي سريره إلى قبره. وفيه يقول الشاعر:

أجاد طويس والسريجي بعده ... وما قصبات السبق إلا لمعبد

والغريض: هو عبدالملك وكنيته أبو زيد وقيل أبو مروان، وقد لقب بالغريض لطراوة وجهه. سمعه الوليد بمكة وسُرَّ به، وكانت وفاته أيام سليمان بن عبدالملك. =

مروان بن محمد:

وكان مروان بن محمد بن مروان بن الحكم[1]، فكان في أيامه كلها في لهو ولعب، إلا أنه أول خليفة أظهر العصبية، وأوقعها من المنابر، وكان كاتبه عبدالحميد بن يحيى بن سعد صاحب الرسائل، وكان في أول أمره معلماً، وهو أول مَن أطال الرسائل واستعمل التحميدات في فصول الكتب، فاستعمل الناس ذلك بعده.

ذكر خلفاء بني العباس

أبو العباس السفاح[2]:

ولي أبو العباس أمير المؤمنين، وهو عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب. وكان أول ما فعله فامتثله الناس أنه خطب على المنبر قائماً، وكانت بنو أمية تخطب قعوداً، فناداه الناس: يا ابن عم رسول الله، أحييت سنّة رسول الله ﷺ.

= وابن عائشة: هو محمد بن عائشة ويكنى أبا جعفر ولم يُعرف له أب، أخذ عن معبد ومالك ولم يموتا حتى ساواهما، وكان يفتن كل مَن سمعه حتى ضُرب به المثل.

وابن محرز: هو أبو الخطاب بن محرز مولى بني عبدالدار أخذ عن عزة الميلاء وابن مسجح، وهو أحد الفحول الخمسة الذين ظهروا في الحجاز.

وطُوَيس: هو عيسى بن عبدالله مولى بني مخزوم، أول مَن غنّى بالعربية في المدينة من الموالي وألقى الخَنَثَ بها.

ودحمان: عبدالرحمٰن بن عمر مولى بني ليث بن بكر. استقدمه الوليد فظلّ أثيراً عنده إلى نهايته.

(1) ملك في صفر سنة ١٢٧هـ وكان قد سبقه إبراهيم بن الوليد فلم يلبث غير أربعة أشهر، ومروان هو آخر خلفاء بني أمية، وعنه انتقلت الدولة إلى بني العباس (١٣٨: تاريخ الدول الإسلامية).

(2) قلت: هو أول خلفاء بني العباس - بويع بالخلافة سنة ١٣٢، توفي سنة ١٣٦ رحمه الله تعالى، وقيل عاش ٢٨ سنة، وقيل ٣٣. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٧٧/٦ - ٨٠.

وكان سريعاً إلى الأمر بسفك الدماء، فسفك له الأشعث بالمغرب[1]، وصالح بن علي بمصر[2]، وسفك خازم بن خزيمة[3]، وسفك حُمَيْد بن قَحْطبة بالعراق[4]، وسفك عبدالله بن علي بالشام[5]، وسفك داود بن علي بالحجاز[6]، وسفك يحيى بن محمد أخوه بالموصل[7]، وكان مع ذلك سمحاً، وصولاً، جواداً بالمال.

أبو جعفر المنصور[8]:

وكان أبو جعفر المنصور، عبدالله بن محمد، فكان أول هاشمي

---

(١) قلت: لم أقف له على ترجمة، ولعله محمد بن الأشعث الذي أرسله السفاح إلى إفريقية فقاتل حتى فتحها لهم، انظر «البداية والنهاية»: ٥٦/١٠.

(٢) قلت: هو صالح بن علي بن عبدالله بن عباس الهاشميّ العباسيّ، أبو عبدالملك، أحد الأبطال المذكورين، ولي نيابة دمشق، وأخذ مصر من الأمويين، وقتل مروان بن محمد الحمار آخر خلفائهم، وهزم الروم في وقعة مشهودة. توفي سنة ١٥١ أو التي بعدها وله نحو من ستين سنة: انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٨/٧ ـ ١٩.

(٣) قلت: هو عامل للسفاح، وكان جباراً سفاكاً للدماء، وولي لعدد من الخلفاء بعده ولايات متعددة، وأخباره متفرقة، انظرها في «البداية والنهاية»: ٣١/١٠، ٥٦، ٥٧، ٧٤، ٧٦، ٧٧، ٨٠، ٩٣، ١٠٦، ١٨٣.

(٤) قلت: هو حُميد بن قَحطَبة بن شبيب، ولي مصر لأبي جعفر المنصور ثم صرفه عنها سنة ١٤٤، انظر «تاريخ ولاة مصر»: ٩٠ ـ ٩١.

(٥) قلت: هو عبدالله بن علي بن عبدالله بن عباس، عم السفاح والمنصور، من رجال العلم ودهاة قريش، كان بطلاً شجاعاً، مهيباً، جباراً عسوفاً، سفاكاً للدماء، به قامت الدولة العباسية، وبعد موت السفاح ادعى الخلافة فقاتله المنصور حتى ظفر به وسجنه حتى مات في سجنه سنة ١٤٧، انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٦١/٦ ـ ١٦٢.

(٦) قلت: هو داود بن علي بن عبدالله بن عباس الهاشميّ، عم السفاح، أبو سليمان الأمير، كان ذا بأس وسطوة وهيبة وجبروت وبلاغة، مات سنة ١٣٣ وله ٤٢ سنة. انظر المصدر السابق: ٤٤٤/٥ ـ ٤٤٥.

(٧) قلت: أي أخو السفاح، وقد ولاه على الموصل ثم عزله عنها سريعاً، انظر «البداية والنهاية»: ٥٤/١٠، ٥٥، ٥٦.

(٨) قلت: هو الخليفة أبو جعفر عبدالله بن محمد بن علي الهاشميّ العباسيّ المنصور. ولد سنة ٩٥ تقريباً، وضرب في الآفاق ورأى البلاد، وطلب العلم، كان فحل بني العباس=

أوقع الفرقة بين ولد العباس بن عبدالمطلب وأبي طالب بن عبدالمطلب، حتى قيل: عباسي وطالبي. وقيل: كان ذلك أمر بني هاشم كلهم.

وكان أول خليفة اتخذ المنجمين، وعمل بالنجوم، وكان أول خليفة ترجم الكتب القديمة العجمية، ونقلها إلى اللسان العربي، وفي أيامه ترجم كتاب كليلة ودمنة، وترجم كتاب السندهند(١)، وترجم كتب أرسطا طاليس، وكتاب المجسطي(٢) لبطليموس، وكتاب إقليدس، وكتاب الأرثماطيقي(٣) وسائر الكتب العجمية في النجوم، والحساب، والطب، والفلسفة، وغير ذلك، ونظر فيها الناس. وفي أيامه أيضاً وضع محمد بن إسحاق بن يسار كتب المغازي، ولم تكن قبل ذلك مجموعة ولا معروفة، وكان أول خليفة بنى مدينة فنزلها، وهي مدينة بغداد.

وكان أبو جعفر قد نظر في العلم، وروى الحديث، وكثرت علوم الناس ورواياتهم في أيامه.

وكان أول خليفة استعمل مواليه وغلمانه وقدمهم على العرب، فامتثلت ذلك الخلفاء من ولده بعده.

= هيبة وشجاعة، ورأياً وحزماً، ودهاء وجبروتاً، وكان جماعاً للمال، حريصاً، تاركاً للهو واللعب، كامل العقل. أباد جماعة كباراً حتى توطد له الملك ودانت له الأمم على ظلم فيه ولكنه يرجع إلى إسلام وتدين في الجملة وتصون وصلاة وخير، مع فصاحة وبلاغة وجلالة. أنشأ بغداد. توفي سنة ١٥٨ وله ٦٤ سنة. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٨٣/٧ ـ ٨٩.

(١) السندهند: معناه دهر الدهور، ينسب إلى برهم، وهو من كتب الهند القديمة في الفلك.

(٢) المجسطي: كتاب لبطليموس في علم النجوم والحركات الفلكية اختصره من السندهند.

(٣) الأرثماطيقي: كتاب في علم العدد وأنواعه، والخواص الحسابية، ألفه نيقوماخس الحكيم الفيثاغوري، أبو أرسطو طاليس اليوناني.

المهدي[1]:

وكان المهدي سمحاً، سخياً كريماً جواداً بالأموال، وكان الناس في عصره على مثل مذهبه، واتسع الناس في أيام المهدي في معايشهم، وكان إذا ركب حملت معه البِدَر[2]، فلا يسأله أحد إلا أعطاه بيده فتشبّه الناس به، وكان قصده قتل الزنادقة، وذلك أنهم كانوا قد كثروا، وكان ابن المقفع[3] ترجم من كتب ماني الثنوية[4].

وما وضعه ابن أبي العوراء، وحماد عجرد، ويحيى بن زياد، ومطيع بن إياس[5]، وملأوا به الأرض من كتب الملحدين،

---

(١) قلت: هو أبو عبدالله محمد بن المنصور أبي جعفر عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن عباس الهاشميّ العباسيّ. ولد بأرض فارس سنة ١٢٧. وكان جواداً معطاء، محبباً إلى الرعية، قصاباً في الزنادقة باحثاً عنهم. رد مظالم وأخرج أناساً من السجون وفرق الأموال. وكان غارقاً في اللهو كنحوه من الملوك لكنه خائف من الله، معاد لأولي الضلالة. تملك عشر سنوات ونيفاً، وعاش ٤٣ سنة، ومات سنة ١٦٩. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٧/٤٠٠ ـ ٤٠٣.

(٢) قلت: هي أوعية الأموال من الذهب وغيره.

(٣) قلت: هو عبدالله بن المقفع، الكاتب المشهور بالبلاغة، صاحب الرسائل البديعة، وهو من أهل فارس. كان مجوسياً فأسلم على يد عيسى بن علي عم السفاح وكان مع فضله يُتهم بالزندقة، صنف المصنفات الحسان، قتله أبو جعفر المنصور سنة ١٤٥ فالله أعلم بحاله، انظر «وفيات الأعيان»: ٢/ ١٥١ ـ ١٥٤.

(٤) ماني بن فتق أو فاتك، ظهر زمان سابور بن أردشير، كان مجوسيًا فأحدث ديناً بين المجوسية والنصرانية هو الثنوية: نسبة إلى اثنين أزليين يقودان العالم متساويين في القدم، هما النور والظلمة خالق خير وخالق شر. وقد ترك ماني كتباً كثيرة في بيان مذهبه (٤٩/٢: الملل والنحل).

(٥) اتهم هؤلاء الأربعة بالزندقة والفساد، غير أن من المترجمين من لا يذكر ابن أبي العوراء في الزنادقة.

وهو فليح ابن أبي العوراء مولى بني مخزوم من أهل مكة، أول المغنين الذين رفع المهدي بينه وبينهم الستار فغناه مواجهة. كان من أهل العربدة والشراب.

أما حماد عجرد بن عمر بن يونس فهو من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية. شاعر متهم بالزندقة، وهو ممن نادموا الوليد بن يزيد، وكان بينه وبين بشار أهاج مُقذِعة.

ويحيى بن زياد بن عبيدالله الحارثي شاعر ماجن يرمى بالزندقة، من أهل الكوفة توفي أيام المهدي العباسي. =

وكثرت الزنادقة، وفشت كتبهم في الناس.

وكان أول خليفة أمر المتكلمين أن يضعوا الكتب على أهل الإلحاد.

وبنى المسجد الحرام على ما هو عليه إلى هذه الغاية.

وبنى مسجد رسول الله ﷺ وكانت الزلازل هدمته.

موسى بن المهدي:

ثم كان موسى بن المهدي[1]، فكان جباراً، وكان أول خليفة مشت الرجال بين يديه بالسيوف المسللة والعمد، والقِسِيّ الموترة[2]، فتشبّه عماله به، وذهبوا مذهبه.

هارون الرشيد:

ثم كان هارون الرشيد بن المهدي، فكان متابعاً للحج والغزو، وبنى المصانع[3] والقصور في طريق مكة والمدينة، وبمكة والمدينة ومنى وعرفات. وبنى ثمانية ثغور: مثل طرسوس وغيرها، وبنى دوراً للمرابطين، فتشبّه أهله وعماله وأصحابه وكتّابه به، فلم يبقَ أحد إلا بنى بمكة داراً، وبالمدينة داراً، وبطرسوس داراً، تشبُّهاً به، وعملاً بمثل عمله، وكان أكثرهم لذلك فعلاً، وأحسنهم أثراً، زوجته أم جعفر بنت جعفر بن المنصور، ثم البرامكة وزراؤه، وغيرهم من مواليه.

= ومطيع بن إياس الكناني شاعر ماجن متهم بالزندقة كان صديقاً لحماد عجرد توفي أيام المهدي كذلك.

(1) هو موسى الهادي، بويع سنة (١٦٩هـ) وكان (متيقظاً، غيوراً، كريماً، شهماً، شديد البطش، جريء القلب، مجتمع الحس، ذا إقدام وعزم وحزم) (١٨٩: تاريخ الدول الإسلامية).

(2) القسي: جمع قوس: من آلات القتال. والموترة: المجهزة بشد أوتارها استعداداً لاستعمالها.

(3) قلت: المصانع: المباني من القصور والحصون، والقرى والآبار وغيرها من الأماكن العظيمة، وفي التنزيل العزيز: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ انظر: «المعجم الوسيط»: صنع.

وكان الرشيد مع ذلك أول خليفة ضرب بالصوالجة، والطباطب، ورمى بالنِّشاب[1]، وقدم أهل الحذق بذلك، وأول خليفة لعب بالشطرنج والنرد، وقدم اللعاب، وأجرى عليهم الأرزاق، وأول خليفة اتخذ القيان[2] من بني هاشم، فتشبّه الناس جميعاً به[3]، وسلكوا سبيله، وكان وزراؤه من البرامكة، فكان الحسن بن خالد[4] يحب الحكمة والكلام والنظر، ففي أيامه كثر المتكلمون، وجادلوا، وناظروا، ووضعوا الكتب.

فكانت البرامكة سمحاء كرماء، أجواداً معطين مفضلين، فتشبّه عمالهم والناس جميعاً بهم، حتى إن أيام الرشيد كانت تسمى لكثرة مَن كان بها من المفضّلين أيام العرس.

---

(١) الصوالجة: جمع صولجان وهو المِحْجن: عود معوج الطرف يجذب به الشيء. والطباطب جمع طبطابة: خشبة عريضة تلعب بها الكرة. والنِّشاب: النبل، مفرده نُشّابة بالتاء.

(٢) أخذ الرشيد بحظ من الدنيا لم ينسه عمل الآخرة، وتاريخه حافل بالبر والصلاح وتكريم العلماء والواعظين، والبكاء الناشىء عن سرعة التأثر كلما سمع أو رأى ما يذكر بالموت والدار الآخرة. قال الأصمعي: صنع الرشيد طعاماً، وزخرف مجالسه، وأحضر أبا العتاهية، وقال: صف لنا ما نحن فيه من نعيم الدنيا فقال:

عش ما بدا لك سالماً ... في ظل شاهقة القصور

فقال الرشيد: أحسنت! ثم ماذا؟ فقال:

يُسعى إليك بما اشتهيت ... لدى الرواح أو البكور

فقال: حسن! ثم ماذا؟ فقال:

فإذا النفوس تقعقعت ... في ظل حشرجة الصدور

فهناك تعلم موقناً: ... ما كنت إلا في غرور

فبكى الرشيد، فقال الفضل بن يحيى: بعث إليك أمير المؤمنين لتسره فحزنته، فقال الرشيد: دعه فإنه رآنا في عمى فكره أن يزيدنا منه (١٩٣: تاريخ الدول الإسلامية) وأحاديث الوعاظ معه كثيرة رائقة.

(٣) قلت: لم أجد أعدل من قول الإمام الذهبي فيه: (محاسنه كثيرة، وله أخبار شائعة في اللهو واللذات والغناء، الله يسمح له) توفي سنة ١٩٣: «سير أعلام النبلاء»: ٩/٢٩٠.

(٤) قلت: لم أقف على ترجمته.

وأفعال البرامكة مشهورة معروفة، ولم يكن في ناحية الرشيد إلا مفضل إما حقيقة وإما على التشبيه.

وكان الرشيد أول خليفة كتب في صدور الكتب: (وأسأله أن يصلي على محمد عبده ورسوله ﷺ) فامتثلت الخلفاء ذلك بعده، وأول خليفة يلبس القَلَنْسُوَة الطويلة الرصافية، وأول خليفة كتب على الأعلام السود بالبياض (لا إله إلا الله محمد رسول الله).

أم جعفر:

وأما أم جعفر بنت جعفر بن المنصور، فإنها كانت تريد أن تتقدّم الرشيد في كل شيء من جد وهزل، فأما الجد فالآثار الجميلة التي ليس في الإسلام مثلها: فإنها حفرت عين المشاش، وساقتها اثني عشر ميلاً إلى مكة، وأنفقت عليها ألف ألف وسبعمائة ألف دينار، ثم اتخذت المصانع، والسقايات، والمتوضآت حول المسجد الحرام، وبنت دور السبيل، ومصانع بمنى وعرفات، وسقايات، وحفرت آباراً في منى على طريق مكة، ووقفت على ذلك ضياعاً غلتها ثلاثون ألف دينار في السنة، وبنت في الثغور دور السبيل، وعملت البيمارستانات[1] وحبست ضياعاً على الثغور، وعلى الفقراء والمساكين، غلتها مائة ألف دينار.

وأما ما يتليّن به الملوك وينعمون به، فهي أول مَن عمل في الإسلام الآلة من الذهب والفضة المكللة بالجوهر، واتخذت رفيع الوَشْي، حتى بلغ ثوب وشي عمل لها خمسين ألف دينار، وأول مَن اتخذ الشاكرية من الخدم والجواري: يركبون الدواب ويختلفون برسائلها وكتبها. وأول مَن عمل القباب بالفضة والآبنوس والصندل، ورايتها وكلاليبها من الذهب والفضة، ملبسة الوشي والسمور والديباج والخز

(١) قلت: هي المستشفيات.

والمُلْحَم[1] والدَّبِيْقي[2]، وأول مَن اتخذ القمص اللؤلؤ مفصلة بالجوهر وشمع العنبر، وتشبّه الناس بأم جعفر في جميع أفعالها.

محمد الأمين:

وكان محمد الأمين بن الرشيد، وأمه أم جعفر، فقدم الخدم وآثرهم، ورفع منازلهم، فلما رأت أم جعفر اصطفاءه الخدم، اتخذت الجواري المعدودات الحسان الوجوه، فطرت[3] رؤوسهن، وجعلت لهن الطرر والأصداغ وشعور الأقفاء، وألبستهن الأقبية والمناطق[4]. وكانت أول مَن فعل ذلك، وبعثت بهن إليه، وأبرزتهن للناس.

فاتخذ الناس من الخاصة والعامة الجواري المطرورات، وألبسوهن الأقبية والمناطق، وسموهن الغلاميات[5]، وقصرت أيام محمد حتى قُتل[6].

المامون[7]:

وكان المأمون أمير المؤمنين ابن الرشيد، فكان في أول خلافته

---

(١) قلت: هو جنس من الثياب يختلف نوع سداه ونوع لُحمته [أي يختلف باطنه وظاهره] كالصوف والقطن، أو الحرير والقطن. انظر: «المعجم الوسيط»: ل ح م.

(٢) قلت: نسبة إلى دبيق: قرية بمصر.

(٣) الطرة بالضم. . أن تُقطع للجارية في مقدم ناصيتها كالعلم تحت التاج «القاموس المحيط».

(٤) المناطق: جمع منطقة أو منطق على وزن مكنسة أو منبر، ما يشد به الوسط. والأقبية: جمع قباء بفتح القاف، ثوب خارجي ذو شكل معين كالجبة.

(٥) نسبة إلى الغلام للمشابهة في المظهر.

(٦) قلت: قد خلع أخاه المأمون من ولاية العهد سنة ١٩٤ وأمر بالدعاء لابنه موسى بها ولامه الناس فلم يسمع، وجرت له حوادث حتى قُتل سنة ١٩٨ بعد أن عاش ٢٧ سنة. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٩/٣٣٤ ـ ٣٣٩.

(٧) قلت: هو الخليفة عبدالله بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور العباسيّ، ولد سنة ١٧٠، واستخلف سنة ١٩٨، توفي سنة ٢١٨، ودعا إلى القول بخلق القرآن وألزم العلماء وأكرههم فكانت زلة كبيرة منه، كان يحب العفو، وعادلاً، قارئاً للعلم والأدب. انظر المصدر السابق: ١٠/٢٧٢ ـ ٢٩٠.

يغلبه الفضل، يستعمل النجوم والنظر فيها، ويذهب مذاهب ملوك الفرس، ويشتهي قراءة الكتب القديمة، فلما قدم العراق اطَّرح ذلك، وأظهر القول بالعدل والتوحيد[1]، وجالس المتكلمين والفقهاء والأدباء وأقدمهم من البلدان، وأجرى لهم الأرزاق، فكثر المتكلمون في أيامه، ووضع كل امرىء كتاباً ينصر قوله ويرد على مَن خالفه.

وكان أكرم الناس عفواً، وأشفقهم مقدرة، وأجودهم بالمال، وأبذلهم للعطايا.

فأما عفوه: فإنه عفا عن إبراهيم بن المهدي[2] وقد خلعه إبراهيم بعد أن كان عامله على البصرة، ودعا لنفسه، وتسمّى بأمير المؤمنين، وحارب أصحابه.

وعفا عن الفضل بن الربيع[3]، وهو الذي كان حمل محمداً[4] على خلعه من ولاية العهد، ووجّه الجيوش لمحاربته، ثم أعطاه الأمان فنكث ودعا الناس إلى البيعة لإبراهيم بن المهدي[5].

وعفا عن سليمان بن أبي جعفر بن سليمان[6] وقد خلعه وقال فيه أقبح القول.

---

(١) قلت: وذلك من أصول المعتزلة، ويعنون بالتوحيد نفي الصفات عن الله تبارك وتعالى.

(٢) قلت: هو الأمير الكبير، أبو إسحاق الملقب بالمبارك، إبراهيم ابن أمير المؤمنين محمد بن أبي جعفر الهاشمي العباسي الأسود، ويُعرف بالتنين للونه وضخامته، كان فصيحاً بليغاً، عالماً، أديباً، شاعراً، رأساً في فن الموسيقى، توفي سنة ٢٢٤ رحمه الله تعالى. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٠/٥٥٧ ـ ٥٦١.

(٣) قلت: هو الفضل بن الربيع بن يونس، الأمير الكبير، حاجب الرشيد. كان من رجال العالم حشمة وحزماً ورأياً، توفي سنة ٢٠٨، وهو في عشر السبعين. انظر المصدر السابق: ١٠/١٠٩ ـ ١١٠.

(٤) هو محمد الأمين أخو المأمون.

(٥) قلت: ذكر الذهبي عكس ما ذكره اليعقوبي، فقد ذكر أن الفضل لم يقم مع إبراهيم بن المهدي ولذلك عفا عنه المأمون. انظر المصدر السابق.

(٦) قلت: لم أقف على ترجمته.

وعفا عن نعيم بن خازم[1] وقد أقام يحاربه عدة سنين.

وعفا عن عيسى بن محمد بن أبي خالد ـ وقد نكث بيعته مرة بعد أخرى وحارب أصحابه ـ حتى صار صاحبَ شرطته[2].

وعفا عن سهل بن سلامة المطوعي[3]، وكان يلبس الصوف، ويعلق المصحف في عنقه، ويأمر الناس بخلع المأمون، وألا يعطيه أحد طاعة.

وعفا عن مهدي بن علوان الساري[4]، وقد تسمّى بأمير المؤمنين، وحارب أصحابه، فظفر به بغير عصمة ولا أمان.

وعفا عن دِعْبِل الشاعر[5] وقد هجاه بأقبح هجاء[6].

وعفا عن عبيدالله بن السَرِيّ بن الحكم المتغلب على مصر[7]، وقد أقام يحاربه عدة سنين.

---

(1) قلت: لم أقف على ترجمته.

(2) قلت: وولاه أذربيجان أيضاً، انظر «البداية والنهاية»: ١٠/٢٥٠، ٢٥٥.

(3) قلت: التف عليه جماعة من الناس يقومون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولكن جاوزوا الحد، وأنكروا على السلطان، ودعوا إلى القيام بالكتاب والسنة، وصار بابه كأنه باب سلطان عليه السلاح والرجال، فقاتله الجند، وأخذه إبراهيم بن المهدي فسجنه سنة كاملة، انظر المصدر السابق: ١٠/٢٤٨.

(4) قلت: هو خارجي بعث إليه إبراهيم بن المهدي ـ الذي كان بويع بالخلافة ثم ظفر به المأمون فعفا عنه كما تقدم ـ جيشاً عليه المعتصم فكسره ورد كيده. انظر «البداية والنهاية»: ١٠/٢٤٨.

(5) قلت: هو دعبل بن علي، الخزاعيّ، أبو علي، شاعر زمانه. كان من غلاة التشيع، وله هجو مُقْذِع. توفي سنة ٢٤٦. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١١/٥١٩.

(6) من هجاء دِعْبِل للمأمون قوله:

إني من القوم الذين سيوفهم ... قتلت أخاك وشرفتك بمقعد

شادوا بذكرك بعد طول خموله ... واستنقذوك من الحضيض الأوهد

فلما بلغه لم يزد على أن قال: قاتله الله ما أشد بهتانه متى كنت خاملاً وفي حجر الخلافة نشأت وبدَرِّها أرضعت؟ (٢٠: تاريخ الدول الإسلامية).

(7) قلت: له قصة طويلة في «تاريخ ولاة مصر» للكنديّ: ١٣٧ ـ ١٤١.

وعفا عن محمد بن جعفر بن محمد العلوي، وقد خرج بمكة وتسمّى بأمير المؤمنين[١].

وعفا عن زيد بن موسى بن جعفر[٢]، وقد خرج بالبصرة وخلع المأمون.

وعفا عن إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد العلوي[٣]، وقد خرج باليمن وحارب الجلودي[٤].

وعفا عن جميع المتغلبين ممن لو ذكرناه لطال الكتاب. وقال: حُبّب إليَّ العفو حتى ما أراني أُوجر عليه[٥]!

وأما الجود والسماحة: فإنه أمر في يوم واحد لثلاثة نفر بألف ألف وخمسمائة ألف دينار، لكل واحد خمسمائة ألف دينار. وقلّ المال في بيت المال، فجمع أصحابه وقال: إنه قد قلَّ وأضرّ ذلك بنا وبأوليائنا، فاستقرضوا لنا من التجار مقدار عشرة آلاف درهم إلى أن تأتي الأموال فنردها. فقام غسان بن عباد فذكر ما أنعم به عليه، وعرض ثلاثين ألف ألف درهم، وقال: هي حاصلة عندي، وقام حميد بن عبدالحميد الطوسي وقال مثل ذلك، وقام مَن حضر من أصحابه فعرض ما عنده، حتى بلغ ما

---

(١) قلت: هو محمد بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين.

(٢) قلت: هو زيد بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي، ويقال له: زيد النار لكثرة ما حرق من بيوت بني العباس، وكان في البصرة. انظره في «البداية والنهاية»: ٢٤٦/١٠.

(٣) قلت: هو إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي، ويقال له الجزار؛ لكثرة من قتل من أهل اليمن وأخذ من أموالهم. انظر خبره في المصدر السابق.

(٤) هو عيسى بن يزيد الجلودي من قواد الجيش في دولة المأمون.

(٥) تمامه فيما نقلوا: (ولو علم الناس حُبي للعفو لتقربوا إلي بالجرائم) (١٩٢: خلاصة الذهب المسبوك).

عرضوا عليه مائة ألف ألف وستة وخمسين ألف ألف درهم، فلم يقبل من أحد منهم شيئاً وجزاهم الخير.

وتأخرت الأموال، وبُشّر بموافاة مال خراج فارس، فركب ينظر إليه، ثم فرّقه كله، فلم يبقَ إلا مقدار عطاء الجند، فأمر المعلى بن أيوب بقبضه.

وكان أصحابه، ووزراؤه، وكتابه، وقواده، يَتَقَيّلون(١) فعله، ويسلكون سبيله، ويذهبون مذهبه. فمنهم: الحسن بن سهل(٢) وكان أكرمَ الناس، وأجودهم وأكثرهم إفضالاً، وأجملهم لنازلة فادحة، وأصبرهم على إعطاء كل مَن سأله.

وكان حميد بن عبدالحميد الطوسي جواداً سمحاً مفضلاً، ووقف ضياعاً غلتها في السنة مائة ألف دينار على أهل البيوتات وذوي الأقدار، وكان لا يرد أحداً.

وكان غسان بن عباد سمحاً: فرق في يوم واحد ثلاثة عشر ألف ألف درهم، وكان إذا سأله أحد حاجة يكلم فيها المأمون أعطاه من ماله وكلم المأمون.

وكان عبدالله بن طاهر(٣) عظيم المروءة، حسن الاحتمال، حسن

---

(١) في القاموس: تَقَيّل أباه: أشبهه، والمراد: يتشبهون به في فعله.

(٢) قلت: هو الوزير الكامل، أبو محمد، حمو المأمون، وأخو الوزير ذي الرئاستين الفضل بن سهل، من بيت حشمة من المجوس فأسلم سهل زمن البرامكة، ونشأ الفضل مع المأمون وتمكن جداً إلى أن قتل، فاستوزر المأمون بعده أخاه، وتزوج بابنته بوران سنة ٢١٠، كان فرداً في الجود. مات سنة ٢٣٦ رحمه الله تعالى. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٧١/١١ ـ ١٧٢.

(٣) قلت: هو عبدالله بن طاهر بن الحسين، الأمير العادل، أبو العباس، حاكم خراسان وما وراء النهر. تأدب وتفقه، وله يد في النظم والنثر. قلده المأمون مصر وإفريقية ثم خراسان، وكان ملكاً مطاعاً سائساً، مهيباً، جواداً، ممدحاً، من رجال الكمال، لما مرض تاب وكسر الملاهي وافتك الأسرى. مات بالخانوق سنة ٢٣٠ وله ٤٨ سنة رحمه الله تعالى. انظر المصدر السابق.

الإجمال: أمر في يوم واحد لثلاثة من أصحابه بثلاثمائة ألف دينار، لكل واحد بمائة ألف دينار، ولثلاثة نفر بمائة وخمسين ألفاً، لكل واحد بخمسين ألف دينار.

وكان علي بن هشام[1] أسمح الناس، وأحسنهم مروءة، وكان مطبخه يُحمل إذا سافر على سبعمائة بعير. وكان أحمد بن يوسف[2] كاتبه عظيم المروءة، وكان الناس عامة على أخلاق محمودة.

وشغب الجند ببغداد فكثر ضجيجهم لتأخر أرزاقهم، فخرج إليهم فرج الرحجي فضمن لهم أرزاق سنة، ثم دفعها إليهم من ماله.

المعتصم:

ثم كان المعتصم: وهو محمد بن هارون الرشيد[3]، فسلك في المقالة في الدين مذهب المأمون[4]، وكان الذي غلب عليه الفروسية والتشبُّه بالعجم، فلبس الثياب الضيقة الأكمام، فضيّق الناس أكمام ثيابهم، ولبس الخفاف الكبار، والشاش المربَّعة. وكان أول مَن لبس شاشية مربَّعة، فلبسها الناس تشبُّهاً به، ونُسبت إليه. فقيل: الشاش المعتصمية..

وكان أول خليفة ركب السروج المكشوفة، واتخذ الآلات

---

(١) قلت: هو نائب الحسن بن سهل، وتولى الجبل وقم وأصبهان وأذربيجان، وله أخبار متفرقة انظرها في «البداية والنهاية»: ٢٤٧/١٠، ٢٦٨.

(٢) قلت: هو أحمد بن يوسف بن القاسم، أبو جعفر الكاتب، ولي ديوان الرسائل للمأمون. توفي سنة ٢١٤. انظر «البداية والنهاية»: ٢٦٩/١٠.

(٣) بويع للمعتصم لاثنتي عشرة ليلة بقيت من رجب سنة (٢١٨هـ)، وكان المعتصم ظاهر الحزم والمناقب وإعزاز الدين، وكان له في خلافته فتوح لم تكن لأحد من الخلفاء، وهي ثمانية بلدان منها عمورية، وقتل ثمانية ملوك لكل منهم معه خبر طريف يطول بيانه. قيل: لم يكن في بني العباس من قبله أشجع، منه ولا أتم تيقظاً في الحرب ولا أشد قوة، وكان يلوي العمود الحديد حتى يصير طوقاً، ويشد على الدينار بإصبعه فيمحو كتابته. (٢٢١: خلاصة الذهب المسبوك).

(٤) قلت: أي مذهب المعتزلة.

العجمية، فتشبّه الناس به، ولم يكن في عصره من وزرائه، وقواده، وكتّابه، مَن يوصف بإعطاء ولا جود ولا احتمال إلا الحسن بن سهل على تقاصر أحواله، وابن أبي دؤاد[١]، فإنه كان ذا فضل ومعروف كثير، وكان ابن أبي دؤاد غالباً على أمره، مقدماً عنده.

الواثق[٢]:

ثم كان هارون الواثق بن المعتصم، فكان مذهبه في الدين والقول بالعدل والتوحيد على مذهب أبيه المعتصم وعمه المأمون، وأظهر ذلك، وامتحن عليه، وعاقب مَن خالفه، وحبس مَن أبدى عناداً فيه، وكتب إلى القضاة في الآفاق أن يمتحنوا العدول فلا يقبلوا شهادة مَن لم يقل بقوله، فغلب هذا على الناس، وتقرّبوا به إلى ابن أبي دؤاد وإلى القضاة، ولم يكن في عصره مَن يُفزع إليه إلا ابن أبي دؤاد.

وكان الواثق كثير الأكل واسع الطعام، كثير الصدقات، متفقداً لأهل بيته في كل بلد.

جعفر المتوكل[٣]:

ثم كان جعفر المتوكل بن المعتصم، فأبطل ما كان يقول به

---

(١) قلت: هو القاضي الكبير، أبو عبدالله، أحمد بن حَرِيز الإياديّ البصري ثم البغداديّ، الجهمي، عدو الإمام أحمد، والداعية إلى خلق القرآن. كان كريماً سخياً، صاحب أدب وافر ومكارم لولا هذه البدعة فيه. ولد سنة ١٦٠ بالبصرة، وتوفي سنة ٢٤٠ بعد أن صادره المتوكل وافتقر، سامحه الله. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١١/١٦٩ ـ ١٧١.

(٢) قلت: ولي الخلافة سنة ٢٢٧، ولد سنة ١٩٦، وهو ممن شدد في القول بخلق القرآن، وقيل تاب منه قبل موته. توفي سنة ٢٣٢ رحمه الله تعالى. انظر المصدر السابق: ١٠/٣٠٦ ـ ٣١٤.

(٣) قلت: هو أبو الفضل القرشي البغدادي العباسيّ. ولد سنة ٢٠٥، وبويع سنة ٢٣٢. محى البدع وأظهر السُنة ومنع القول بخلق القرآن لكن كان فيه نصب وانحراف. قتله قوّاد الأتراك سنة ٢٤٧. انظر المصدر السابق: ١٢/٣٠ ـ ٤١.

الواثق، وأظهر القول بالسنّة والجماعة، وأطلق مَن كان في المحابس ممن حبس بسبب عدوله عن القول بخلق القرآن، ونهى عن الجدل، وأمر كل مَن أطلقه من المحدثين أن يتحدثوا، فترك الناس تلك المقالة، وأنكرها مَن كان يقول بها، وارتفع الجدل والمناظرة.

وكان مما أحدثه بناء الحبوس والأروقة التي عليها الأبواب، فبنى الناس جميعاً بسُرّ من رأى[1] هذا البناء. وآثر لبس الثياب الملحم[2] على جميع الثياب، فكان لباسه ولباس كل مَن في داره من كبير وصغير، وارتفع ثمن الملحم في أيامه لجودتها.

وكانت أيامه أياماً حسنة ناضرة كثيرة الخير، على أنه أول خليفة أظهر العبث، وأطلق في مجلسه الهزل والمضاحيك، وأشياء تركنا ذكرها ذاعت في الناس واستعملوها وجروا فيها.

ولم يكن المتوكل ممن يوصف بإفضال ولا جود، وكان الفتح بن خاقان[3] أغلب الناس عليه، وأشدهم تقدماً عنده، ولم يكن ممن يرجى فضله ولا يخاف مكروهه.

وكان عُبيدالله بن يحيى بن خاقان وزيره[4]، وكان طالباً للسلامة، له مروءة في نفسه، ولا إفضال له على أحد، إلا أن الناس آمنون منه المكروه.

---

(١) قلت: هي مدينة بالعراق بناها المعتصم لسكنى جنده الأتراك، ثم سميت ساء مَن رأى، وهي سامراء اليوم.

(٢) سبق تعريفها وهي الثياب التي تختلف مادة باطنها عن ظاهرها.

(٣) قلت: هو الأمير الكبير، الوزير الأكمل، أبو محمد التركيّ. شاعر مترسل بليغ مفوّه، ذو سؤدد وجود ومحاسن على لعب فيه. قتل مع المتوكل سنة ٢٤٧ سامحه الله. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٢/٨٢ - ٨٣.

(٤) قلت: هو في الأصل: عبدالله، وهو خطأ، ولعله تصحيف من الناسخ أو الطابع، وهو الوزير الكبير، أبو الحسن، التركيّ ثم البغداديّ، وزر للمتوكل وللمعتمد. وجرت عليه أمور، ونفاه المستعين إلى بَرْقة، ثم قدم بغداد بعد خمس سنين ثم وزر سنة ٢٥٦، وله أخبار في الحلم والسخاء. توفي سنة ٢٦٣ رحمه الله تعالى. انظر المصدر السابق: ١٣/٨ - ١٠.

المعتز[1]:

وكان المعتز: وهو أبو عبدالله بن المتوكل، أول خليفة ركب بحلية الذهب، وكانت الخلفاء تركب بالحلية الخفيفة من الفضة في المناطق والسيوف والسروج واللُجُم، فلما ركب بحلية الذهب اتبعه الناس على ذلك، ولم تُعرف له أخلاق تُحمد ولا تُذم.

المهتدي:

ثم ولي المهتدي: وهو محمد بن الواثق، فذهب إلى القضاء في الدين، وجلس للمظالم، ووقع بخطه، وقرب الفقهاء.

وكان يقول: يا بني هاشم، دعوني حتى أسلك مسلك عمر بن عبدالعزيز، فأكون فيكم مثله في بني أمية. وتقلل في اللباس والفراش، وتوهم الناس عليه أنه يذهب مذهب أبيه في القول بخلق القرآن[2].

المعتمد[3]:

والمعتمد: وهو أحمد بن المتوكل، فإنه لم تطل أيامه حتى غلب

---

(١) قلت: هو محمد بن المتوكل جعفر بن المعتصم العباسيّ، ولد سنة ٢٣٢، واستخلف وهو ابن عشرين سنة أو دونها. وكان مستضعفاً مع الأتراك، ثم قتلوه بعد ذلك بعد أن خلعوه وله ٢٣ سنة. انظر المصدر السابق: ٥٣٢/١٢ ـ ٥٣٤.

(٢) كانت البيعة له لثلاث بقين من رجب سنة ٢٥٥هـ. جاهد للتخلص من سلطان الأتراك، ولكنهم تغلّبوا عليه حتى أصيب بجراح أعقبها موته، لأربع عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ٢٥٦هـ (٢: ٥٠٦ ـ اليعقوبي).

(٣) قلت: ولد سنة ٢٢٩، واستخلف بعد قتل المهتدي بالله سنة ٢٥٦، وانهمك في اللعب واللهو فكرهته الرعية، وأحبوا أخاه الموفق. منعه أخاه من الاجتماع بالناس وحجر عليه. توفي فجأة سنة ٢٧٩ سامحه الله. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٥٤٠/١٢ ـ ٥٥٣.

على أمره فآثر اللذة، واعتكف على الملاهي، وغلب أخوه أبو أحمد[(١)] على الأمور حتى حظر عليه وحبسه، وكان أول خليفة قُهر وحُجر عليه وحُظر.

المعتضد:

ثم كان المعتضد: وهو أحمد بن أبي أحمد بن المتوكل فكان رجلاً شهماً حازماً[(٢)].



---

(١) قلت: هو أبو أحمد طلحة بن المتوكل على الله جعفر بن المعتصم الهاشمي العباسيّ، أخو الخليفة المعتمد وولي عهده، ووالد أمير المؤمنين المعتضد. ولد سنة ٢٢٩، وعقد له أخوه ولاية العهد سنة ٢٦١ فكان الموفق بيده العقد والحل. وكان محبوباً من الرعية لا سيما بعد أن قتل طاغوت الزنج صاحب الفتنة. مات سنة ٢٧٨ رحمه الله تعالى. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٦٩/١٣ - ١٧٠.

(٢) هو أبو العباس أحمد بن الأمير بن أبي أحمد طلحة الموفق بن جعفر بن المتوكل، بويع يوم الاثنين ثاني عشر رجب سنة ٢٧٩هـ، وكان ذا رأي وحزم وشجاعة وعدل في الرعية وإلزام لخاصته بالتزام الطريقة المثلى خوفاً من العقاب. وشاع ذلك في الأجناد حتى سلكوا أحسن مسلك.

وحج وغزا وفضائله كثيرة وآثاره عظيمة. سُمي السفاح الثاني؛ لأنه جدد ملك بني العباس، «توفي المعتضد ليلة الاثنين لثمان بقين من ربيع الآخر سنة تسع وثمانين ومائتين في قصره المعروف بالحسنى بمدينة السلام»، «٢٣٥: خلاصة الذهب المسبوك».

هذا ما انتهت به المخطوطة، ويكون المعتضد قد عاش بعد وفاة المؤلف ما يقارب خمس سنوات، إذا صح أن وفاة اليعقوبي كانت سنة ٢٨٤هـ، كما أنه لو صح ذلك يكون قد عاصر المعتضد مثل هذه المدة، والله أعلم بالصواب، وله الحمد في الأولى والآخرة وهو العزيز الحكيم: المحقق.

٩ ـ القول في السبب الموجب لاختلاف القراءات وكثرة الطرق والروايات للإمام أبي العباس المهدويّ

تحقيق

د. حاتم الضامن

إن قال قائلٌ: ما سبب هذا الاختلاف الذي كثر بين القراءات في ألفاظ القرآن؟ قيل له: سببُه تفضيل الله عزّ وجل القرآن على سائر الكتب المنزلة فيما سلف من الأزمان، كما فضل المرسل به بالخوض في الشفاعة والإرسال إلى الجماعة مما كان على عهده من العرب والعجم ومَن بعدهم من الأمم، وإظهار دينه على الدين كلّه، والأعلام الدالة على شرفه على سائر الأنبياء وفضله وإضافته ذكرَه في الأذان وغيره إلى ذكره، وقسَمِهِ عزّ وجل بعُمره[1]، وغير ذلك من الفضائل التي خصَّهُ بها دون غيره.

فكان من فضائله عليه السلام ما خصَّه به من هذا الكتاب البديع النظام، الواسع اللغات، المتصرف بوجوه القراءات.

---

(١) في الحجر: ٧٢ ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

وثبت عن النبيِّ ﷺ من طُرقٍ كثيرة صحيحة: أنّ القرآن أُنزل على سبعة أَحْرفٍ.

واختلف الناس في معنى هذا الحديث اختلافاً كثيراً، فأكثرهم على أنَّ معناه في الألفاظ المسموعة لا في المعاني المفهومة.

والدليل على صحة ذلك ما رويناه من طُرق عن مسور بن مخرمة[1] وعبدالرحمٰن بن عبدِالقاريّ[2] أنهما سَمِعا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: سمعت هشام بن حكيم[3] يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله ﷺ فاستمعت لقوله، فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسولُ الله ﷺ، فكدتُ أساوره[4] في الصلاة، فتصبّرت حتى سلّم، فلبَّبْتُهُ[5] بردائه، فقلت: مَن أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ؟ فقال: أقرأنيها رسولُ الله ﷺ، فقلت: كذبت فإنّ رسول الله ﷺ أقرأنيها على غير ما قرأت، فانطلقتُ به أقودُه إلى رسول الله ﷺ، فقلتُ: إنّ هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تُقرئنيها، فقال رسول الله ﷺ: «**أرسله، اقرأ يا هشام**» فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأ، فقال رسول الله ﷺ: «**كذلك أُنزلت**» ثم قال: «**اقرأ يا عمر**» فقرأت القراءة التي أقرأني، فقال رسول الله ﷺ: «**كذلك أُنزلت، إن هذا القرآن أُنزل على سبعة أحرف، فاقرؤوا بما تيسّر منه**» هذا لفظ رواية البخاري.

---

(١) قلت: هو المسور بن مَخْرمة بن نوفل الزهريّ، أبو عبدالرحمن. له ولأبيه صحبة رضي الله عنهما. مات سنة ٦٤. انظر «التقريب»: ٥٣٢.

(٢) قلت: يقال: له رؤية. توفي سنة ٨٨ رضي الله عنه. انظر المصدر السابق: ٣٤٥.

(٣) قلت: هو هشام بن حكيم بن حزام القرشي الأسديّ. صحابيّ ابن صحابيّ رضي الله عنهما، ومات قبل أبيه. انظر «التقريب»: ٥٧٢.

(٤) قلت: أي أواثبه وأصارعه. انظر «المعجم الوسيط»: س و ر.

(٥) قلت: اللبب: موضع القلادة من الصدر، ولبّبه جمع ثياب خصمه عند لبّته.

فهذا الحديثُ ينبىء أنَّ الحروف التي نزل عليها القرآنُ في المسموع لا في المفهوم كما رُوي من قول مَن تأوَّلهُ في المعاني، كالحلال والحرام وضربِ الأمثال وغير ذلك من المعاني التي ذكروها، إذ لو كانت الحروف السبعةُ في المفهوم دون المسموع لم يذكر عمر قراءة هشام، ولم يأمرهما النبيُّ ﷺ بالقراءة، ويصوِّب قراءة كل واحدٍ منهما.

ثم اختلف الناسُ بعد في كيفية الحروف السبعة: هل يشتملُ عليها المصحفُ الذي اجتمعت عليه الأمةُ أو على بعضها؟

فأشبهُ ما قيل في ذلك وأصحّهُ قولان:

أحدهما: أنَّ المصحف قد اشتمل على جميع الحروف المنزَل عليها القرآنُ، وأن خَطَّه محتملٌ لجميعها، وأن جميع ما رُويَ من القراءاتِ المخالفةِ للخَطِّ محمولٌ على وجه التفسير، وحمله الرواةُ على أنّه من التلاوة.

وهذا تأويل ما ثبت به النقل، وأسقطوا من ذلك ما ضعفَ النقل فيه، وقالوا: إنَّ هذا القرآن إنّما هو منقول نقلَ الكافَّةِ عن الكافَّةِ، فلا يجوز أن يعارض بأخبار الآحاد التي لا توجب العلم. وقالوا: لا يجوز أن يمنع الصحابة الذين جمعوا المصحف من قراءة شيء قُبض النبيُّ ﷺ وهو يُقرأ، ويجمعوا مصحفاً موافقاً لبعض الحروف التي نزل القرآن عليها مُخالفاً لبعضها.

وقالوا: إنَّما نسخ عثمان رضي الله عنه الصُحف التي كانت عند حفصة، التي جمعها أبو بكر رضي الله عنه لم يزد فيها ولا نقص منها.

فهذا مذهبٌ حسنٌ يعضدُهُ النظرُ وتوافقه الأصول.

وذهب كثير من أهل العلم إلى أن المصحف غير مشتمل على جميع

الحروف السبعة التي نزل عليها القرآن، وإنما اشتمل على بعضها، وذلك البعض جزء من جملتها غير محدود بحرف أو حرفين أو ثلاثة أو أكثر منها، وأن هذا المصحف المجمع عليه قد مَنَع من القراءة بكل ما لا يحتمله خطه لما رأى الصحابة في جمعه، والاقتصار عليه من الصلاح للأُمَّةِ حين وقع على عهد عثمان رضي الله عنه ما وقع في الاختلاف في القرآن، وقدم عليه حذيفة بن اليمان بالأخبار بذلك من أذربيجان.

وجمع عثمان الصحابة فاجتمع رأيهم على أن أخذوا الصحف التي كان أبو بكر رضي الله عنه جمعها، وكانت بعد وفاته عند عمر رضي الله عنه، ثم عند حفصة بنت عمر زوج النبيّ ﷺ، فأخذوا الصحف، وأمروا زيد بن ثابت، وعبدالله بن الزبير، وسعيد بن العاص[١]، وعبدالرحمن بن الحارث بن هشام[٢]، فكتبوا المصحف، وجعل نسخاً خمساً، وقيل سبعاً، أي خمس نسخ أو سبع نسخ، وبعث إلى كل مصر نسخة، وردَّ الصُحُف إلى حفصة، وأمر بالمصاحف المخالفة لها، فيما رُوي، فأُلقيت في ماءٍ حارّ.

وكان سببُ جمع أبي بكر رضي الله عنه كثرة القتل في قراء القرآن في الغزوات، فخاف أن يذهب بعض القرآن، وكلّمه في ذلك عمر رضي الله عنه فأمر زيد بن ثابت فجمعه من صدور الرجال والرقاع والسعف واللخاف.

فكان في مصحف ابن مسعود وغيره خلاف كثير لهذا المصحف المجمع عليه، وكل ذلك من جملة الحروف التي نزل عليها القرآن، فلمّا اجتمع رأي الصحابة على الاقتصار على هذا المصحف لما رأوا

---

(١) قلت: هو سعيد بن العاص بن سعيد الأمويّ. كان لسعيد عند موت النبي ﷺ تسع سنين. ولي إمرة الكوفة لعثمان وإمرة المدينة لمعاوية رضي الله عنهم. مات سنة ٥٨، انظر «التقريب»: ٢٣٧.

(٢) قلت: أبو محمد المدني، له رؤية، مات سنة ٤٣ رضي الله عنه. انظر المصدر السابق: ٣٣٨.

في ذلك من الصلاح، وأنفذوا النسخ منه إلى الأمصار، والناسُ حينئذٍ يقرؤون كما أُقرئوا، قرأ كل مصرٍ من القراءات التي كانوا عليها ما وافق رسم مصحفهم، وتركوا القراءة بما خالفه.

فإن احتملَ رسمُ كلمة أنْ تُقرأ على وجوهٍ، والخطُّ محتملٌ لها، كالوجوه المروية في: ﴿أَرْجِئْهُ﴾[1] و﴿عذابٍ بئيسٍ﴾[2] و﴿عَبَدَ الطاغوتَ﴾[3]، وما أشبه ذلك قرأوا بجميعها، إذ هي غير خارجةٍ عن الرسم.

وإنْ وجدوا قراءةً مخالفةً تركوها لإجماع الأمة على ذلك، والإجماع حجةٌ وأصلٌ من أصول الشرع، ولأن النبيَّ ﷺ، لمّا ذكر الحروف التي نزل عليها القرآن قال: «**فاقرؤوا ما تيسّر منه**»، فأباح الاقتصار على بعضها، ولم يلزمنا القراءة بجميعها.

فصارت القراءة المستعملة بعد جمع الصحف إلى يومنا هذا، على هذا القول، بعض الحروف التي نزل عليها القرآن دون كلِّها.

واستدلوا على ذلك بالأخبار الصحيحة المروية في القراءات المخالفة لمرسوم المصحف، نحو: ﴿فَطَلِّقُوهنَّ لقُبُلِ عدَّتهنَّ﴾[4] و﴿صراطَ مَن أنعَمْتَ عليهم﴾[5]، ﴿وجاءَت سَكْرَةُ الحقِّ بالموتِ﴾[6] وما أشبه ذلك، وهو كثير قد ثبتت به الرواية، إلا أنَّها أخبار آحاد، والقرآنُ منقول بنقل الكافة عن الكافة.

---

(١) الأعراف: ١١١، الشعراء: ٣٦.

(٢) الأعراف: ١٦٥.

(٣) المائدة: ٦٠.

(٤) الطلاق: ١، وهي في المصحف الشريف: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾. ينظر: (المحتسب) ٣٢٣/٢، (الكشاف) ١١٨/٤، (تفسير القرطبي) ١٥٣/١٨، (البحر المحيط) ٢٨١/٨.

(٥) الفاتحة: ٧ وهي في المصحف الشريف: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ ...﴾. ينظر: (المصاحف) ٥٠ ـ ٥١، (المرشد الوجيز) ١١١.

(٦) ق: ١٩، وهي في المصحف الشريف: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّ﴾. ينظر: (تفسير الطبري) ١٦٠/٢٦، (المحتسب) ٢٨٣/٢، (المرشد الوجيز) ١١١.

فالقراءة المستعملة التي لا يجوز ردّها ما اجتمع فيها ثلاثة أشياء:

أحدها: موافقة خطِّ المصحف.

والآخر: كونها غير خارجة عن لسان العرب.

والثالث: ثبوتها بالنقل الصحيح.

فما ورد من القرآن على هذا الترتيب وجب قَبوله، ولم يسع أحداً من المسلمين ردّهُ. وما عدم أحد الأشياء الثلاثة لم يجز استعماله.

ووجوه الاختلاف في الحروف التي نزلَ عليها القرآنُ على مذهبِ أصحابِ هذا القول يقعُ على ضُروب، فمنها:

ما تختلف فيه الألفاظ ومعانيه متفقةٌ. واختلافُ الألفاظِ يقعُ على ضروب منها: التقديمُ والتأخير، نحو ما رُوي ممّا تقدَّمَ ذكرُهُ من قراءة مَن قرأ: ﴿**وجاءَتْ سَكْرَةُ الحقِّ بالموت**﴾.

ومنها ما يكون بزيادة نحو: ﴿**فطلِّقوهُنَّ لقُبُلِ عدَّتهِنَّ**﴾ و﴿**حافظوا على الصلواتِ والصلاةِ الوسطى صلاة العصر**﴾[(1)].

ومنها ما يكونُ بنقصانٍ، نحو قراءة مَن قرأ: ﴿**حم سق**﴾[(2)]، بغير عين. ومنها ما يكون بإبدال كلمة مكان أخرى، نحو قراءة مَن قرأ: ﴿**إنْ كانتْ إلاّ زَقْيَةً واحدة**﴾[(3)]. وقراءة مَن قرأ: ﴿**كالصوف المنفوش**﴾[(4)]. فهذا ونظيرُهُ مما هو بدل باتفاق المعنى.

---

(١) البقرة: ٢٣٨، وهي في المصحف الشريف: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ ينظر: (المصاحف) ٧٧، (تفسير الطبري) ٥٥٤/٢، (تفسير القرطبي) ٢١٣/٣.

(٢) الشورى: ١، ٢، ينظر: (مختصر في شواذ القرآن) ١٣٤، (المحتسب) ٢٤٩/٢، (بصائر ذوي التمييز) ٤١٨/١.

(٣) يّس: ٢٨، وهي في المصحف الشريف: ﴿... صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ ينظر (الكشاف) ٣٢٠/٣، (المرشد الوجيز) ٩١.

(٤) القارعة: ٥، وهي في المصحف الشريف: ﴿كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ ينظر: (المرشد الوجيز) ٩٥، ١١٤، ١٤٧.

وقد تُبدل كلمة مكان أخرى، والمعنى مختلف، نحو قراءة مَن قرأ: ﴿الَٓم تنزيلُ الكتابِ﴾، ﴿الَٓم ذلك الكتاب﴾.

فجميع هذه الضروب المتقدم ذكرها لا يُقرأ بشيء منها لمخالفتها رسم المصحف المجمَع عليه.

وقد يكون الاختلاف عن وجوهٍ تجوزُ القراءة بها إذا ثبتت ووافقت لغة العرب؛ فمن ذلك أنْ يقع تبديل حروف الكلمة والخطُّ واحدٌ: ﴿نُنشِرُها﴾ و﴿نُنشِزُها﴾[1] بالراء والزاي. و﴿يَقُصُّ الحقَّ﴾[2] و﴿يَقْضِ الحقَّ﴾ بالصاد والضاد، على أنْ تكون الياء من (تقضي) حُذفت من الخط كما حُذفت من اللفظ، لالتقاء الساكنين. وله في القرآن نظائر، نحو: ﴿وسوفَ يُؤْتِ اللهُ المؤمنين﴾[3] و﴿سَنَدْعُ الزَّبانِيَةَ﴾[4]. وقد ذكرت جميعها عند ذكر خط المصحف.

ومن الاختلاف ما يكون في إعراب الكلمة وحركات بنائها مع تغيير المعنى، نحو: ﴿وادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ و﴿بَعْدَ أَمَةٍ﴾[5].

---

(١) البقرة: ٢٥٩، قرأ الكوفيون وابن عامر بالزاي، وهي كذلك في المصحف الشريف. وقرأ الباقون بالراء. (السبعة في القراءات) ١٨٩، (حجة القراءات) ١٤٤، (التيسير) ٨٢.

(٢) الأنعام: ٥٧، قرأ ابن كثير ونافع وعاصم بالصاد المهملة المشددة: وهي كذلك في المصحف الشريف. وقرأ الباقون بإسكان القاف وكسر الضاد المعجمة. (السبعة) ٢٥٩، (الحجة في القراءات السبع) ١٤٠، (النشر في القراءات العشر) ٢٥٨/٢.

(٣) النساء: ١٤٦.

(٤) العلق: ١٨.

(٥) يوسف: ٤٥. ينظر (المحتسب) ٣٤٤/١، (الإبانة) ٥٥، (تفسير القرطبي) ٢٠١/٩، والآية في المصحف الشريف: ﴿أُمَّةٍ﴾ بضم الأول وتشديد الميم، وينظر أيضاً: (معاني القرآن) ٤٧/٢، (إعراب القرآن) ١٤٣/٢، (التبيان) ٧٣٤.

ومنه ما لا يتغير فيه المعنى، نحو: ﴿البُخْل﴾، و﴿البَخَل﴾[1]، ﴿مَيسَرة﴾، و﴿مَيسُرة﴾[2] وما أشبه ذلك.

ويدخل في هذا وجوهُ الاختلاف في أصول القراءات من الإظهار والإدغام والفتح والإمالة، وما أشبه ذلك.

فهذه الوجوه المذكورة وما أشبهها تجوز القراءة بها ما كانت موافقة للغة العرب ثابتة بالنقل الصحيح، لموافقتها المصحف المجمع عليه.

فأمّا اقتصارُ أهل الأمصار في أغلب أمورهم على القُرَّاء السبعة الذين هم: نافع[3] وابن كثير[4] وأبو عمرو[5] وعاصم[6] وحمزة[7] والكسائي[8] وابن عامر[9]، فإنّ ذلك إنّما هو على سبيل الاختصار عندما رواه مَنْ أكثر القراءة بسبب اتساع الاختيارات، فذهب إلى ذلك

---

(١) النساء: ٣٧، الحديد: ٢٤ .قرأ حمزة والكسائي بفتح الباء والخاء، وقرأ الباقون بضم الباء وإسكان الخاء، وهي كذلك في المصحف الشريف. ينظر: (الحجة في القراءات السبع) ١٢٣، (التيسير) ٩٦.

(٢) البقرة: ٢٨٠، قرأ نافع بضم السين، وقرأ الباقون بفتحها، وهي كذلك في المصحف الشريف. ينظر: (السبعة) ١٩٢، (الحجة في القراءات السبع) ١٠٣، (النشر) ٢/٢٣٦.

(٣) نافع بن عبدالرحمٰن، توفي سنة ١٦٩هـ. (معرفة القراء الكبار) ٨٩، (غاية النهاية) ٢/٣٣٠، (تهذيب التهذيب) ١٠/٤٠٧.

(٤) عبدالله بن كثير، توفي سنة ١٢٠هـ. (الجرح والتعديل) ٢/٢/١٤٤، (غاية النهاية) ١/٤٤٣، (سراج القارىء) ١٠.

(٥) أبو عمرو بن العلاء، توفي سنة ١٥٤هـ. (أخبار النحويين البصريين) ٢٢، (غاية النهاية) ١/٢٨٨.

(٦) عاصم بن أبي النجود، توفي سنة ١٢٨هـ. (الطبقات الكبرى) ٦/٣٢٠، (غاية النهاية) ١/٣٤٦، (تهذيب التهذيب) ٥/٣٨.

(٧) حمزة بن حبيب الزيات، توفي سنة ١٥٦هـ. (ميزان الاعتدال) ١/٦٠٥، (غاية النهاية) ١/٢٦١، (تهذيب التهذيب) ٣/٢٧.

(٨) علي بن حمزة الكسائي، توفي سنة ١٨٩هـ. (مراتب النحويين) ٧٤، (إنباه الرواة) ٢/٢٥٦، (غاية النهاية) ١/٥٣٥.

(٩) عبدالله بن عامر، توفي سنة ١١٨هـ. (الفهرست) ٤٩، (غاية النهاية) ١/٤٢٣، (تهذيب التهذيب) ٥/٢٧٤.

بعض المتأخرين على وجه الاختيار والاختصار، فجعله عامة الناس كالفرض المحتوم والشرع المعين المعلوم، حتى صار بعضهم إذا سمع قراءةً تخالفُ شيئاً مما بلغه من الحروف السبعة خطًّأ قارئها، ورُبما كفَّره، مع كون تلك القراءة التي أنكرها أشهرَ في القراءات، وأظهرَ في الروايات، وأقوى في اللغات.

وانضاف إلى ذلك أنّ مَن قلّت عنايته من المتأخرين اقتصر من طريق هذه القراءات السبع التي اختارها ـ لاقتصار مَن سبقه من المتأخرين ـ على أربع عشرة رواية[1] فرأى حينَ اشتهروا عنده وعند أكثر الإقليم الذي هو فيه أنّ كلَّ رواية جاءت من هؤلاء السبعة سواها باطلٌ، ومع كونِ ذلك الذي عنده شاذٌّ أشهر وأجلّ من الذي اعتمد عليه.

ولقد فعل مُسَبّعُ هؤلاء السبعة ما لم يكن ينبغي أن يفعلَهُ، وأشكل على العامة حتى جهلوا ما لم يسعهم جهله؛ وذلك أنَّهُ قد اشتهر عند الكافة قول النبيِّ ﷺ: «**أُنزل القرآن على سبعة أحرف**»، ثمّ عمد هذا المُسبّع إلى قوم اختار كلُّ رجلٍ منهم لنفسه قراءةً من جملة القراءات التي رواها ـ وكانوا لعمري أهلاً للاختيار لثقتهم وأمانتهم وعلمهم وفصاحتهم ـ فأطلق عليهم التسمية بالقراءات، فأوهم بذلك كلَّ مَن قلّ نظره وضعفت عنايته أنَّ هذه القراءاتِ السبع هي التي قال فيها النبيُّ ﷺ: «**أُنزل القرآن على سبعة أحرف**»، وأكد وَهْمَهُ ما يراه من اجتماع أهل الأمصار عليها واطِّراحِهم ما سواها.

وذلك لعمري موضع إشكالٍ على الجُهّالِ، وليتَهُ إذ ذهبَ إلى الاقتصار على بعض قُرّاء الأمصار واجتهد في الاختيار جعلهم أقلَّ من

---

(١) قلت: قد اختار جمع من العلماء الكبار راويين لكل قارىء من السبعة واقتصروا عليهما، فصارت الروايات المشهورة المداولة أربع عشرة رواية، لكن الصحيح الثابت من القراءات في زماننا هذا عشر قراءات بعشرين رواية، وهو ما في كتاب (النشر في القراءات العشر) للإمام ابن الجزري (ت٨٣٣)، والله أعلم.

سبعة أو أكثر، فكان يزيلُ بذلك بعض الشبهة الداخلة على الأغمار.

نرغب إلى الله عزّ وجل، التجاوز عن فعله الذي اعتمده، وحسن المجازاة على ما قصده، فإنَّه لم يُرِد إلا الخير والفضل، لكن خَفِيَ عليه ما يدخل بذلك على أهل الضعف والجهل، والله المستعان.

فهذا الذي قدّمناه أحسنُ ما تأوله العلماء في معنى قول النبيِّ ﷺ: «**أُنزل القرآن على سبعة أحرف**»، ووجوه الاختلاف والمرويِّ في حروف القرآن.

على أنني تركت أقوالاً لم تقوَ، ليذهب مَن ذهب إلى أن الاختلافَ في الحروف التي نزل عليها القرآن في المفهوم دون المسموع، كقولنا: حلال وحرام، وخبر ما كان، وخبر ما يكون، وما أشبه ذلك من المعاني.

وكقول مَنْ ذهب إلى أنَّ جميع ما يقرأ به من القراءات الموافقة لخطِ المصحف إنَّما هي حرف واحد، وذلك مذهب أبي جعفر الطبري[1] وغيره.

وأقوال غير ذلك تركتها وأوردت أقوى الأقاويل وأشبهها بالأصولِ، وبالله التوفيق.



---

(١) محمد بن جرير، مؤلف التاريخ والتفسير المشهورين، توفي سنة ٣١٠هـ. (معجم الأدباء) ١٨/٤٠، (وفيات الأعيان) ٤/١٩١، (طبقات المفسرين) ٢/١٠٦.

١٠ ـ بيان العيوب التي يجب أن يجتنبها القراء وإيضاح الأدوات التي بُني عليها الإقراء لأبي علي الحسن بن أحمد بن عبدالله ابن البناء المتوفى سنة ٤٧١هـ(١)

تحقيق: الدكتور غانم قدوري حمد
كلية الشريعة ـ جامعة بغداد

مقدمة

هذا كتاب (بيان العيوب التي يجب أن يجتنبها القراء) لأبي علي الحسن بن أحمد بن عبدالله، ابن البناء، المتوفى سنة ٤٧١هـ.

قمت بتحقيقه على النسخة المخطوطة الوحيدة المعروفة للكتاب، التي تحتفظ بها مكتبة الأوقاف العامة في الموصل.

والكتاب على صغر حجمه له أهمية خاصة؛ لأنه أول كتاب ينشر من تراثنا الخالد يعالج موضوع: «عيوب النطق»، الذي كان يُظَنُّ أنَّ العربية لم تعرف التأليف فيه؛ ولأن الكتاب أيضاً هو الوحيد الذي بقي من كتب ابن البناء على ما هو معروف اليوم.

---

(١) قلت: انظر «مجلة معهد المخطوطات العربية»: المجلد الحادي والثلاثين، الجزء الأول: ٧ ـ ٥٨.

حياة ابن البنّاء ونشاطه العلمي

١ ـ معالم شخصيته وحياته:

اسمه الحسن بن أحمد بن عبدالله، أبو علي، المعروف بابن البناء، البغدادي، الحنبلي، والمصادر التاريخية المتيسرة لا تقدم عن نشأته الأولى شيئاً سوى أنه ولد سنة ٣٧٦هـ.

ويبدو أنه قضى معظم حياته في بغداد، فكان ينتسب إليها، وكذلك تحدثنا المصادر عن أبنائه وتصفهم بالبغداديين، ولم تذكر لنا المصادر عدد أبنائه إلا أننا من خلال ما ذكرته عن تلامذته نعرف أن له عدداً من الأبناء الذين اشتغلوا بالعلم فأخذوا عن أبيهم وعن غيره.

وإذا كان ابن البناء قد ولد سنة ٣٧٦هـ، وتوفي سنة ٤٧١هـ، فهذا يعني أنه عاش خمسة وتسعين عاماً، وهو عمر طويل مبارك.

كان ابن البناء مشتغلاً بالتدريس والوعظ والفتيا ببغداد.

قال تلميذه أبو الحسين بن أبي يعلى الفراء[١]: «درَّسَ في الجانب الشرقي بدار الخلافة، وكان له حلقتان: إحداهما في جامع المنصور، والأخرى في جامع القصر، للفتوى والوعظ وقراءة الحديث»[٢].

وقال القِفطِي[٣]: «كان حلو العبارة، متصدراً للإفادة في كل علم عاناه»[٤].

---

(١) قلت: هو الإمام العلامة الفقيه القاضي، أبو الحسين محمد بن القاضي الكبير أبي يعلى محمد بن الحسين بن محمد بن خلف بن الفرّاء الحنبليّ البغداديّ. ولد سنة ٤٥١، وذبحه اللصوص سنة ٥٢٦ رحمه الله تعالى. تميز وصنف، وكان ديناً ثقة، حميد السيرة. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٩/٦٠١ ـ ٦٠٢.

(٢) (طبقات الحنابلة) ٢/٢٤٣.

(٣) قلت: هو القاضي الأكرم، الوزير الأوحد، جمال الدين، أبو الحسين علي بن يوسف بن إبراهيم الشيباني القفطيّ المصري. له عدة مصنفات، وجمع من الكتب ما يفوق الوصف، ووزر بحلب. توفي سنة ٦٤٦ رحمه الله تعالىٰ. انظر المصدر السابق: ٢٣/٢٢٧.

(٤) (إنباه الرواة): ١/٢٧٦.

وقال عنه ابن العماد الحنبلي[1]: «ودَرَّسَ كثيراً، وأفتى زماناً طويلاً»[2].

٥ ـ مؤلفاته:

أجمع المؤرخون الذين ترجموا لابن البناء على أن له مصنفاتٍ كثيرة، ووصفوه بأنه «صاحب التصانيف» و «صاحب التواليف»، حتى قيل: إنّه «صنف في كل فن».

وقد ذكر عدد من المؤرخين أن مؤلفاته بلغت مائة وخمسين كتاباً.

وإذا عُدنا إلى فهارس الكتب والمكتبات لنبحثَ عن تلك المؤلفاتِ المائة والخمسين التي صنفها ابن البناء، ولنتعرف على أسمائها ومواضيعها فإننا لن نظفر إلاّ بالقليل، لأنه قد ذهبت أسماء معظم تلك المؤلفات، وفُقد جُلُّ ما عرف اسمه منها.

مادة الكتاب:

كان ابن البناء قد ألّف قبل هذا الكتاب كتاباً مستقلاً في دراسة الأصوات العربية، وهو كتاب: «التجريد في التجويد» ولعله درس فيه مخارج الحروف وصفاتها، والظواهر الصوتية التي تنشأ عن اتصالها وائتلافها، وبيّن فيه الطريقة المُثلى لنطقِ الأصواتِ العربيةِ مفردةً ومركبةً، على نحو ما نجد في كتب علم التجويد التي ترجع إلى القرن الخامس الهجري.

---

(١) قلت: هو عبدالحي بن أحمد بن محمد بن العماد العكري الحنبليّ، أبو الفلاح. مؤرخ فقيه، عالم بالأدب. ولد في صالحية دمشق سنة ١٠٣٢، وأقام في القاهرة مدة طويلة. ومات بمكة حاجاً سنة ١٠٨٩ رحمه الله تعالى. له عدة مصنفات. انظر «الأعلام»: ٢٩٠/٣.

(٢) (شذرات الذهب): ٣٣٩/٣.

وخصص ابن البناء كتاب: (بيان العيوب التي يجب أن يجتنبها القراء...) لمعالجة الانحرافات المنطقية في ألسنة الناطقين من قراء القرآن خاصة، ويبدو أن ابن البناء قصد في هذا الكتاب إلى معالجة نوعين من الانحرافات النطقية:

النوع الأول: ظواهرُ صوتيةً يتكلفها كثيرٌ من قراء زمانه، وهي خارجة عن أصول القراءة المأثورة، سمَّاها: «معايب ألفاظ يتكلفها كثير من القراء على غير أصل، ولا هي داخلة في حد تجويد ولا ترتيل».

النوع الثاني: ظواهر نطقية مرضيَّة ناتجة عن عجز آلة النطق عن أداء بعض الأصوات، سواء في قراءة القرآن أو في غَيرها، سمَّاها: «عوارض في لسان الإنسان... مثل التمتام والفأفاء والأرت والألثغ».

وقد قسَّم ابن البنّاء الكتاب إلى ثلاثة عشر باباً، ولم يقف ابن البناء عند حد ذكر عيوب النطق ووصفها، ولكنه تجاوز ذلك إلى بيان السبيل إلى التخلُّص منها، وتصحيح النطق بها، فخصص لذلك الباب الثاني عشر، مؤكداً فيه على طول المران ومغالبة العادة بتمثل النطق الصحيح.



كتاب
بيان العيوب التي يجب أن يجتنبها القراء
وإيضاح الأدوات التي بني عليها الإقراء
لابن البناء

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال الشيخ الإمام أبو علي الحسن بن عبدالله بن البناء في أثناء شهر رجب سنة ثمان وستين وأربعمائة:

الحمد لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله على سيد المرسلين محمد النبي وآله الطاهرين؛ وبعد.

فجعلنا الله وإياك ممن رعى العلم وحفظه، وعمل به وعلَّمه، فإنك لما رأيت كتاب «التجريد في التجويد» واستحسنت أصوله وفصوله، أحببت اتباعه بمختصر في معايب ألفاظ يتكلفها كثير من القراء على غير أصل، ولا هي داخلة في حد تجويد ولا ترتيل، وإنما يكون ذلك ممن يتكلف التجويد من غير أن يقتبسه من عالم مجيد، وسألت كشف عوارضَ في لسان الإنسان كرهها الإمام أبو عبدالله أحمد بن حنبل رضي الله عنه وغيره من الفقهاء في الإمامة، مثل

التمتام والفأفاء والأرت والألثغ[1] وآثرت كشفها وهل للمقرىء المحسن في صرفها أو أكثرها حيلة أم لا؟ فأتيتك بما حضرني في ذلك والله المعين على الرشاد، والموفق للسداد، نفعنا الله وإيَّاك به، وجميع المسلمين، إن شاء الله.

باب
العيوب الفَظِعَة[2] في النَّفس التي يجب أن يجتنبها القارىء حين القراءة والدرس

من ذلك تحريك الرأس عن يمين وشمال، كالالتفات أو تحريكه بزعزعة[3] من سُفلٍ إلى عُلوٍ أو عُلوٍ إلى سفلٍ، كالإيماء بَنَعْم ولا في المخاطبات.

ومنه عبوس الوجه وتقطيبه، وتصغير العينين، وتعالي أعالي الخدين، وتلوين[4] الحاجبين، وتعويج الشفتين، وإقامة العنق وإحناؤه بما يخرج عن العادة المألوفة والشاكلة المعروفة، والزحف والتنقُّل من جِلْسةٍ إلى خلافها كثيراً، والعبث بالأصابعِ والشعرِ.

وليكن في هيئتهِ عند جلوسه وتلاوته على أجملِ ما يراهُ، مبايناً لما ذكرناه، وأشباهه مما لا يرضاه، فهو لحاله أفضل، وفي جماله أنبل، والله يعصم من الزلل، ويعيذ من العلل، بمنّه وكرمه، إن شاء الله.

---

(١) قال الشافعي في (الأم) ١/٩٥: ولو كانت بالرجل تمتمة... أكره أن يكون إماماً، وإن أم أجزأ إذا أيقن أنه قد قرأ ما تجزئه به صلاته، وكذلك الفأفأة أكره أن يؤم فإن أمَّ أجزأه، وأحب أن لا يكون الإمام أرتّ ولا ألثغ...).
قلتُ: سيأتي المصنف على تعريف هذه المصطلحات.

(٢) فظُع الأمر بالضم، يفظُع فظاعة، فهو فظيع وفَظِع، والأخيرة على النسب: اشتد وشنُع وجاوز المقدار: (لسان العرب) ١٠/١٢٥: (فظع).

(٣) الزعزعة: تحريك الشيء، وزعزعه: حركه ليقتلعه: (لسان العرب) ١٠/٤: (زعع).

(٤) فلان متلون إذا كان لا يثبت على خلق (لسان العرب) ١٧/٢٧٩: لون، ويمكن أن تقرأ الكلمة: (تلويز) بالزاي، لكن ما أثبته هو الأرجح، رسماً ومعنى.

فصل

قد ذكرنا عيوب الهيئات، ولها تأثير في الشريعة، وهو تأدُّبه بها وأكثرها في صلاته بين يديّ ربه الكريم. كذلك يجب أن يتأدّب بها عند تلاوة كتابه الحكيم.

وأما عيوب الأصوات التي يجب أن يجتنبها فمن ذلك الجهر الصاعق والغض الزاهق[1] واستكداد الصوت حتى ينقطع، ونقله من حال إلى حال في تباعد الانتقال، وربما أفضى به ذلك إلى اختلاج الصدر والكتفين، وتغير اللون والعين، وتدر عروقه، وتفسد حروفه.

ويُكرهُ اللَّكْزُ في القراءة، وهو الابتداء بقلع النَّفس والختم به، وكذلك المبتدىء بصياح مديد والخاتم به وإن لم يكن فيه لكز، وحقيقة اللكز دفع الحرف بالنَّفَس عند شدة إخراج له به، وهو في الاستئناف أقوى منه في القطع[2].

ومن صفة اللكز وهو شبيه بالوَكْز الإبلاغ في الهمزة المتحركة فوق حقها وكسوة الهمزة الساكنة ضيقاً ربما أخرجها عن السكون إلى التحريك.

ويُحذر في الساكن من عيبين: أحدهما السرعة به حتى يصير متحركاً، والثاني التشديد له حتى يزيده ثقلاً.

وكذلك يُحذر من زيادة الممدود الذي يخرجه عن حده، فيعتقد أنه تجويد وأنه فيه من المحسنين، ولا يعلم أنه من المسيئين.

---

(١) الصاعق: الشديد، والزاهق: المضمحل، (لسان العرب) ١٣/١٢، ٦٦. (زهق صعق).

(٢) قلت: أي هو في الابتداء أقوى من الوقف وأظهر.

ويحذر من التمضيغ، وهو تعريض الشّدقين[1]، كالمتزحّر[2] والضاحك المخافت، واستراط الريق[3].

ومن العيوب: الطَّحْر[4]، وهو إخراج الحروف بالنفس قلعاً من الصدر، ولربما خفي بأكثرها مخرج الحاء والهاء، لما يبالغ في إخراجها من الشدة، ومنهم مَن يفتح لذلك فاه حتى كأنه يصايح مخاصماً له في إغضاب.

ومن العيوب: الزَّحْرُ، وصفته تمديد الحروف خارجاً عن سنن حدها، حتى تتقلص لذلك جلدة الوجه.

ومن العيوب: الترعيد، وصفته تعليق الصوت بترديد الحنجرة، كأنه يروم منزلة من التطريب.

ومن العيوب: التشديق، وصفته تطويل الحروف في تمييل أيمن الشدقين أكثر من تمييل الأيسر، والاستعانة بهما عند المخفوض، أو التنقُّل من خفض إلى فتح، مثل: ﴿إن وليّيَ الله﴾[5] أو إلى رفع، مثل قوله: ﴿والعشيّ يريدونَ وَجْهَهُ﴾[6].

ومن العيوب: التكليم، وصفته تجعيد الحروف بترقيص النَّفَس وهذا وما أشبهه من المعايب كرهها العلماء بالقراءة وذوو المعرفة بالأخذ، وذكروا فيها التصانيف.

---

(١) الشدق جانب الفم (لسان العرب) ١٢/٣٩: (شدق).

(٢) المتزحر من الزحير، وهو إخراج الصوت أو النفس بأنين عند عمل أو شدة: (لسان العرب) ٥/٤٠٧ .(زحر).

(٣) قلت: أي ابتلاعه.

(٤) الطحر النفس العالي، والطحير من الصوت مثل الزحير أو فوقه: (لسان العرب) ٦/١٦٩ : (طحر).

(٥) الأعراف: ١٩٦.

(٦) الكهف: ٢٨.

باب
وصف الهيئة المحمودة والطريقة المقصودة

أحْمَدُ الأشياء عاقبةً، وأسدُّها ثاقبةً، وأعدلُها طريقةً، وأجمَلُها خليقةً، هو المضي على سنن واحد[1] يقبله الغائب والشاهد، لا تمضيغ ولا تضجيع ولا تمطيط ولا تقطيع، ولا علو صوت ولا خفوت، ولا خروج من نطق إلى سكوت.

ولا يخلو الإنسان من أحد أمرين: إما أن يجد ذلك بطبعه وطريقته وهديه وخليقته، فهو مستمر عليه غير مائل، إلاّ أن يعترضه سبب فهو لأجله عن ذلك عادل، مثل شِبَع في غذاء، يعقبه رُبُوُ النَّفَس، أو سُعال أو فُواق أو جُشَاء[2]، فهو إما أن يمسك حتى يزول العارض، أو يعلم من حاله أنها لم تتغير إلاّ لأجل ذلك السبب.

والقسم الثاني: مَن لا يعلم من نفسه ما ذكرناه، فهو يتدارك ذلك من نفسه بمجالسة القراء، ورياضته بمجالس العلماء، وسماع مَن وهب الله له تلك الطريقة المحمودة، ولن يخليه الله منها وتعلُّمها والموهبة له بتفهمها، فهذه الصفة المحمودة في الأصوات.

وأما الهيئات فهو أن يترك الجوارح على ما جبلها الله ـ سبحانه ـ عليه، لا يُغيَّر ولا يُزادُ في انتصاب ما منها منتصب، ولا في انحطاط ما منها منصوب كالرقبة، ومدار العينين، وانبطاح الأنف، وتركيز الجسم في الجلوس والقيام والانتقال من حال إلى حال غيرها في خفض وسكون، وتجنُّب جميع ما ذكرناه في الباب الأول.

---

(١) قلت: أي طريقة واحدة.

(٢) الفواق ترديد الشهقة العالية: (لسان العرب) ١٩٢/١٢: (فوق)، والتجشؤ نفس المعدة عند الامتلاء، والاسم الجُشاء (لسان العرب) ٤١/١ (ج ش أ).

باب
في تعديل الوزن والترتيل

يجب على قارىء القرآن أن يأتي بحروف القرآن في وزن عادل وترتيب متماثل، يجعل مفتوح الحروف ومنصوبها لبقة التعالي خفيفة التوالي، ومضمومها ومرفوعها إشارة لطيفة، وكذلك مكسورها ومخفوضها حركة خفية إلاّ ما كان من ذلك محتاجاً إلى الإشباع فإنه حينئذ يشبع من غير تعدٍّ.

ولا يلفظ بالنون والتنوين إلاّ بمقدار الحاجة.

ولا يجاوز الممدود منزلته، ولا يقصر بالمقصور عن درجته.

وليحذر أن يُخرج طرف لسانه بالذال والظاء والثاء، إخراج ظهور بل بطرفٍ ويمضي لسانه.

ولا يعض على الضاد المتحركة حتى يخرج لها من الخيشوم صوت، فتكون لا ضاداً ولا ظاء، فإن فعل ذلك ولم يكن معتل اللسان، كان في ذلك من القبح قسط.

ولا يرخي اللسان بالتاء حتى تخرج مما بين الأضراس.

ولا يلفظ بالصاد حتى يكتسي من السين لباساً، أو بالسين حين يبلغ مَدْرَجة الصاد.

ولا يشدد النون والتنوين عند الحروف الحلقية حتى يزول التسكين شيئاً إلى الحركة، وما أكثر مَن رأيت يتوانى في ذلك وهو قبيح جدًا.

ولا ينفخ بالباء الساكنة كنفخ النائم، فإن ذلك من أسمج الصفات، وليتدبّر هذا المقال، وليأتِ بنظائره من الأشكال بوزن واعتدال، من غير تجاوز ولا اختلال.

باب
وصف حدر القراءة[1]

يجب أن يُراعي في حدره المفتوح فيدنيه عن التبليغ، والمخفوض والمرفوع فيوقعهما بلا تخفيف، ويمرن لسانه على المشدد، والمهموز، والمنون، والممدود والمقصور، والمدغم والمظهر، في إعطاء كل نوع من ذلك حقه.

وليحذر أن يفسد بإسراعه الحروف المأخوذ عليه رعايتها، فليس الحدر يوجب ترك ممدود، ولا منون مظهر، ولا مدغم، ولا مخفى. فمَن لم يحرس في درجة ما ذكرت كان خلله كثيراً وفساده عظيماً.

باب
وصف قراءة الألحان

وقد كرهها جماعة من العلماء وأئمة القرآن لخروجها عن سنن القراءة المألوفة وشرائطها الموصوفة، ومراعاة أصوات مصنوعة وهم في الاهتمام بمراعاة شرائط التلاوة أولى، فإن استعملوها أَخلُّوا بما وضعوه، وإن لم يستعملوها أخلُّوا بواجب فيها لا بد منه، فكم فيها من قصر لممدود ومد لمقصور، وتحريك لساكن وتسكين لمتحرك، وهمز لمخفف ومخفف لهمز، وإظهار لمدغم، ومدغم لمظهر، مع أشياء كثيرة يطول شرحها وتعدادها حققها العلماء وميَّزها القراء.

فإن سمعها سامع فأنكر نُسِبَ إلى الفظاظةِ والغِلَظ، وإن أقرهم على ذلك مع الكراهة فهو إقرار على الخطأ مع العلم به، وإن غلب عليه هواه بتحسين ما يلحنون ـ وهم في التحقيق عنده يلحنون ـ

---

(١) قلت: هو مرتبة في سرعة القراءة ليس بعدها مرتبة مع المحافظة على قوام الحروف لئلا تُدمج في بعضها.

فصدف عن الكراهة وأقر على المكروه عند اللذة الداخلة على سمعه وقلبه فهذا ممن غلب هواه هداه، وكان من الغاوين، والأسلم على جميع الأحوال مجانبتها كما ذكر العلماء، وحذّر منها الأتقياء: سفيان بن عيينة، وأحمد بن حنبل، وابن المبارك[1] وغيرهم.

باب
وصف قراءة ذي الصوت الحسن

يقرأ بخشوع وافتكار وتحزين واعتبار يعطي الحروف حقوقها، ويأتي بالتلاوة بكمال شرائطها، فذلك الذي ينبغي أن يُجالَس، قد سلم من الافتتان في تلاوته والإفحاش في قراءته، فالنفوس إلى سماع ما يتلو مائلة، والقلوب عليه غير عادلة، فإن كان له مجلس للقراءة فإنه يُقصد، وإن كان صاحب محراب فإنه يُصَلّى خلفه، تبركاً بما يسمعون، وتفهماً بما يعون، فهم بذلك يؤجرون، وعند سماع كتاب الله يخشون، قال الله عزّ وجل: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾[2].

قال بعض العلماء: إن الله تعالى أنزل هذا الكتاب، وجعل حكمه بين أمرين: التدبُّر والتذكُّر، فمَن لم يحصل له في قراءته أو في سماع تلاوته تدبُّر ولا تذكُّر لم يفز بنائل، ولم يحظَ بكبير طائل، نعوذ بالله من الغفلة والسهو، فإنها مفتاح كل شر ولهو.

باب
وصف قراءة المحاريب

الأولى أن يُسْلَك فيها التوسُّط، ويُعْدَل عن التجافي والشطط،

---

(١) سفيان بن عيينة، أبو محمد الكوفي، محدث فقيه، ت سنة ١٩٦هـ.
أما ابن المبارك فهو: عبدالله بن المبارك بن واضح، فقيه، محدث، مفسر، مؤرخ، لغوي، ت سنة ١٨١هـ.

(٢) ص: ٢٩.

وليراع في محرابه الوقوف المستحسنة، وليجتنب الفاحشةَ المستنكرةَ، وإن كان ذلك تجب مراعاته في كل حال، إلا أن المحراب يراعى فيه مَن يستمع ويتلو أكثر.

وهم[1] على ثلاثة أضرب، فمنهم مَن يمضي على سنن واحد بترتيل وهو أكملها، أو يحدر وهو أسهلها، أو يجمع بينهما وهو أعدلها، بعد أن لا يخل في جميع ذلك بشيء من شرائط القراءة، وليراع ركوعه وسجوده وتشهده وأركان صلاته التي لا تصح إلا بها، ولا يهمل ذلك فإنه فرض، والتلاوة ما عدا الفاتحة نفل.

ولا يقرأ إلا بالمشهور من القراءات والروايات، وليجتنب الشواذ من ذلك ـ وإن كانت جائزة في العربية ـ وما خالف المصحف منها فهو المجمع على تركه وإن كان شهدت العربية بصحته؛ لأن القراءة سنّة لا يجوز مخالفتها ولا العدول عنها.

باب
وصف قراءة الترسيل والترتيل

وهو إعطاء الحروف حقوقها من المد والقصر والتشديد والتخفيف والإمالة والتفخيم والإظهار والإدغام، ونحو ذلك من أصول القراءة، حتى يأتي بها بيقين، وليحذر حركة المجزوم، أو جزم المتحرك في ترتيله. وليتنكب التمطيط، فأكثر ما يكون في الترتيل وما لا تنوين فيه فليراع تخليصه من التنوين.

وأمَّا المشدد فإن كان من الباء أطبق شفتيه من غير إفحاش ولا تطويل، وإن كان من الميم أطاله عن درجة الباء قليلاً، فالأول مثل ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾، والثاني مثل: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ﴾.

---

(١) أي قُراء المحاريب.

فأمّا الضاد فليحذر حين تشديده إياها من إخراج صوت كالشين. وأما السين فلا يصفر فيها صفيراً تسمع الزاي منها، بل يجتهد في أن تكون سيناً خالصة بلا شَوْب، فإذا جاءت الزاي فَلْيُخْلِصْهَا أيضاً، وإذا جاءت الصاد فليزدها من التشديد، ولِيُبْدِهَا صافية من الإشمام، فإن كان ممن يشم الصاد زاياً في مثل: ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ و﴿يَصۡدِفُونَ﴾[1] و﴿يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾[2] أتى بذلك وسطاً بإحسان وإتقان، وكذلك يفعل بما لم يكن ساكناً في الوقف مثل ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ﴾، وإن كان ممن يقرأ «الصراط، وصراط» بالسين طلب ذلك بأعدل الأمور.

ويجب على مستعملي الإدغام أن لا يميتوا الحروف كي ما يبرأوا من الإساءة، ولا يزيدوها ثقلاً كي ما يبرأوا من الإفحاش، ولينحرف صاحب التحقيق عن الجهر الشديد والإطالة والتمديد، فإنه عند العلماء فساد وليس بتجويد.

باب
صفة الهمس والمخافتة حين الدرس

إذا كان القارىء مخافتاً في صلاته أو غيرها، فقد قال عبدالله بن مسعود: (لم يخافت من أسمع أُذنيه). وقال قتادة: (إمَّا أسمعت أذنيك فلست بمخافت) وهذه الصفة حلية لقراءة المصلين وغيرهم، ليلاً كان ذلك أو نهاراً، نفلاً كان أو فرضاً، إلا أن صلاة النهار غير مجهور بقراءتها، إلا صلاة الفجر والجمعة، وصلاة الليل مجهور بها في الأُولَيَيْنِ من المغرب والعشاء، ووردت السنة بالجهر في صلاة العيدين.

---

(١) الأنعام: ٤٦.

(٢) القصص: ٢٣.

ولا بد أن يُسمِعَ أذنيه في الصلاة ما يقرأ به، وكذلك الأذكار في الصلاة وما محله اللسان، وأما في غير الصلاة فقال أبو الحسين بن المنادي[1] ـ رحمه الله ـ: (صفة التخافت تحريك اللسان والشفتين عن قلوص نَفَس لا صوت له ولا همهمة ولا همس ولا زمزمة، إلا أنه متى ترك استعمال اللسان فليس بقارىء).

والهمهمة إخراج أدنى صوت لا تفهم معه الحروف، والزمزمة إفهام بعض الحروف دون بعضها، فافهم ذلك وتدبَّره، فإنه لطيف).

باب
المأثور في رفع الصوت وخَفته

/١٨١ و/ روى جبير بن مُطعم[2] قال: أتيت النبيَّ ﷺ لأكلِّمَهُ في أسارى بدر فوافقته وهو يصلي بأصحابه صلاة العشاء أو المغرب، قال: فسمعته وهو يقرأ وقد خرج صوته من المسجد ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ مَا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾﴾[3] قال: فكأنما صَدَّعَ قلبي[4].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: تَهَجَّدَ رسول الله ﷺ في بيته، وتهجَّد عَبَّاد[5] من بني الأشهل في المسجد، فسمع النبيُّ ﷺ صوته

---

(١) توفي سنة ٣٣٦هـ، وهو عالم مشارك في كثير من العلوم إلا أن علم القرآن غالب عليه، وله فيه مصنفات كثيرة. (انظر مصادر ترجمته في عمر كحالة: معجم المؤلفين ١٨٣/١).

(٢) جبير بن مطعم بن عدي القرشي، كان من حلماء قريش وساداتهم، قيل إنه أسلم يوم الفتح، وكان حين أتى النبي ﷺ في فداء أسارى بدر كافراً، وتوفي بالمدينة سنة ٥٧هـ. انظر ابن عبدالبر: (الاستيعاب) ٢٣٢/١.

(٣) الطور: ٧، ٨.

(٤) قلت: انظر صحيح الإمام البخاري: كتاب المغازي: باب شهود الملائكة بدراً ١١٠/٥ طبعة دار الجيل.

(٥) هو عباد بن بشر الأنصاري، كان من فضلاء الصحابة، وقتل يوم اليمامة شهيداً. انظر ابن عبدالبر: (الاستيعاب) ٨٠١/٢.

فقال: «**يا عائشة صوت عباد؟**» قلت: نعم، قال: «**اللهمَّ ارحم عبَّاداً**»[1]، وقال النعمان بن أبي عياش[2]: لقد أدركت الناس وهم يجهرون بالقراءة في صلاة الليل في منازلهم.

وقال الحسن البصري ـ رحمه الله ـ: لا بأس بذلك ما لم يخالطه رياء.

وقال أشعث الحُدَانيّ[3]: رأيت النبيَّ ﷺ في المنام، فقلت: يا رسول الله إنَّ لي صوتاً بالقرآن، وإذا قرأت يرتفع صوتي، فقال: «**إذا استقامت نيتك فلا بأس**».

وقال ابن عباس: أُنزلت هذه الآية ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ أنَّ رسول الله ﷺ كان يجهر بالقرآن وهو بمكة فتأذى بقراءته المشركون فَيُؤذَى، فقال الله: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾[4].

وعن ابن عمر رضي الله عنه أنه كان في قراءة الليل يرفع صوته.

وخرج النبيُّ ﷺ ذات ليلة إلى المسجد وأصحابه يتهجدون فوجد أبا بكر الصدِّيق يخافت بالقراءة، وعمر بن الخطاب يجهر بها، وآخر يقرأ آية من هاهنا وآية من هاهنا، فسألهم من الغد، فقال أبو بكر: قد

---

(١) رواه البخاري.

(٢) النعمان بن أبي عياش الأنصاري: أبو سلمة المدني، من أفاضل أبناء أصحاب رسول الله ﷺ. انظر ابن حجر: (تهذيب التهذيب) ١٠/٤٥٥.

(٣) أشعث بن عبدالله بن جابر الحداني البصري. انظر ابن حجر: (تهذيب التهذيب) ٣٥٥/١.

(٤) الإسراء: ١١٠.

أسمعتُ من ناجيت، وقال عمر: أُوقظ الوَسْنان[1] وأطرد الشيطان وأرضي الرحمٰن، وقال آخر: كل حسن جمع بعضه إلى بعض، فأنا أقرأ من هاهنا ومن هاهنا[2].

وأما حديث أبي هريرة أنَّ النبيَّ ﷺ كان يعجبه الرجل الرقيق الصوت الخفيض، ويكره المجهار فهو محمول على الجهر الشديد الفظع، وكذلك ما رُوي نحوه.

وقال سعيد بن جبير[3]: كان النبيُّ ﷺ يجهر بالبسملة بمكة فكانت قريش تقول: يعني بالرحمٰن رحمان اليمامة، فنزل ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ أي يعني بقراءتك ذلك، فلم يعد إلى الجهر بها.

باب
وصف العوارض باللسان
والحيلة في إذهاب بعضها من الإنسان

قال أبو الحسين المنادي ـ من أصحابنا، رحمه الله ـ:

الثقل في اللسان عند رطوبة حادثة ربما ذهب بالاستفراغ، فإن هي لم تَزُلْ وكانت لازمة فكثرة الدرس تخففها شيئاً، والسواك وإدمان الحركة ينشفان بعضها[4].

وليتقِ من الأكل الذي يكون عوناً لدائه، وليراقب كثرة الكلام ما

(١) قلت: أي النعسان.
(٢) انظر سنن أبي داود: ٣٧/٢.
(٣) سعيد بن جبير الكوفي، قُتل سنة ٩٢هـ رحمه الله تعالى. انظر السيوطي (طبقات الحفاظ ص٣١).
(٤) قلت: وذلك على حسب تجاربهم أو ما وصل إليه علمهم بالبدن في تلك الأيام.

استطاع، فإن تدرج بذلك وإلا فليس بعد الاجتهاد حال.

والفأفاء هو الذي يكرر الفاء.

وأما اللُثغة فكائنة في بعض حروف التهجي، فإن كانت عسيرة لم ينجح فيها الدواء وكان الاحتيال في إذهابها شغلاً غير ربيح، وإن كانت يسيرة سهل علاجها، ونقصت نقصاناً بيّناً.

فمن اللُثَّغ من تتغير الراء في لسانه فتكون على درجة اللام أو الغين، ومنهم مَن تتغير الراء في لسانه فتكون على درجة النون أو الياء، ومنهم مَن يلثغ بالكاف فيخرجها الصوت في طريقة القاف سواء، ومنهم مَن يلثغ بالغين فيخرجها الصوت في طريقة العين، ومنهم مَن يخرج الحاء مزحلقة بالصوت في مدرجة الخاء، ومنهم مَن يخرج الكاف وهي من أقصى فيه من مدرجة الياء الكائنة في أدنى الفم، ومنهم مَن ينطق بالسين ثاءً، ومنهم مَن ينطق بالشين تاءً، ومنهم مَن يبدل العين في منطقة همزة والغين كذلك، ومنهم مَن ينطق بالسين شيناً، والثاء سيناً، وبالصاد زاياً، وباللام ياءً.

وأقوى ما يكون شيء مما ذكرنا إذا كان ساكناً، وهو في حال الحركة أكثر ممراً على اللسان والصوت، فليحتل المبتلون بذلك في إذهابه.

فإن جاهد ذلك بطول السعي وتكرير التثقيل فانتفع به وإلا فلا بد له من الدنوّ إلى الصواب، فإن لم يغلب شهوته لدفع ذلك عنه فليخفض صوته بالحرف المعلول، وليجهر بما سواه، فإن تجويده للعليل زيادة في علته، وإذا كان ذلك فهمسه أصلح من جهره. أعاذنا الله وإياكم من العلل، وسلمنا من الزلل، واستعملنا بحسن القول والعمل، إن شاء الله.

باب
زائد في الكتاب في عيوب اللفظ

قال محمد بن يزيد المُبَرِّد النحوي[1] ـ رحمه الله ـ:

التمتمة الترديد في التاء، والفأفأة الترديد في الفاء، والعُقْلَةُ التواء اللسان عند إرادة الكلام، والحُبْسَة تعذر الكلام عند إرادته، واللَّفَفُ إدخال حرف في حرف، والرُّتَّةُ كالرَّتَجِ تمنع أول الكلام، فإذا جاء منه شيء اتصل، والغَمْغَمَةُ أن تسمع الصوت ولا يبين لك تقطيع الحروف، والطَّمْطَمَةُ أن يكون الكلام مشبهاً لكلام العجم، واللُّكْنَةُ أن تعترض على الكلام اللغة الأعجمية، واللَّثْغَةُ أن يُعدل بحرف إلى حرف، والغُنَّةُ أن يُشْرَب الحرف صوت الخيشوم، والخُنَّةُ أشد منها، والتَّرخِيمُ حذف الكلام.

فصل

قال: الرتة تكون غريزة، وتكون في الأشراف، والغمغمة قد تكون من الكلام وغيره، لأنه صوت لا يفهم تقطيع حروفه.

قال: وبنو عمرو بن تميم إذا ذكرت كاف المؤنث فوقفت عليها أبدلت منها شيناً لقرب الشين من الكاف في المخرج، وأنها مهموسة مثلها، فأرادوا البيان في الوقف لأن في الشين تَفَشِّياً، يقولون للمرأة: جعل الله البركة في دَارِشْ، وويحك مَا لَشْ، والتي يدرجونها يتركونها كافاً، والتي يقفون عليها يتركونها شيناً.

---

(١) قلت: هو إمام النحو، أبو العباس، محمد بن يزيد بن عبدالأكبر الأزديّ البصريّ، النحويّ الأخباريّ، صاحب «الكامل». كان إماماً، علامة، فصيحاً، وسيماً، مفوهاً، موثقاً، صاحب نوادر وُطرَف. توفي سنة ٢٨٦ رحمه الله تعالى. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٣/٥٧٦ ـ ٥٧٧.

وأما بكر فتختلف في الكسكسة، فمنهم مَن يبدل من الكاف سيناً غير معجمة، ومنهم مَن يبين حركة كاف المؤنث في الوقف بالسين، فيزيدونها بعدها، فيقولون: أعطيتكس.

وقال العتابي[1]: إذا حبس اللسان عن الاستعمال اشتدت عليه مخارج الحروف.

فصل

وقال أبو عثمان[2]:

من عيوب اللفظ اللجاج، والتمتام، والفأفاء، والألثغ، وذو الحبسة، والحُكْلة، والرُّتَّة، وذو اللَّفَف، والعجلة.

والحروف التي تدخلها اللثغة أربعة[3]: القاف والسين والراء واللام، فأما القاف فيجعلها طاء، فإذا أراد أن يقول: قلت له، قال: طلت له.

وأما السين فيقول: بثم الله، إذا أراد أن يقول بسم الله يجعلها ثاءً.

وأما اللام فمنهم مَن يجعلها ياءً فيقول: جَمَي، في جمل، ومنهم مَن يجعلها كافاً، إذا أراد أن يقول: ما العلة في هذا؟ قال: مَكْعِكَّة في هذا.

وأما الراء فيعرض لها أربعةُ أحرفٍ، يجعلها ياء فيقول في عمرو:

---

(١) هو كلثوم بن عمرو، أديب، شاعر، ناثر، توفي في حدود ٢٢٠هـ.

(٢) هو عمرو بن بحر الجاحظ، مؤلف (البيان والتبيين) وغيره من الكتب، توفي سنة ٢٥٥هـ.

(٣) انظر الجاحظ: (البيان والتبيين) ٣٤/١.

عَمْي، أو ذالاً: عمذ، أو ظاء فيقول: مَظَّة مكان مرة، أو ياء، فيقول: معيَّة مكان مرة.

فصل

وقال: ليس للروم ضاد، ولا للفرس ثاء، ولا للسرياني ذال.



نوادر فلسفية ترجمها إسحاق بن حنين[1]

الأستاذ صلاح الدّين عبدالله[2]

أقوال إسوريس:

قال إسوريس: يقال: إن الإنسان خَيِّرٌ في الطبقة الأولى إذا كان استخراجه للأمور الجميلة من تلقاء نفسه، ويقال: إنه خير في الطبقة الثانية إذا كان قابلاً للأمور الجميلةِ إذا عرفها.

وقال: أما الطريق الذي يؤدي إلى الخير فطريقٌ مُعْور[3]، فهو صعبُ المسالك متعِبٌ مُفْرِق[4] وليس يمكِنُ كلّ أحدٍ سلوكه ولا يُمكِّنُ كلاً من سلوكه. وأما الطريقُ الذي يؤدي إلى الشَّرِّ فطريقٌ سَلس سَهْل المسالكِ غيرُ مُتْعِبٍ وَسِعٌ يمكنُ كلّ أحد سلوكه وبلوغ آخره.

---

(١) قلت: هو إسحاق بن حنين بن إسحاق العبادي. طبيب، مترجم، أفاد العربية بما نقله إليها من كتب الحكمة وشروحها. خدم بعض الخلفاء من بني العباس. ألّف كتباً كثيرة، وكان عارفاً باليونانية والسُريانية، فصيحاً بالعربية. وُلِدَ في بغداد سنة ٢١٥ وتوفي بها ٢٩٨ بعد أن فُلج في آخر عمره. انظر: «الأعلام»: ١/٢٩٤.

(٢) قلت: انظر مجلة «معهد المخطوطات العربية»: المجلد الثاني والأربعون: الجزء الثاني: رجب ١٤١٩: ص: ٧٢ - ١٠٧.

(٣) معور: أي موحش.

(٤) مفرِق: أي مخيف.

أقوال باسليوس:

وقال باسليوس[1]: لا تغتر بطيب الكلام وحسنه إذا كان الغرض الذي يُقصد إليه ضارّاً، فإن الذينَ يَسُمُّون النَّاسَ إنما يَخلِطون لهم السُّمَّ بالحلوى.

ولا يَصْعُبَنَّ عليك الكلامُ الغليظُ إذا كان الغرضُ الذي يُقصد إليه نافعاً، فإن أكثر الأدوية الجالبة للصحة هي مرة بشعة.

وقال: لا تأخُذَنَّ من جميع الناس جميعَ ما عندهم، ولكن ينبغي لك أن تأخذ ممن هو في الناس محمودٌ في جميع خصاله جميع ما عنده، وممن هو محمودٌ في شيء واحدٍ ذلك الشيء فقط؛ فإن التفاحةَ ليس يُلتذُّ منها برائحتها فقط، بل يُلتذُّ ـ مع ذلك ـ بأكلها، وأما الزهر فإنما يُلتذّ منه برائحته فقط، ومنه ما لا يُلتذّ برائحته، ولكن بالنظر إليه مثل زهرِ الدِّفْلَى[2]، فأما النخلةُ فإنما يُلتذ بثمرتها.

وأما شجرة الورد فبزهرتها فقط بعد أن نتوقى شوكها، فإذا كان الأمر كذلك فينبغي أن يأخذَ ممن هو محمودٌ في الكلام والفعلِ جميع ما عنده، وممن هو محمودٌ في الكلام فقط محمودُ الكلام فقط لا الفعل، ومن كان كَلامهُ كلّه جيداً وفعله كلُّهُ كذلك فينبغي أن تأخذَ منه كلامه كلَّه وفعلَه كلَّه، ومن كان موجوداً عنده شيءٌ جيدٌ وشيءٌ رديء؛ إما في الكلام وإمّا في الفعل، فإنما ينبغي أن تأخذَ منه الشيءَ الذي هو جيدٌ لك فقط، بعد أن تجعلَ نظرك لا في قوةِ الشيء الذي تروم أخذَه

(١) هو أسقف كنيسة قيسارية ـ سنة ٣٧٩م، تعلم علمي: الفصاحة والخطابة على يد ليبانيوس الفيلسوف الأنطاكي، واشتغل بالمحاماة، وفي سنة ٣٦٢ رقي إلى درجة الكهنوتية، وفي ٣٧٠ رُسّم رئيساً لأساقفة قيصرية. راجع السنكسار، ط: مكتبة المحبة ج١، ص: ٣٤٣.

(٢) في مختار الحكم «ورد»، وفي الكلم الروحانية «ورق».
الدّفلى: شجرٌ مر، وقيل: هو الحنظل.

فقط، بل تنظر مع ذلك في قوتك أيضاً هل أنت كفؤٌ لأخذِه؟ فإن التقاطَ العسلِ من الزهرِ يمكنُ النحلة ولا يمكنُ الإنسان.

وقال أيضاً: إن من القبح تتحرّز في أغذية البدن كي لا تكون ضارة، ولا تُعنى وتتحرى أكثر من ذلك في العلم - وهو غذاء النفس - كي لا يكون باطلاً ضاراً.

وقال: إنه من القبيح أن يكون الملاحُ لا يطلقُ سفينَته مع كل ريح ونطلق نحن أنفسَنا لنعلمَ كلَّ علمٍ من غير بحثٍ ولا اختيار.

وقال: ينبغي لمن حضر محفلاً فأطنب في القول في اختيار الأُمور الجميلة الفاضلة ألا نحتارَ إذا هو خلا ونفسه ففعل أموراً قبيحة؛ وذلك أنْ ليس من العدل أن يكونَ الإنسانُ يوجبُ للعامة الكرامةَ والهيبةَ وحُسنَ المشورة، ويخص نفسَه بالهوان والخساسةِ وسوءِ المشورة.

وقال: إن كان من القبيح إذا كان البدنُ سمجاً بأوساخ وأقذارٍ قد غَشِيَتْه أن يكونَ مُزيناً من خارج بثياب نظيفة فأقبحُ من ذلك أن تكونَ النفس دنسةً بأوساخ العيوب، ويكون البدنُ من خارج مزيناً.

وقال: اخترْ ذهابَك إلى الطبيب على مجيء الطبيب إليك؛ لأن الذين يذهبون إلى الطبيب إما أن يكونوا أصحّاءَ أو بهم علةٌ يسيرةٌ، فأما الذين يسير إليهم الطبيبُ فإنهم مرضى بحالِ سوءٍ، فما بُيِّن لك في ذلك في طبيبِ البدنِ، فأَخْطِرْهُ ببالِك في طبيب النفس، وذلك أنه ينبغي أن تطلبَه ما دمت قوياً صحيحاً ولا تنتظرْ أن تغرقَ في المرض فيجيءَ هو يعودك.

وقال: كما أنك لا تشفقُ في البدن من أن تقطع عضواً قد وقع فيه سمٌّ فإن أشفقتَ فليس يقالُ فيك حينئذ: إنك شفيقٌ، بل يقالُ:

إنك مُبغضٌ[1] بالحقيقةِ، كذلك لا ينبغي أن تشفقَ في النفس إذا كانت الشهواتُ قد غلبت عليها من أن تؤلمها، فإنه قد قيل: إن الذي يشفق على سوطه مُبغضٌ لابنه، والذي يحبُّ ابنَه يحرصُ على تأديبه.

وقال: كما أن الأمراضَ التي تعرضُ للبدن إن لم يعلم الطبيب الأسبابَ الفاعلةَ لها ويتقدم فيحسمها إذا كانت حاضرة لم تبرأ، كذلك في علل النفس أن تُعنى خاصة بقلع أصلها والأسبابِ الفاعلةِ لها من النفس، فمتى أحسستَ بأنك قد أخطأتَ وأردت أن لا تعودَ أيضاً فتخطىءَ فانظر أي أصل في نفسك حدث عليه ذلك الخطأُ؟ فاحتلْ في قلعه لا في تركه وقلع النبع الذي نبت منه، وذلك أنك إذا قلعتَ هذا فعاد ينبت منه، وذلك أنك إذا قلعت ذلك الأصلَ من نفسك وعدت فأخطأتَ مثل ذلك الخطأ فاعلم يقيناً أنك لم تقلعهُ، فعد فاستقص قَلعهُ.

وقال: ينبغي لك إذا دبَّرتَ إنساناً تريدُ بذلك صلاحه ألا تتشكلَ بشكل من يريدُ أن يعوقَ أو ينتقمَ من عدو، لكن ينبغي لك أن تتشكلَ بشكل من يُطَبِّبُ أو يكوي صديقاً لعلاج داءٍ رديء به، وإذا دبرت أيضاً لصلاحِك فينبغى لك أن تتشكل بشكل المريض للطبيب.

وقال: كما أن جميع الأعراضِ الخارجةِ عن الطبيعة التي تظهر في البدن تتبعُ ـ ضرورةً ـ أمراضاً في البدنِ وأسباباً خارجةً عن الطبيعة، كذلك الكلامُ الغليظ، والأفعالُ الصعبةُ التي تظهرُ من النفس تتبعُ ـ ضرورةً ـ إلهاماً نفسانيّاً أو سبباً خارجاً عن الطبيعة تامّاً في النفس، فليسَ ينبغي لكَ إذن أن تُصدقَ مَن ظهر منه ـ في وقتٍ من الأوقات ـ كلامٌ غليظٌ أو فعل صعْبٌ إذا عاد في وقت آخر فقال: إنه

---

(١) قلت: أي مبغض لجسدك.

ليس في نفسهِ مكروهٌ، وذلك أنه كما أن الذي به مرضٌ في بدنه إنما يُحسه في وقتِ نوائبهِ فقط والطبيب يُحسه مع ذلك في وقت سكونه أيضاً، كذلك من كان به ألمٌ نفسانيٌّ إنما يُحسه في وقت حركتهِ فقط وطبيب النفسِ يحسُّه مع هذا في وقتِ سكونهِ.

وقال: كما أن الذين يستعملون حواسَّ البدنِ فقط يمنعهم من الغضب الخوفُ من الملكِ المحسوس إذا وقفوا بين يديهِ، كذلك يجبُ على من يستعملُ الحواسَّ النفسانيةَ أن يمنعه من الغضبِ الخوفُ من الملكِ المعقولِ الذي هو واقفٌ بين يديهِ دائماً[1].

وسُئل: كيف يتمُّ للإنسانِ ألا يغضب؟

فقال: ليكنْ ذاكراً في كل وقتٍ أنه ليس يجب أن يطاعَ فقط، بل أن يطيع أيضاً، وأنه ليس يجب أن يُخدَم فقط بل أن يَخدُم أيضاً، وأنه ليس يجبُ أن يُحتَمل خطؤه فقط بل أن يحتمل الخطأ عليه أيضاً، وأنه ليس يجب أن يُصبر عليه فقط بل أن يَصبر هو أيضاً، وأن الله يراهُ دائماً فإنه إذا فعل ذلك لم يغضب وإن غضب كان غضبُه أقلَّ.

وقال: يستقيمُ أن نكون نقصدُ بأكلنا وشربنا إلى شكر الله تعالى، ولا نقصد بصومنا وصلاتِنا إلى شكر الله سبحانه إذا كان قصدُنا بفعل ذلك أن نعيش عيشاً جيداً عقليّاً ونفعلَ هذا ليَحمدنا الناس. فعلى هذا المثال كلُّ شيء من الأشياء ينبغي أن نختبر الغرضَ فيه لا ما يظهرُ من الفعل.

وقال: لا ينبغي لك أن تحبَّ فعلَ شيء إذا عُيِّرت به غضبت، وذلك أنك إذا فعلت هذا كنتَ أنت الشاتمَ لنفسك.

---

(١) قلت: أي الله تبارك وتعالى، كما في مصدر آخر؛ كما بين المحقق.

أقوال سولون[1]:

وقال سولون الحكيمُ لرجُل غنيٍّ: أمّا مالي فإنه لا يمكنُ في وقتٍ من الأوقات أن يصيرَ لأحد غيري، لكني إذا أعطيته إنساناً بقيَ من غير نقصان[2]، وأمّا مالُكَ فإنه يصيرُ لغيرك وإن أعطيته منه شيئاً نقصَ، ولا فرقَ بينه وبين الفصوص التي يُلعبُ بها إذا كان تتقلبُ جوانبها لكل واحد من الاثنين بالاتفاق.

أقوال سقراط:

وقال سقراط: لا تكن عنايتُك بأن تكسب شيئاً كعنايتك بحسن استعمال ما تكسبه.

أقوال أفلاطون:

وقال أفلاطون: إنه من القبيح أن نكونَ نَكْسَحُ[3] من كرومنا[4] فضلَ اليبسِ[5] ولا نكسَحُ من أنفسِنا فضل الشهوات.

وقال: إنه من القبيحِ أن نكونَ نتمتع من الإكثار من الطعام والشراب لتصحَّ أبدانُنا، ولا نتمتعُ منها أكثر لتصحّ أنفسُنا.

وقال: نحن إنما نطلب أن نعيشَ عيشاً طبيعياً كما نعيشَ عيشاً

---

(١) هو مشرع يوناني كان في عهد «بتستراتوس» في القرن الخامس ق.م. راجع أقواله - حسب تصور الإسلاميين - في: آداب الفلاسفة، ص: ١٣٩، والكلم الروحانية، ص: ٤٢٥، ومختار الحكم، ص: ٣٤، والملل والنحل للشهرستاني، تحقيق: محمد سيد كيلاني، ط: عيسى الحلبي: ١٩٧٦، ج٢، ص: ١٠٤، ونزهة الأرواح، ص: ٢٠٩.

(٢) قلت: يريد ما يعطيه للفقراء وذوي الحاجات من ماله فيبقى في حسناته.

(٣) قلت: أي نزيل.

(٤) قلت: مزارع العنب.

(٥) قلت: يعني الزيادات اليابسة كالورق اليابس.

عقليّاً، فإذا كان العيشُ الطبيعيُّ إنما نحتاج إليه للعيش العقلي فينبغي أن يكونَ قصدُنا للعيشِ العقلي، ولا نعطي القوةَ الطبيعةَ شيئاً أكثر مما تدعو إليه الضرورةُ[١].

وقال: إن كثيراً من الناسِ يرون العمى الذي يَعرِضُ لعيني البدن فتأباه أنفسُهم، فأما عمَى عينِ النفسِ فإنهم لا يرونه فليس تأباه أنفسهم، فلذلك لا يستحيون.

وقال: ينبغي لك من معرفتك بأنك في هذا البدنِ بمنزلة من هو في حبسٍ، لا ترومُ[٢] إطلاقَك منه من قِبَل أنك لم تحبسْ نفسَك فيه، لكن تنظرُ إلى من حبسك فيه أن يُطلقَك منه.

وقال: من قِبَل أن الأشياء الرديئةَ إنما هي في العالمِ فينبغي لنا أن نفرَّ من العالم، والفرار من العالم هو ألا يُنسَى الله عز وجل ثناؤه بمبلغ طاقة الإنسان.

وقال: لا تطلبنَّ من الله شيئاً هو لك، فإنَّ الله يعطي كلَّ واحدٍ ما يكفيه، لكن اطلب منه ما ليس لك وهو أن يُقْنِعكَ ما لك.

وقال: أما عوامُّ الناسِ فلأنهم يظنون أن الله في الهياكل فقط[٣]، يَرون أنه إنما يجبُ أن يتهيأ الإنسانُ ويحسنَ سيرتَه في الهياكل فقط، وأما ذوو المعرفةِ فلعلمهم بأن الله في كلِّ موضع[٤] فينبغي أن تكون سيرتُهم في كل موضعٍ كسيرةِ عوامِّ الناس في الهياكلِ.

وقال: كما أن البدنَ الخاليَ من النفس تفوح منه رائحةُ النتنِ، كذلك النفسُ العديمةُ الأدب لا تُحسُّ نقصَها بالكلام والأفعال، وكما أن نتنَ البدن الخالي من النفس ليس يُحِسُّه ذلك البدنُ، كذلك نقصُ

---

(١) قلت: أي لا نأكل ونشرب مثلاً فوق الضرورة أو الحاجة.

(٢) قلت: أي لا تطلب، وتقصد إليه.

(٣) قلت: أي يخافونه ويهابونه ما داموا في الهياكل أي المعابد.

(٤) قلت: وذلك بحسب اعتقادهم.

النفسِ العديمةِ الأدب ليس تُحِسُّه النفسُ بل الأدباء.

وقال: إني لأعجب من الذين يرفضون القبيحَ قولاً ويطلبونه فعلاً ويتشوقون الجميل قولاً ويهربون منه فعلاً كما يُهربُ من القبيح.

أقوال مالسيس[1]:

وقال مالسيس: إنه ليس بالموسرِ من كان يساره إنما يبقى قِبَلَه زماناً يسيراً ويمكنُ غيره أن يأخذَ منه ولا يكونَ بعد موته له، لكن الإيسارَ هو الباقي دائماً عند مالكه ولا يمكنُ أن يُؤخذَ منه، ويبقى له بعد موته، وإنما نجد على هذه الصفةِ الحكمةَ فقط؛ وذلك أنها دون سائر الأمور إذا أخذها إنسان آخر بقيت عند مالكها من غير نقصان وهي باقيةٌ له بعد موته.

وقال: الفقر هو أصل حسن سياسة الناس؛ وذلك أنه إذا كان من حسن السياسة أن يكونَ بعضُ الناسِ يسوس وبعضهم يُساس، وكان من يُساس لا يستقيمُ أن يُساسَ من غير أن يكونَ فقيراً محتاجاً، فقد تبين أن الفقرَ هو السبب الذي به يقوم حسنُ السياسة به.

أقوال ديمقراطيس:

وقال ديمقراطيس: لا تتكلم بين يدي أحدٍ من الناس دون أن تسمع كلامه وتقيسَ ما في نفسك من العلم إلى ما في نفسه، فإن وجدتَ ما في نفسك أكثرَ فحينئذ ينبغي لك أن تروم[2] زيادةَ الشيء الذي به تفضلُ عليه على ما عنده، وإن وجدتَ ما في نفسه أكثرَ فأَمسِكْ

---

(١) مالسيس هذا هو آخر فلاسفة المدرسة الإيلية وأكثرهم شهرة عند اليونان، وقد عرف في العالم الإسلامي، باسم «مالس»، وقد أكثر «أرسطاطاليس» ذكره في كتابه الطبيعة مقروناً باسم «بارمنيدس»، ومنفرداً أحياناً.

(٢) قلت: أي تطلب.

وحصِّل في نفسك الشيءَ الذي به يَفْضُل عليك مما استفدته منه.

وقال: إن كان الشاتمُ نذلاً فإن المتلقيَ للشتم بالشتم أيضاً نذلٌ، والكريمُ هو الذي يتلقى الشتمَ بالاحتمال فقط.

أقوال زينون[1]:

وقال زينون: إن الذي لا يُحِسُّ أن فيه نفساً ناطقة وإنما يُحِسُّ بأنه لابسٌ بدناً ميتاً فقط فإنه بهيمة ويجبُ أن يكونَ شأنه ما تفعله البهائم، وأما الذي يُحِسُّ بأن فيه نفساً غير ميتة فليس بالواجب أن يكونَ شأنه ما يفعله البهائم، لكن الواجبَ أن يفعلَ أفعالَ الله عز وجل[2].

وقال: لا تخَف موتَ البدنِ ولكن يجب عليك أن تخافَ موتَ النفس.

فقيل له: قلتَ: خافوا موتَ النفسِ، والنفس الناطقة عندك لا تموت؟

فقال: إذا انتقلتِ النفس الناطقة من حدّ النطقِ إلى الحدِّ البهيميّ - وإن كان جوهرها[3] لا يبطل - فإنها قد ماتت من العيش العقليّ.

ويقالُ: إن بعض الفلاسفة أخطأ في كلام تكلم به فجعل على نفسه ألا يتكلم، فجَهِد به بعضُ الملوك كلَّ الجهدِ وخوفه بالسيف على أن يتكلمَ فلم يفعل، فأكرمه الملكُ كرامةً كثيرةً على حفظ العهد الذي جعله على نفسه.

---

(١) زينون هذا هو الرجل الثاني في مدرسة «إلية» وصاحب الحجج العشر المشهورة في الردّ على مدرسة «هيرقليطس» التي قالت بالتغير والصيرورة.

(٢) قلت: يعني مثل الجود والرحمة إلى آخر ما يليق بالعبد أن يتشبه بربه فيه.

(٣) قلت: أي مادتها وتكوينها.

أقوال ثالس[1]:

وقال ثالس: إن الذي لا يقبل الحكمةَ هو الذي ضلّ عنها وليست هي الضالةَ عنه.

وقال: ليس ينبغي لك أن تعددَ أمور الحكمة بين يدي الكسلان؛ وذلك أنه كما أن البهيمةَ إنما تُحِسُّ من الذهب والفضة بثِقَلهما فقط ولا تُحِسُّ بنفاستهما، كذلك الكسلانُ إنما يُحِسُّ من أمور الحكمة بثقل التعبِ عليه منها ولا يحِسُ بنفاستها.

وقال: ليس ينبغي أن تعدَّ نفسك من الناس ما دام الغيظ يُفسدُ رأيك أو تتبعُ شهواتك.

أقوال أرسطاطاليس:

وقال أرسطاطاليس: ليس ينبغي أن يُمتحن الناس في وقت ذلهم، بل في وقت تملكهم وتسلطهم، وذلك أنه كما أن الكير[2] يُمتحنُ بهِ الذهبُ كذلك المُلْكُ يمتحن به الإنسان، فإن في ذلك الوقتِ يتبين الخيِّر خَيْرُوْرَته والشريرُ شرّه.

وقال: لا ينبغي أن تأخذ من العلوم قبل أن تنفي عن نفسك العيوبَ وتعودها الفضائل، فإنك إن لم تفعل هذا لا يمكنك أن تنتفع بشيء من العلوم.

وسُئل: أي الأشياء ينبغي أن يتعلمها الصبيانُ؟

فقال: الأشياء التي إذا صاروا رجالاً استعملوها.

وسُئل: أيُّ الحيوانِ أكثرُ محبةً للصنعة؟

فقال: أما فيما يُنتفعُ به فالنحلُ، وأما فيما لا يُنتفعُ به فالعنكبوتُ.

---

(١) «ثالس» أو «ثاليس» هو «طاليس المَلَطيّ»: أول فلاسفة الإغريق.

(٢) قلت: الكِير هو فُرن المعادن.

وشتمه إنسانٌ فقال: لست أدخل في معايبة الغالبُ فيها أخسُّ الفريقين.

وسُئل: أيُّ شيءٍ لا تقعُ فيه الشَّرِكةُ؟

فقال: المُلك.

وقال: إنه من القبيح ألا تكون حاجة الإنسان إلى العقل أكثرَ من حاجته إلى المال.

وسئل: أيُّ شيءٍ أصعب ما تحمله الإنسان؟

فقال: السكوت.

وقال: إن الآباءَ هم السبب في الحياة، والفلاسفة هم السبب في الحياة الجيدة.

وسُئل: أيُّ الأشياءِ أجملُ؟

فقال: حسن الثناءِ.

أقوال أناخوس:

عُيِّر أناخوسُ الحكيمُ بجنسه.

فقال لمن عيَّره: أما أنا فعاري جنسي، وأما أنت فعارُ جنسِك.

وقال: اعمل من الخير ما أمكنك؛ فإن الشر يُقدر عليه في كل وقت.

وقال: الأمن مع الفقر خيرٌ من الغنى مع الخوف.

أقوال أميروس[1]:

وقال أميروس: لن تَنْبُلَ لذاتك، واحلم تنبل، ولا تكن معجباً فتمتهن.

وقال لابنه: اقهر شهواتك؛ فإن الفقير من انحط إلى شهواته.

---

(١) «أميروس» هو الشاعر اليوناني المشهور صاحب الإلياذة والأوديسة.

وقال: ليكن فرحكم فيما تدخرونه لأنفسكم لا بما تُقْنونه لغيركم[1].

أقوال طيماوس[2]:

ويقال: إن لصّاً لقيَ طيماوس الحكيم وهو يريد صديقاً له، فقال له: عند صديقِكَ تقيمُ يومَك هذا؟ فقال: نعم وأبِيتُ[3].

أقوال زينون:

ورأى زينون الفيلسوفُ فتىً على شطِّ البحر محزوناً يتلهَّف على الدنيا.

فقال له: يا فتى ما تلهفك على الدنيا؟ لو كنتَ في غاية الغِنى وأنت راكبٌ في لُجَّة البحر قد أشرفْتَ على الغرق أنت ومالُك، هل كانت غايتك إلا النجاةَ بنفسك؟

قال: نعم. وكذلك لو كنتَ ملكاً وقد أحاط بك مَن يريد قتلك وأَخْذَ مُلكِك هل كانت غايتك إلا النجاةَ؟

قال: نعم.

---

(١) قلت: هو من القُنية ـ بضم القاف ـ بمعنى التملك.

(٢) طيماوس الحكيم: هو معلم سقراط، ولسنا ندري أله أم لآخر صنف أفلاطون المحاورة المشهورة بهذا الاسم؟ ولكن المراجع الإسلامية ـ أو بعضها ـ تُرجع إلى «طيماوس» هذا السبب في أن سقراط لم يكتب شيئاً؛ فقد جاء في نزهة الأرواح ص: ١٠٩: «وتعلّم ذلك من أستاذه طيماوس، فإنه قال له في صباه: لم لا تدعني أن أدوّن ما أسمع منك من الحكمة».

(٣) هذا النص غامض ولم أستطع فهم.
قلت: إنما يريد طيماوس أن يخبر اللص بأنه لن يرجع بل سيبيت عند صديقه حتى لا يتعرض له حال رجوعه، والله أعلم.

قال: فأنت الملكُ وأنت الغنيُّ، إلا أنك قد نجوتَ بنفسك فاقنع بما أنت عليه وتَعَزَّ[1]، فتعزّى.

أقوال سقراط:

وقال سقراطُ: أَحْبِبِ الموتَ تُوهَبْ لك الحياة.

أقوال أفلاطون:

وقال أفلاطون: إذا أحببت بقاءَ النفسِ فأَحْبِبْ موتَ الجسدِ، فيموت في العالم الجَهليِّ ببقاء النفس في العالم العقليّ.

وقال آخر: إنّا لم نُخلق للفناء بل للبقاء، ولكنّا نُنقلُ من دار إلى دار.

وقيل لأفلاطون: أيُّ العلومِ ينبغي أن يعلمَها الصبيانُ؟

فقال: العلومُ التي إذا كَبِروا سَمُجَ بهم جهلُها.

أقوال فيثاغورس:

ونظر فيثاغورس إلى شيخ يحبُّ النظر في الفلسفة ويستحي أن يُرى متعلماً.

فقال له: يا هذا أتستحي أن تكون في آخر عمرك أفضلَ مما كنت في أوله؟

وقال: ما بقاءُ عمرٍ تُنْقِصُه الساعاتُ، وسلامةُ بدنٍ معرَّضٍ للآفات...

وقال: مع كثرة العدلِ يقلُّ العَذَلُ[2].

---

(١) قلت: من العَزاء والتسلية.

(٢) قلت: أي اللوم.

وسُئل: أيُّ الناسِ أولى بالرحمة؟

فقال: أولى الناسِ بالرحمة ثلاثةٌ: الرجلُ البرُّ يكون في سلطان الفاجر، فهو الدهرَ حزينٌ لما يرى ويسمعُ، والعاقل يكون في تدبير الجاهل فهو الدهرَ متعب مغمومٌ، والكريمُ يحتاجُ إلى اللئيم، فهو الدهرَ لهُ خاضعٌ ذليلٌ.

وسُئل: متى تضيع أمورُ الناس؟ فقال: إذا كان الرأيُ عند من لا يُقبل منه، والسلاحُ عندَ من لا يستعمله، والمالُ عند مَن لا ينفقه.

وسُئل: ما الذي تحب أن تتلقى به نعمة الله عز وجل؟

فقال: بكثرة شكره ولزوم طاعته واجتناب معصيته.

نقوش فصوص خواتيم الفلاسفة:

ومما روي من نقوش فصوص الحكماء:

كان على فصِّ «سقراطَ»: مَن غلب هواه عقلَه افتضح.

وعلى مِنطَقته[1]: من غض طرفه أراح قلبه.

وعلى حائط بيته: أيها الإنسانُ إذا اتقيت ربك وحَذَرْتَ الطريقَ المؤديةَ إلى الشر لم تقع في الشر.

وكان على فص «فيثاغورس»: شرٌّ لا يدومُ خيرٌ من خيرٍ لا يدومُ.

وعلى فص «أفلاطس»: المَحكُ والمِراءُ سببا كشفِ الغطاءِ وقطعِ الإخاءِ.

وعلى فص «جالينوس»: من كتم داءه أعياه شفاؤه.

---

(١) قلت: أي ما يشده على وسطه.

وعلى فص «أومروس»: من لم يملِكْ عقلَه لم يملْك غضبَه.

وعلى فص «فرفوريوس»: من لزم الوفاءَ لزِمه الرضا، ومن قلَّ وفاؤهُ كثر أعداؤه.

وعلى فص «فيلاطس»: صديقُ كلِّ امرىء عقلُه، وعدوُّه جهلُه.

وعلى فص «فرفوريوس»: من صان لسانَه كثُر أعوانُه.

وعلى فص «ديوجين»: لا تلمِ القضاءَ فيما جنيتَ.

وعلى فص «سولون»: من ودّكَ لشيءٍ زال بزوالِهِ.

ومثلهُ: على فصٍّ آخر: من آخاك لأمرٍ صرمَكَ[1] لانقضائِه.

وبهذا ينتهي الاختيار من هذه المجلة الموقرة، والحمد لله ربِّ العالمين.



(١) قلت: أي قطعك.

فهرس الأعلام المترجم لها

فهرست المصادر والمراجع

١ - القرآن الكريم.

٢ - «**الإصابة في تمييز الصحابة**»، الحافظ ابن حجر = أحمد بن علي (ت٨٥٢).

نشر دار الكتاب العربي، بيروت.

٣ - «**الأعلام**»، خير الدِّين الزركلي (ت١٣٩٦).

نشر دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة، بيروت ١٩٨٠.

٤ - «**البداية والنهاية**»، الحافظ ابن كثير = إسماعيل بن عمر (ت٧٧٤).

نشر دار الفكر، بيروت.

٥ - «**تاريخ ولاة مصر وقضاتها**»، ابن زولاق الكنديّ.

٦ - «**تقريب التهذيب**»، الحافظ ابن حجر العسقلاني = أحمد بن علي (ت٨٥٢).

تحقيق: الأستاذ محمد عوامة، نشر دار الرشيد، حلب سنة ١٤٠٦.

٧ - «**الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**»، الحافظ ابن حجر العسقلاني = أحمد بن علي (ت٨٥٢).

تحقيق: محمد سيد جاد الحق، نشر دار الكتب الحديثة، القاهرة سنة ١٣٨٥.

٨ - «**ذيل الأعلام**»، أحمد العلاونة.

نشر دار المنارة، جدة، الطبعة الأولى سنة ١٤١٨.

٩ - «**سير أعلام النبلاء**»، الحافظ الذهبي = محمد بن أحمد(ت٧٤٨).

نشر مؤسسة الرسالة، بيروت.

١٠ ـ «صحيح الإمام البخاري»، (ت٢٥٦).
نشر دار الجيل، بيروت.
١١ ـ «طبقات الشافعية»، أبو بكر بن هداية الله الحسينيّ (ت١٠١٤).
تحقيق: الأستاذ عادل نويهض، نشر دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثالثة سنة ١٤٠٢.
١٢ ـ «علم التاريخ عند المسلمين»، فرانز روزنثال، ترجمة: د. صالح العلي.
نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٣.
١٣ ـ «علم الأعلام»، كتاب صدر بمناسبة وفاة الزركلي رحمه الله تعالى، صدر سنة ١٣٩٨ بدمشق.
١٤ ـ «لسان العرب»، ابن منظور الإفريقي = محمد بن مكرم (ت٧١١).
نشر دار صادر، بيروت.
١٥ ـ «لسان الميزان»، الحافظ ابن حجر = أحمد بن علي (ت٨٥٢).
نشر دار الفكر، بيروت، سنة ١٤٠٧.
١٦ ـ «مجمع الزوائد ومنبع الفوائد»، الحافظ نور الدِّين الهيثمي = علي بن أبي بكر (ت٨٠٧).
نشر مؤسسة المعارف، بيروت سنة ١٤٠٦.
١٧ ـ «المصنف»، عبدالرزاق بن همام الصنعاني (ت٢١١).
تحقيق: الشيخ حبيب الرحمٰن الأعظمي، توزيع المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية سنة ١٤٠٣.
١٨ ـ «المعجم الوسيط»، تأليف مجموعة من الأساتذة.
نشر مجمع اللغة العربية، القاهرة، الطبعة الثالثة.
١٩ ـ «الوافي بالوفيات»، صلاح الدِّين الصفدي = خليل بن أَيبك (ت٧٦٤).
اعتناء مجموعة من الأساتذة العرب والمستشرقين، نشر فرانز شتاينر. فيسبادن.
٢٠ ـ «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان»، شمس الدِّين خَلِّكان = أحمد بن محمد (ت٦٨١).
تحقيق: د. إحسان عباس، نشر دار الثقافة، بيروت.



فهرس تفصيلي للموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

